المؤرخ العربي

مجلة تصدرها الامانة العامة لاتحاد المؤرخين العرب
بغداد - العراق

رئيس التحرير
الدكتور حسين أمين
الامين العام لاتحاد المؤرخين العرب

العدد الخامس

هيئة التحرير

فهرس المواضيع

الصفحة

■ مقدمة ٧

■ الصلة بين النظم الاسلامية للماوردي والنظم في العصر السلجوقي ٩
الدكتور حسين أمين ــ جامعة بغداد

■ تاريخ نشوء علم السكان ومنزلة ابن خلدون منه ١٥
الدكتور عبد الكريم اليافي ــ دمشق

■ دور الابلة في تجارة الخليج ٣٢
الدكتور صالح الحمارنه ــ الاردن

■ علوم الانسان واهميتها في دراسة اليمنيين القدماء ٥٩
الدكتور يوسف شلحد ــ عدن

■ الحاجة الى اعادة كتابة التاريخ الاسلامي ٦٩
الدكتور محمود يوسف زايد ــ الجامعة الامريكية ــ بيروت

■ تجديد في ظل الاصالة ٨٣
الدكتور سعيد عبد الفتاح عاشور ــ الكويت

■ كربوقا صاحب الموصل ودوره في مقاومة الصليبيين ٩٥
ابراهيم خليل ــ جامعة الموصل

■ اللقاء الحضاري في الاندلس ١٢١
الدكتور عبد العزيز الاهواني ــ القاهرة

■ بناء الانسان من جديد ١٣٣
دكتور بروفسور كارل بتراجك الاستاذ بجامعة براغ

■ الحياة الاقتصادية والاجتماعية في سلجماسة عاصمة بني مدرار ١٤١
الدكتور الحبيب الجنحاني ــ تونس

■ العصور الوسطى الاوروبية ، حدودها الزمنية والنظريات التي قامت حول بدايتها ١٥٩
الدكتور جوزيف نسيم ــ الاسكندرية

■ مكة المكرمة مركز الدعوة العباسية ١٧٧
الدكتور علي عبد الرحمن أبا حسين ــ البحرين

■ مصادر تاريخ الجزيرة العربية ٢٠٧
الدكتور عبد الامير محمد أمين ــ جامعة بغداد

■ From the Arabian Gulf, to the Lands of the Bulgars ٢٢٩
Prof. Dr. Douglas Jackson

■ نشـــاطات الاتحـاد ٢٤٥

■ أهم الكتب التي صدرت حديثا ٢٥٣

مقدمة

الامانة العامة لاتحاد المؤرخين العرب يسعدها ان تقدم للقاريء الكريم هذا العدد الجديد من مجلته الموضوعية (المؤرخ العربى) وهى حافلة بالمواضيع والبحوث التاريخية التى ترمز الى وحدة الجهود المخلصة التي يبذلها المؤرخون العرب فى اخراج مجلتهم في اطارها الفكري السامي وتضافر اقلامهم المبدعة لابرازها فى سمتها الاكاديمية العالية •

ان الامانة العامة لاتحاد المؤرخين العرب وهى تقدم هذا العدد الجديد يشرفها ان تتقدم باخلص الشكر واجزله الى وزارة الاعلام والمجلس الوطنى للثقافة والفنون والآداب (في دولة الكويت) على تفضلهما بالموافقة على طبع هذا العدد تشجيعا للاتحاد وتقديرا منها لجهود المؤرخين الكبيرة في الحقلين القومى والعلمى •

تحية مخلصة الى كل من اسهم ويساهم فى دعم واسناد اتحاد المؤرخين العرب وتمكينه من اداء مهماته وتحقيق اهدافه ، وتحية الى جميع اخواننا وزملائنا المؤرخين العرب، ونعاهدهم على اننا سنبقى الامناء على العهد نعمل من اجل وحدة الهدف ووحدة الكلمة ووحدة التاريخ والحفاظ على تراث الأمة الخالد •

والله ولي التوفيق •

د. حسين امين

الامين العام لاتحاد المؤرخين العرب

الصلة بين النظم الإسلامية للماوردي والنظم في العصر السلجوقي

الدكتور حسين أمين
جامعة بغداد

اتسعت حضارة الاسلام فى عصر الماوردى اتساعا كبيرا ، شمل ميادين الحياة كافة ، لا سيما ميدان النظم والقوانين • وقد كان هذا نتيجة للتجارب التي مرت بها الدولة الاسلامية عبر العصور الطويلة ، وللتقدم العلمي الذى حققة المجتمع الاسلامي فى السنين السابقة ، بعد أن تم اللقاء بين الشعوب التي تخضع لسلطان الخلافة العباسية ، سواء كانت عربية أو غير عربية ، فقد تعاونت هذه الشعوب على اختلاف قابلياتها ومواهبها ، وتراثها الحضارى وتنافست في مجال الحركة العلمية وفى السياسة والادارة والتشريع فكان لذلك كله تأثير عظيم فى تطوير المجتمع ، ودفعه الى العمل من اجل التقدم الحضارى •

وكان لعصر الترجمة ، ولحركة الاعتزال يد فى هذا التطوير الشامل ذلك انهما أمدا رجال العلم بمعين لاينضب من الاراء والمذاهب فى مجالات الفقه والفتيا والنظم بوجه عام •

وكان للجدل الذى أثير في تلك السنين تأثير عظيم فى نضوج الفكر الادارى والسياسي أيضا •

وجاء عصر تحديد المذاهب الفقهية فى مجالات معينة فكان مكملا لتلك الخطوة ذلك انه وان حصر مجال النظر فى اطار ضيق لا يتعداه ،

الا انه فتح الباب للنقاش والجدل ضمن ذلك الاطار الضيق ، وكان سببا فى ظهور آراء جديدة ، دونتها كتب الفقه والفتيا والنظم •

وكان لعلماء الفقه يد بارزة في هذا السبيل ، فقد توسعوا فى الاجتهاد، وأتوا بتعليلات قيمة ، واحكام دقيقة ، نسج على منوالها كثيرون من علماء الاقطار الاسلامية الاخرين •

وكان قد قام القضاة بدور بارز فى التوصل الى آراء جديدة فى مجال الادارة والنظم وأتوا بآراء صائبة وبتخريجات مبتكرة لا نظيرلهـا • وقد غذى الخلاف فيما بينهم في مجالس النظر ، مادة التشريع والنظم ، وكان السلاطين الذين حكموا بلاد الاسلام آنذاك ــ فيما يبدو ــ يشجعون الخلاف فى امور الفقه والنظم ،ليصرفوا الناس عن الاشتغال بامور السياسة، ويباعدوا بينهم وبين الحركات الفكرية التى اثارت كثيرا من المشكلات التي زعزت حكمهم • وكانت الخلافة العباسية على ما يبدو تشاطر السلاطين فى هـذا الرأى •

كان اكثر الفقهاء والقضاة فى هذا الدور يعرضون مذاهب من تقدمهم، ويرجحون بعضها على بعض،ويدونون ذلك في كتبهم ، وقد انصبت معظم جهودهم على الجمع والتصنيف مع قليل من الآراء الجديدة ، أظهروها في باب « التخريجات » والماوردى كان احد اولئك القضاة الذين جمعوا آراء من سبقوه في باب النظم والفتيا •

والماوردى هو ابو الحسن علي بن محمد بن حبيب البصرى ، ولد بالبصرة ونشأ فيها ثم استوطن بغداد وفوض اليه القضاء في بلدان كثيرة ، وكان جليل القدر متقدما عند السلطان ، دينا تقيا ، وهو من وجوه فقهاء الشافعية وكبارهم ومن أهم مصنفاته الاحكام السلطانية وكتاب أدب الدنيا والدين وقانون الوزارة وسياسة الملك وكتاب الحاوى وغيرها •

وكانت وفاته يوم الثلاثاء سلخ ربيع الاول سنة ٤٥٠ هـ ودفن بمقبرة باب حرب ببغداد ، ومقبرة باب حرب ، فيما يبدو لي ، تقع فى الشمال الغربى من مقابر قريش (المشهد الكاظمي) وفيها دفن الامام احمد بن حنبل المتوفى سنة ٢٤١ هـ والصوفى البغدادى بشر الحافى المتوفى سنة ٢٢٧ هـ ، والمؤرخ الكبير الخطيب البغدادى المتوفي سنة ٤٦٣ هـ ،وكثير من اعلام المسلمين •

وكان له دور بارز فى نشر مبادىء الفقه الشافعي فى اوساط العالم الاسلامى
وكان له دور بارز فى نشر مبادىء الفقه الشافعي فى اوساط العالم الاسلامى
وتعميقها الامر الذى يدل على كبير منزلته وعلو مكانته بين رجال السلطة والناس معا • وكان سلاطين الدولة البويهية وهم من الشيعة الزيدية تثق به ويعتمدون عليه وكانت له صلة ودية بهم • وقد لقبوه بلقب (أقضى القضاة) تقديرا له واعترافا بفضله •

وقد كتب الماوردى فى الفقه الشافعى كتبا لها اهميتها في توضيح وتبيين احكام الفقه الشافعى ، مثل كتاب الحاوى الكبير ، وكتاب الاقناع وهو مختصر لكتاب الحاوى ، وقد نشر فتاوى مستمدة من روح مبادىء الفقه الشافعى فى الاحوال الشرعية المختلفة • وهذا الجهد الفقهى الواسع كان له اثره البالغ فى تعميق مبادىء الفقه الشافعى فى العراق بخاصة ، والعالم الاسلامى بعامة ، قد مهد الطريق ـ على ما اعتقد ـ للوزير نظام الملك لجعل المدارس النظامية ميدانا خاصا للمذهب الشافعى •

اما الاثر الآخر للماوردى فيظهر جليا في موضوع الاقطاع الذى كانت مظاهرة بارزة فى العصر البويهي ، ذلك ان الأمراء البويهيين اقطعوا القواد وكبار الموظفين اقطاعات استهدفوا من ورائها استرضاءهم • وقد اقتفى الملاحقة اثر البويهيين فى هذا الباب ، وزادوا عليهم • ولا يبعد أن يكون العصر السلجوقى قد تأثر كثيرا بما كتبه الماوردى فى هذا العدد •

وقد أظهر نظام الملك الوزير السلجوقي نشاطا كبيرا في تثبيت الاقطاعات العسكرية لجميع الجند السلجوقي ، وادرك ان الفرسان المدرجين في ديوان الجند لم توزع عليهم الا اقطاعات قليلة مبعثرة في سائر الاقاليم ، كما انه عارض فكرة تقليص عدد الجيش السلجوقي البالغ تعداده ٧٠ الف مقاتل ، ويذكر العماد الاصفهاني : ان الملك قد اختل نظامه والدين قد تبدلت احكامه في أواخر دولة الديلم (البويهيين) واوائل السلاحقة ، وقد خرجت الممالك بين اقبال هذه وادبار تلك ، ولم يكن لاحد من قبل اقطاع ، فرأى نظام الملك ان الاموال لا تتحصل من البلاد لاختلالها ، ولا يصح منها ارتفاع لاعتلالها ففرقها على الاجناد اقطاعا وجعلها لهم حاصلا وارتفاعا ، فتوافرت دواعيهم على عمارتها ، وعادت في اقصر مدة الى احسن حالة من حليتها ... وربما قرر لواحد من الجند ألف دينار في السنة فوجه نصفه على بلد من الروم ونصفه على وجه في أقصى خراسان ، وصاحب القرار راض .

مما سبق يبدو ان نظام الملك كان قد تأثر تأثرا كبيرا بالتنظيمات البويهية الخاصة بالاقطاع الا انه اظهر كفاءة كبيرة في تنظيمه وتنفيذه بشكل يعود على الدولة السلجوقية بما يجعلها تواكب مسيرتها لبلوغ اهدافها المرسومة ، ويمكن أن نقول ان نظام الملك كان أول من نفذ النظام الاقطاعي الحربي بشكله العام المنظم ، اذا ما علمنا ان هذا النظام كما قلت كان موجودا ومعمولا به في عصر البويهيين ، ولكن بشكل غير منتظم وسبب فوضى كبيرة كما انه لم يكن ليشمل جميع العسكريين .

وهناك نقطة مهمة لذلك النظام تلك هي ان الاقطاع البويهي امتلاك الارض . اما في العصر السلجوقي فان طبيعة الاقطاع فيه ، هو ان حق المقطع يتعلق بخراج الارض لا بالارض ذاتها ، فليست له سيطرة على المشتغلين بها ، كما انه يخضع لسلطة الحكومة وعليه أن لا يسيء استعمال اقطاعه ، كما يجوز نزع الاقطاع من المقطع اذا لم يقم بالالتزامات المفروضة عليه ، وكان الاقطاع السلجوقي محدود الامد ، فالتعديلات التى اجريت في العصر السلجوقي زمن نظام الملك أدت الى تنظيم الاقطاع واستهدفت ضمان

عدم الاساءة في استخدامه،لهذا نرى أن المقطعين كانوا يعملون جهدهم الى تحسين اقطاعاتهم وتنظيمها والاستفادة منها وتنفيذ الالتزامات المفروضة عليهم كي يكسبوا ارضاء الحكومة ويستمروا فى استثمارها •

هذا ولا يخفى ان الماوردى قد تناول هذا الموضوع وأسهب فيه ، والباحث المتعمق فى أحوال الدولة السلجوقية،وتوزيعها للاقطاعات ومعالجتها لمشكلات الاقطاع ، يرى بوضوح التشابه القوى بين آراء الماوردى وما طبق في العصر السلجوقى •

تاريخ نشوء علم السكان ومنزلة ابن خلدون منه

الدكتور عبد الكريم اليافي

يتألف هذا البحث من قسمين : يعرض القسم الاول مراحل نشوء هذا العلم كما يتصور الغربيون ويبرز القسم الثاني **سبق ابن خلدون** الى هذا الميدان بايضاحه علاقات العامل السكاني بجملة « متغيرات » اقتصادية وحضارية وثقافية الى جانب اعتماده هذا العامل مقياسا فى دحض بعض المزاعم التاريخية .

(١)

عقدت بباريس صيف ١٩٦١ الدورة الثالثة عشرة لمعهد الاحصاء العالمى بحث خلالها بعض العلماء الديمغرافيين تاريخ ميلاد علم السكان فنسبوا انشاءه الى التاجر الانكليزى جون غرونت John Graunt وبعد امد نشر بوريس اولانس احد الاساتذة فى معهد الاقتصاد باكاديمية العلوم فى الاتحاد السوفياتى مقالا فى مجلة بريد اليونسكو بعنوان « ميراث جون غرونت » (١) تحدث فيه عن ميلاد ذلك العلم . لنتعقب اولا ملامح هذا المقال . يرى مؤلفه من الصعب معرفة تاريخ ميلاد علم من العلوم معرفة دقيقة تامة ، اذ يكون غالبا مبعثرا او مطويا فى غياهب الماضى السحيق . ولكنه يستثنى من هذا التعميم علم السكان او « الديمغرافية » اذ اعتبر العلماء الحديثون كانون الثانى سنة ١٦٦٢ تاريخ ميلاد ذلك العلم حين نشر جون غرونت احد رجال الاعمال فى لندن كتابا بعنوان « ملاحظات طبيعية واجتماعية حول لوائح الوفيات

Natural and political observation made upon the Bills of Mortality.

(السياسى Political هنا بمعنى اجتماعى)

فكان هذا السفر اول عمل علمي في مجال الديمغراطية • ويكون قد مضى على نشوء هذا العلم ثلاثمائة وثلاث عشرة سنة •

لقد عكف ذلك التاجر فى ساعات فراغه جالسا قرب موقده ليلا على دراسة كشوف اسبوعية بالوفيات الواقعة فى لندن • ومن دراسته تلك وتحليله نجم ذلك الكتاب • وكان لغرونت صديق جميم هو وليم بتي William Petty عمد الى بعض الحسابات في هذا النطاق ، والف كتابا بعنوان « الحساب الاجتماعى » "Political Arithmetic" فدفع هذا الكتاب تلك البحوث بعض الخطوات الى الامام • لقد وجد بتى ان ثلاثة آلاف وفاة كانت في اكبر مستشفي بباريس من وراء سوء تنظيمه • هذا ولا احد بمعصم من الخطأ •

فقد اعتبر بيتى ان سكان لندن سوف يستمرون فى الازدياد حتى سنة ١٨٠٠ فقط • ولكن مجرى التاريخ اظهر خطل حكمة اذ ازداد اهالى لندن ثمانية اضعاف فى خلال مائة وخمسين سنة تلت ذلك التاريخ •

وجرى على آثارها فى هذا المضمار الفلكى الانكليزى ادموند هلي Edmund Halley • فاعتمد الاحصائية المتوافرة فى مدينة برسلاو Breslau (التب اصبح اسمها اليوم فركلو Wroolaw) فأنشأ سنة ١٦٩٣ اولى جداول وفيات • وقد نشرتها له الجمعية الملكية التي تأسست عام ١٦٦٠ وهي اقدم الجمعيات العلمية فى انكلترة •

ثم انتقلت هذه البحوث الى اليابسة باوروبة ابان القرن الثامن عشر ، حيث اهتم بها العلماء من مختلف الاقطار • فقد الف الاسف زسملش Süssmilch في جند فريدريك الكبير كتابا سنة ١٧٤٢ بعنوان « العناية الالهية في تطور النوع البشرى

Die Gottliche ordnung in den Veraderung des Menschlichen Geschlechts

وسلك نهجه فى فرنسة ديبارسبو Deparcieux وموهر Moheau

وفي ذلك العهد ظهرت تباشير علم السكان في روسية على يد ميخائيل لومونوسوف ذى الفكر الموسوعي • فلقد كان فيزياويا وكيماويا وشاعرا وجغرافيا واقتصاديا واحصائيا • انما عرض آراءه في قضايا السكان خلال رسالة كتبها فى ١ تشرين الثانى سنة ١٧٦١ الى صديقه الكونتشلافالوف خدن البراطورة اليزابت • أبان فيها مختلف العوامل التى تؤثر في السكان فتكبح نموهم ووصف التدابير التى تستطيع أن تحول دون ذلك الكبح ، وأشار فى رسالته من خلال تلك العوامل الى تفاوت اعمار الزوجين والى ارتفاع وفيات الرضع والى اثر ادمان الخمور فى ارتفاع معدل الوفيات عامة كما أشار الى قضية الهجرة من روسية واعتبر النازحين بمثابة « جثث ميتة » • وبحوثه هذه تدخل فى نطاق السياسة الديمغرافية •

وفي أواخر القرن الثامن عشر ظهر في انكلترة كتاب صغير اغفل مؤلفه اسمه فيه بعنوان « بحث فى مبدأ السكان » وازن صاحبه فيه بين ازدياد القوت او ما ندعوه الثروة في العصر الحاضر وتكاثر النوع الانسانى وخلص الى ان فقر الفقراء ناجم عن غريزة الانسال لا عن سوء النظام الاقتصادي والسياسى القائمين اذ ذاك • مؤلف هذا الكتاب الذى راج رواجا كبيرا هو القس الانكليزى توماس مالتس ، فوسعه واعلن اسمه وطبعه عدة مرات •

ثم جاء الباحث البلجيكى كيتلى Quételet فى القرن التاسع عشر فوطد دعائم الاحصاء عامة ، ومع انه لم يكن ركنا بارزا فى الرياضيات فقد توفق الى تطبيق حساب الاحتمال والاحصاء على القضايا الانسانية من ولادات و زواج ووفيات وغيرها •

وكان تعداد السكان قد اصبح امرا يزاوله بعض الدول مزاولة دورية منتظمة (اول تعداد جرى فى السويد سنة ١٧٤٩ وكانت تشمل فنلنده ولكن التعداد الدورى المنظم بدأ فى الولايات المتحدة الاميركية منذ سنة ١٧٩٠ كل عشر سنوات ، وفى بريطانية منذ سنة ١٨٠١ ، وفى بروسية منذ

١٨١٠ ، وفى النمسا والمجر منذ ١٨١٨ وهلم جرا •) وكذلك توطدت دوائر ضبط النفوس واحصاء الاحوال المدنية في مختلف البلاد • فقدم كل ذلك مادة غزيرة للعلماء الحديثين الذين توالوا وتعاقبوا في هذا الميدان•

ومن المعلوم ان الباحثين اعتادوا ان يطلقوا على هذا النوع من دراسات السكان لفظ « الديمغرافية » كما سلف • واول من استعمل هذا اللفظ المفكر الفرنسى آشيل غيار Achille Guillard سنة ١٨٥٥ فى كتابه المسمى « مبادىء الاحصاء البشرى او الموازنة في الديمغرافية • ,,Eléments de sttistique humaine ou démographie comparée وكان الباحثون قبلا يقولون احصاء السكان ومن الواضح ان لفظ الديمغرافية مؤلف من عنصرين يونانيين Demes ومعناه الشعب و Graphein ومعناه الوصف •

واريد تغيير هذا اللفظ المتضمن معنى الوصف ، فاستبدل به لفظ الديمولوجية Démologie اشارة الى الناحية العلمية فى هذه الدراسات فلم يتح لهذا اللفظ الانتشار ولا البقاء •

ولما اتى العالم الاجتماعى اميل دركهايم Emile Durkheim قسم علم الاجتماع اقساما عدة ، وجعل من هذه الاقسام بحثا اطلق عليه لفظ « المرفولوجية الاجتماعية » "Morphologie sociale" او علم التشكل الاجتماعى يتناول موضوعه اشكال المجتمعات وارتباط السكان بالارض وتوزعهم عليها وخصائصهم الديمغرافية والهجرة الداخلية والخارجية وسبل المواصلات وانماط المساكن وما تعلق بذلك • ولا يخفى ان هذا القسم عند المدرسة الاجتماعية الفرنسية واسع تدخل فيه المباحث التى يدل عليها لفظ الديمغرافية • وكان امام علماء الاجتماع ان يختاروا احد اللفظين الاخيرين دفعا للبس واختصارا للمصطلحات • وقد آثر موريس هلفكس Maurice Halbwachs وهو من اتباع دركهايم المقتفين لآثاره

لفظ المرفولوجية الاجتماعية على الديمغرافية . وحجته في ذلك ان تعبير دركهايم يتضمن معنى العلم ، ولفظ الديمغرافية يفيد الوصف المحض ، وكتب كتابا وسمه بعنوان « المرفولوجية الاجتماعية » يبحث اغلب فصوله قضايا السكان من توزع على الارض واعمار وجنسي ذكور واناث وولادات وزواج ووفيات وهجرة وما الى ذلك متقيدا فيه بالمنهج الدركهايمي .

وانشأ بعض علماء الاجتماع الامريكيين امثال ردريك د . ماكنزى Roderick D . Mackenzie دراسات اجتماعيــة دعوها الايدلوجيــة البشرية Human écology ولفظ الايكولوجية فى علم الاحياء يفيد دراسة علاقة الكائن الحي ببيئته . فاطلق هذا اللفظ بالتوسع على دراسة النظم الاجتماعية وعلاقتها بتجمع السكان وبيئاتهم . ويدخل هذا الاعتبار كثيرا من هذه البحوث فيما يريده دركهايم من لفظ المرفولوجية الاجتماعية .

وهكذا يبدو ان لفظ المرفولوجية الاجتماعية اوسع واعم من لفظ الديمغرافية حتى اطلق بعض الباحثين على دراسة السكان وقضاياهم من حيث الزواج والمواليد والاعمـار والوفيات والهجرة لفظ المرفولوجيــة الديمغرافية .

وشاع اصطلاح الاحصاء الحيوى Vital statistics فى اللغــة الانكليزية ، وهو يقابل فى الفرنسية Statistique de l'état civil ويعنى ضبط الاحوال المدنية وتطبيق الطرق الاحصائية عليها . وثمــة فى الانكليزية لفظ آخر وهــو Civil registration له الدلالة نفسها .

على ان لفظ الديمغرافية غدا اشيع هذه المصطلحات فى هذا المجال . وقد اصبحت الديمغرافية في العصر علما يتسع نطاقه شيئا فشيئا ، ويشمل على فروع عدة ، نذكر منها :

١ ــ انســاب الناس •

٢ ــ التعداد اى جمع احوال السكان الشخصيــة والاقتصاديــة والثقافية والصحية وغيرها ، وتقوم به الحكومات عادة •

٣ ــ ضبط الاحوال المدنية كالولادات والزواج والطلاق والمرض والوفيات والهجرة وامثالها وتطبيق الطرق الاحصائية عليها •

٤ ــ المسموح السكانية ، وهي طرق تعتمد (عينات) جزئية تختار بين السكان للحكم على المجموع ومعرفة بعض خصائصه •

٥ ــ القياسات الحيوية التى تتناول بالدراسة والرموز نمو الانسان وخصائصه من قوة وقامة وابعاد جمجمة وتركيب دم وتعمــير وتعــرض للامراض وما الــى ذلك •

٦ ــ تسجيل الامراض الانسانية ، وتقوم دوائر الصحة والمشــافى وشركات الضمان وامثالها ودراسة احتمال التعرض لهــا •

٧ ــ بحوث تحسين السلالات الانسانية وقضايا الوراثة المتعلقة بها •

٨ ــ الظواهر الاجتماعية والاقتصادية والسياسية والصحية والثقافية والنفسية المرتبطة بما سلف ذكره •

(٢)

لقد عرضنا عرضا يكاد يكون وافيا تاريخ نشوء الديمغرافية ومراحل توطدها في العصر الحديث • ويجب ان نشير اول الامر الى اننا نجــد شذرات متفرقة من تلك الفروع فيما كتبه الاقدمون من يونان كافلاطون في « الجمهورية » وارسطو فى « السياسة » ومن مؤلفين عرب عدة • ومن المعروف ان العرب كانوا يعنون بالانساب وتسجيلها وانهم انتبهوا للعوامل المؤثرة فى نمو السكان وتنقلهم ووفياتهم • ولكن كل ذلك كان متصــلا باعتبارات فكرية مختلفة فلسفية او دينية او حربية او غيرها ، ولم تكــن

له الصفات العلمية المتطلبة . وقد تغير الامر تماما حين جاء ابن خلدون ، فعالج في مقدمته التى كتبها عام ٧٧٩هـ = ١٣٧٧م مختلف القضايا التاريخية والاجتماعية والادارية والاقتصادية واولى الشؤون السكانية عناية فائقة .

ولما اراد ابن خلدون فى مقدمة « مقدمته » ان يلمح ـ على حد تعبيره ـ لما يعرض للمؤرخين من المغالط والاوهام ، وينبه على وجوب تمحيص اخبارهم وان بلغوا القمة من الشهرة والذروة من الحصافة اورد مثلا على ما نقله المسعودى وكثير من المؤرخين غيره فى جيوش بنى اسرائيل من « ان موسى عليه السلام احصاهم فى التيه بعد ان اجاز من يطيق حمل السلاح خاصة من ابن عشرين فما فوقها فكانوا ستمائة الف او يزيدون » ثم ينقد هذه الرواية من جملة وجوه احدها عدم احتمال ذلك العدد بالقياس الى ما يمكن ان تعبئه مصر والشام . ان « لكل مملكة من الممالك حصة من الحامية تتسع لها وتقوم بوظائفها وتضيق عما فوقها ، تشهد بذلك العوائد المعروفة والاحوال المألوفة ... ولقد كان ملك الفرس ودولتهم اعظم من ملك بنى اسرائيل بكثير ، ومع ذلك لم تبلغ جيوش الفرس قط مثل هذا العدد ولا قريبا منه » . ثم هنالك ايضا عدم الاحتمال لازدياد بنى اسرائيل الى هذا الحد في الفترة الواقعة بين اسرائيل وموسى . والمسعودى نفسه يروى ان قد « دخل اسرائيل مصر مع ولده الاسباط واولادهم حين اتوا الى يوسف سبعين نفسا ، وكان مقامهم بمصر الى ان خرجوا مع موسى عليه السلام الى التيه مائتين وعشرين سنة تتداولهم ملوك القبط من الفراعنة » . ويبعد ان يتشعب النسل فى اربعة اجيال الى مثل هذا العدد . وكذلك يبعد ان يتشعب النسل الى ذلك الحد لو ان احصاء الجيش وقع في زمن سليمان .

ان المؤرخين العرب كالمسعودى وامثاله نقلوا معلوماتهم تلك من « العهد القديم » جاء فى الفقرة ٤٦ من الفصل الاول من سفر العدد « كان

جميع المعدودين ست مئةوثلاثة آلاف وخمس مئة وخمسين » (٢) وورد هذا الرقم ايضا فى الفقرة ٣٢ من الفصل الثاني من السفر نفسه .

بيد ان العهد القديم كتاب ديني . ولذلك أخذ المسعودى الخبر منه على عواهنه . ولم يعرض ابن خلدون لهذا الكتاب الذى له صفة خاصة ، وانما انتقد المؤرخين الذين لم يمحصوا الخبر من الوجهة العلمية .

ومن السهل بيان عدم الاحتمال لذلك التناسل بشتى الارقام . وقد ابان الباحثون بعد مئات السنين من عهد ابن خلدون امتناعه . جاء فى كتاب « تاريخ سكان العالم » لمؤلفيه الاستاذين رنهار وارمنغوه ما يلى (٣) « ولهذا كان اولئك الذين فحصوا كشوف اعداد السكان بمجموعها او على الاصح عدد القادرين على حمل السلاح مما جاء فى التوراة استغربوا جواز احتمالها . فالكشوف تستلزم كون السكان يبلغ مجموعهم خمسة ملايين نسمة كسكان مصر وما بين النهرين على الرغم من ضآلة مساحة المنطقة وقلة غناها بالنسبة لذينك القطرين . ثم ان سرعة التناسل تبدو غير مقبولة فى تلك التواريخ المعروضة .

وجرى على نهج هذين الاستاذين غيوم وبوسو فى كتـاب لهما حديث بعنوان « الديمغرافية التاريخية » فالحا على امتناع ارقام التوراة حين ننظر الى تاريخ البلد او المنطقة فى ذلك العصر « فذلك العدد يتضمن وجود اكثر من خمسة ملايين نسمة . وهذا غير ممكن . وقلة دقة الارقام يثبتها علم السكان نفسه لان معدل النمو اذ ذاك اسرع مما هو ممكن ، كذلك توزع الجنسين والاعمار ممتنع (٤) » .

او ليس مؤلف المقدمة في موقعه المتأمل لمدى ازدياد السكان واعتماده اياه مقياسا لدحض بعض الارقام التاريخية هو واضع حجر الاساس قبل مئات السنين فى الصرح الحديث للديمغرافية التاريخية .

ان الحياة الاجتماعية تتألف من جملة « متغيرات » واهمية ابن خلدون انه نوه بهذه المتغيرات ، وربط بينها ربطا اقرب ما يكون الى الموقف الذى تعتمده فلسفة العلوم في العصر الحاضر • وذلك ان فلسفة العلوم المعاصرة تعتبر تلك المتغيرات ذات اشتباك وتداخل على شكل « دالة » او « تابع » بالمعنى الرياضى للتابع والدالة دون ان تلح على سببية وحيدة الجانب كما فعل بعض المفكرين امثال « تارد » فى التقليد و « فرويد » فى مشكلة « الليبيدو » وغيرها •

يحبو ابن خلدون عدد السكان مكانة كبيرة ويربط بينه وبين سعة الرزق ورفاهية الناس وازدهار التجارة • فقد عقد فصلا فى « ان تفاضل الامصار والمدن فى كثرة الرفه لاهلها ونفاق الاسواق انما هو فى تفاضل عمرانها فى الكثرة والقلة » وينبغى ان نفهم من لفظ العمران هنا عدد السكان مع كثرة الاعمال التى يقومون بها والتنظيم الذى يشملهم • ولا بد من ايراد شطر من هذا الفصل • يقول ابن خلدون ، « والسبب فى ذلك انه قد عرف وثبت ان الواحد من البشر غير مستقل بتحصيل حاجياته فى معاشه ، وانهم متعاونون جميعا فى عمرانهم على ذلك • والحاجة التى تحصل بتعاون طائفة منهم تسد ضرورة الاكثر من عددهم اضعافا • فالقوت من الحنطة مثلا لا يستقل الواحد بتحصيل حصته منه • واذا انتدب لتحصيله الستة او العشرة من حداد ونجار للالات وقائم على البقر و واثارة الارض وحصاد السنبل وسائر مؤن الفلح وتوزعوا على تلك الاعمال او اجتمعوا ، وحصل بعملهم ذلك مقدار من القوت فان حينئذ قوت لاضعافهم مرات • فالاعمال بعد الاجتماع زائدة على حاجات العاملين وضروراتهم • فأهل مدينة او مصر اذا وزعت اعمالهم كلها على مقدار ضروراتهم وحاجاتهم اكتفى فيها بالاقل من تلك الاعمال ، وبقيت الاعمال كلها زائدة على الضرورات ، فتصرف في حالات الترف وعوائدة وما يحتاج اليه غيرهم من اهل الامصار ويستجلبونه منهم باعواضة وقيمه ، فيكون لهم بذلك حظ من الغنى ، وقد

تبين .... ان المكاسب انما هى قيم الاعمال ، فاذا كثرت الاعمال كثرت قيمتها بينهم ، فكثرت مكاسبهم ضرورة ، ودعتهم احوال الرفه والغنى الى الترف وحاجاته من التألق فى المساكن والملابس واستجادة الآنية والماعون واتخاذ الخدم والمراكب . وهذه كلها اعمال تستدعى بقيمها ويختار المهرة فى صناعتها والقيام عليها . فتنفق اسواق الاعمال والصنائع ويكثر دخل المصر وخرجه ، ويحصل اليسار لمنتحلي ذلك من قبل اعمالهم . ومتى زاد العمران زادت الاعمال ثانية ، ثم زاد الترف تابعا للكسب وزادت عوائده وحاجاته ، واستنبطت الصنائع لتحصيلها فزادت قيمها ، وتضاعف الكسب فى المدينة لذلك ثانية ، ونفقت سوق الاعمال بها اكثر من الاول ، وكذا فى الزيادة الثانية والثالثة ، لان الاعمال الاصلية التي تختص بالمعاش . فالمصر اذا فضل بعمران واحد ففضله بزيادة كسب ورفه وبعوائد من الترف لا توجد فى الآخر . فما كان عمرانه من الامصار اكثر واوفر كان حال اهله فى الترف ابلغ من حال المصر الذى دونه وتيرة واحدة فى الاصناف .

ثم يقول : « واما حال الدخل والخرج فمتكافىء فى جميع الامصار . ومتى عظم الدخل عظم الخرج ، وبالعكس . ومتى عظم الدخل والخرج اتسعت احوال الساكن ووسع المصر .

كل شيء يبلغك من مثل هذا فلا تفكره واعتبره بكثرة العمران وما يكون عنه من كثرة المكاسب التى يسهل بسببها البذل والايثار على مبتغيــه » .

لقد اطلنا فى ذكر هذا النص . ويشفع لنا فى الاطالة اهميته فى الديمغرافية الاقتصادية التى تتبين العلاقة الواشجة بين السكان والاقتصاد . والاقطار عند ابن خلدون كالامصار تقدما او تأخرا بسبب العمران واتساع السكان. فهو يعقد فصلا آخر « فى ان الاقطار فى اختلاف احوالها بالرفه والفقر مثل الامصار » فيقول : « ان ما توفر عمرانه من الاقطار وتعددت الامم فى

جهاته وكثر ساكنه اتسعت احوال اهله وكثرت اموالهم وامصارهم وعظمت دولهم وممالكهم • والسبب فى ذلك ما ذكرناه من كثرة الاعمال وما يأتي ذكره من انها سبب للثروة بما يفضل عنها بعد الوفاء بالضرورات في حاجات الساكن من الفضلة البالغة على مقدار العمران وكثرته » ويضرب مثلا اقطارا فى المشرق وفي المغرب لعهده : « واعتبر ذلك باقطار المشرق مثل مصر والشام وعراق العجم والهند والصين وناحية الشمال كلها واقطارها وراء البحر الرومي لما كثر عمرانها كيف كثر المال فيهم وعظمت دولتهم وتعددت مدنهم وحواضرهم وعظمت متاجرهم واحوالهم •

واعتبر حال هذا الرفه من العمران فى قطر افريقية وبرقة (تونس وليبيا) لما خف ساكنها وتناقص عمرانها كيف تلاشت احوال اهلها ، وانتهوا الى الفقر والخصاصة ، وضعفت جباياتها فقلت اموال دولها » •

ونجد ابن خلدون فى هذا الصدد يتنبه لتفاوت اسعار المدن فى الضرورى والكمالي بتفاوت اتساعها « فاذا استبحر المصر وكثر ساكنه رخصت اسعار الضرورى من القوت وما فى معناه ، وغلت اسعار الكمالي من الادم والفواكه وما يتبعها • واذا قل ساكن المصر وضعف عمرانه كان الامر بالعكس » •

وتعليل ذلك ان الدواعى تتوفر على اتخاذ الضرورى فى الامصار الواسعة وعلى تأمينه للحاجة الملحة اليه ، فيفضل وفر منه وترخص اسعاره ، على حين ان الكمالي فيها يشتد الطلب عليه فيقصر الموجود منه عن الحاجات قصورا بالغا ويكثر المستامون له وهو قليل فى ذاته نسبيا فيقع فيه الغلاء •

وعلى خلاف ذلك « الامصار الصغيرة القليلة الساكن • فاقواتهم قليلة لقلة العمل فيها وما يتوقعونه لصغر مصرهم من عدم القوت، فيتمسكون بما يحصل منه فى ايديهم ويحتكرونه ، فيعز وجوده لديهم ويغلو ثمنه على مستامه • واما مرافقهم فلا تدعو اليها حاجة لقلة الساكن وضعف الاحوال ، فلا تنفق لديهم سوقه ، فيختص بالرخص فى سعره » •

ومن المناسب هنا ان ننوه « ان ابن خلدون حين يتحدث في » حقيقة الرزق والكسب « ويشرحها يرى ان الكسب هو قيمة الاعمال البشرية • فهو يقترب من نظرية ماركس في العمل والقيمة • انه يقرر ان « ما يفيده الانسان ويقتنيه من المتمولات ان كان من الصنائع فالمفاد والمقتنى منه قيمة عمله ، وهو القصد بالقيمة ، اذ ليس هناك الا العمل « وعلى هذا فان المفادات والمكتسبات كلها أو اكثرها انما هى قيم الاعمال الانسانيـة » ولا يغفل ابن خلدون دخول الضرائب في قيمة السلع فيقول •

« وقد يدخل ايضا فى قيمة الاقوات ما يفرض عليها من المكوس والمضارم للسلطان فى الاسواق وابواب المصر وللجباة فى منافع يفرضونها على البياعات لانفسهم » (٥) •

كذلك يربط صاحب المقدمة بين اتساع العمران وتقدم الحضارة ورسوخها ويولي الدولة شانا فى هذا المجال « واكثر ما يقع ذلك فى الامصار لاستبحار العمران وكثرة الرفه فى اهلها وذلك كله انما يجيء مـن قبل الدولة » (٦) ولا شك ان المال عنصر اساسي فى هذا التقدم •

ثم ان « العلوم انما تكثر حيث يكثر العمران وتعظم الحضارة (٧) وذلك » ان الصنائع انما تكثر فى الامصار • وعلى نسبة عمرانها في الكثرة والقلة والحضارة والترف تكون نسبة الصنائع فى الجودة والكثرة لانه امر زائد على المعاش فمتى فضلت اعمال اهل العمران عن معاشهم انصرفت الى ما وراء المعاش من التصرف فى خاصة الانسان وهى العلوم والصنائع •ومن تشوف بفطرته الى العلم ممن نشأ فى القرى والامصار غير المتمدنة فلا يجد فيها التعليم الذى هو صناعي لفقدان الصنائع فى اهل البدو كما قدمناه •ولا بد من الرحلة فى طلبه الى الامصار المستبحرة شأن الصنائع كلها •

واعتبر ما قررناه بحال بغداد وقرطبة والقيروان والبصرة والكوفـة لما كثر عمرانها صدر الاسلام واستوت فيها الحضارة كيف زخرت فيها بحار

العلم ، وتفننوا فى اصطلاحات التعليم واصناف العلوم ، واستنباط المسائل والفنون حتى أربوا على المتقدمين وفاتوا المتأخرين • ولما تناقص عمرانها وابذعر سكانها انطوى ذلك البساط بما عليه جملة ، وفقد العلم بها والتعليم وانتقل الى غيرها من امصار الاسلام » •

هذا وللدولة اعمار ، وللعمران مراحل • وهذه المرحلة متصلة بالظواهر الديمغرافيه • ان الدولة فى اول امرهـا اذا كانت « رفيقة محسنة انبسطت آمال الرعايا وانتشطوا للعمران واسبابه فتوفر ، ويكثر النسل » (٨) حتى اذا انتهت الدولة الى غايتها فى الترف والنعيم تقع المجاعات بسبب عوز الاقوات لقبض الناس ايديهم عن الفلح للعدوان في الامـوال والجبايـات وللفتن كما يكثر الموتان بسبب المجاعات انفسها والفتن والازدحام وانتشار الامراض (٨) •

اما قضية الازدحام وانتشار الامراض فهذا صحيح • لقد كان معدل الوفيات لامد قريب فى الريف بحيث تنبسط الحقول وتشتبك الغابات اقل منه فى المدن • بيد ان الامر قد انقلب فى عقـود السنين الثلاثة الاخيـرة ، فاصبح فى المدن اقل منه فى الارياف بوجه عام او لاعمار معينة (٩)

ذلك ان احوال المدن فى العصر الحاضر قد تغيرت عنها في غابر الدهر • فقد اتسعت الشوارع وزادت الخدمات الصحية وتحسنت مرافـق الحيـاة وجرت المياه النقية الى البيوت وانتشرت النظافة واخذت الهيئات المسؤولة تبذل جهودها فى تنظيم الخطط المناسبة لانشاء المـدارس والحوانيت فى افضل الاحوال المريحة •

وقد نبه ابن خلدون قديما على ان تخلل الخلاء والقفر بـين العمران ضروري ليكون تموج الهواء يذهب بما يحصل في الهواء من الفساد والعفن بمخالطة الحيوانات وياتي بالهواء الصحيح ، ولهذا ايضا فان الموتان يكون فى المدن الموفورة العمران اكثر من غيرها بكثير » (٨) •

ان ذكر ابن خلدون لفظ مخالطة الحيوانات التي كانت مطايا الركوب لعهده ينبغي ان نستبدل به فى عصرنا مخالطة السيارات وما تنفثه فى الجو من بقايا المحروقات . واذا كان معدل الوفيات قد تبدل فى العصر الحاضر فنقص بالمدن عنه بالريف فلقد كان ذلك العالم العربى حريصا على الاحتياط والتنبيه الى اختلاف الاحوال حين كتب فى مقدمة « مقدمته » هذه الفقرة الرائعة « وذلك ان احوال العالم والامم وعوائدهم ونحلهم لا تـدوم على وتيرة واحدة ومنهاج مستقر ، انما هو اختلاف على مر الايام والازمنة وانتقال من حال الى حال وكما يكون ذلك في الاشخاص والاوقات والامصـار فكذلك يقع في الآفاق والاقطار . »

واما المجاعات فيهمنا هنا من بعض اسبابها التي ذكرها ابن خلـدون الاسراف فى العناية بزراعة ما ليس فيه ليس فيه فائدة غذائية للشعب المزدحم لنترك هذا المؤلف يتحدث ايضا فيقول: «وهذا معنى ما يقول بعض اهل الخواص ان المدينة اذا كثر فيها غرس النارنج تأذنت بالخراب . حتى ان كثيرا مـن العامة يتحامى غرس النارنج بالدور ، وليس المراد ذلك ، ولا انه خاصية فى النارنج وانما معناه ان البساتين واجراء المياه هو من توابع الحضارة . ثم ان النارنج والليم والسرو وامثال ذلك مما لا طعم فيه ولا منفعة هو من غاية الحضارة اذ لا يقصد بها في البساتين الا اشكالها فقط ، ولا تغرس الا بعد التفنن فى مذاهب الترف . وهذا هو الطور الذى يخشى معه هلاك المصر وخرابه كما قلناه . ولقد قيل مثل ذلك فى الدفلي . وهو من هذا الباب ، ان الدفلي لا يقصد بها الا تلون البساتين بنورها ما بين احمر وابيض وهو من مذاهب الترف (١٠) يمكن مقايسة هذه الاراء الاخيرة المتعلقة بزراعة الارض ما لايغذى بما جاء عند فريق من الاقتصاديين الغربيين ، نختار منهم اقتصاديا طريفا هو اوتو افرتز

لقد ارتكز هذا الاقتصادى الحديث الى قول المفكــر الانكليزى وليم بتي الذي مر ذكره والذى عاش فى القرن السابع عشر وهو « ان العمل ابو الثروة والارض امها » فاعتبر ان « الانسان يتغذى من التراب » وان « الانسان يأكل ترابا » على حد تعبيره • وحقا تندر السلع الغذائية التي لا تأتى من الارض •

فاستهلاك الخيرات التي تعتمد خاصة على الارض ولا ينفع استهلاكها الناس انما هو « تحطيم لارواح بشرية « على حد دعواه ، اذ لو لم تستهلك تلك الخيرات فى تربية خيل السباق مثلا او حدائق التجميل لعاشت بها الناس فاستهلاكها يحرمهم من الوجود • وهنا تنجلى بعض العبارات المستغلقــة التي يوردها اوتو افرتز فيقول مثلا : « ان الاسرة المتأنقة التي للزوج فيها رياضته وللزوجة زينتها لتزرع الموت والاستعباد بين طائفة من الكائنات الانسانية » (١١) •

وهكذا تتفهم موقف ابن خلدون في الحكــم علــى المغالاة فى ترف المزروعات التجميلية عند ازدحــام الشعب فى اكتمال الحضارة ووقــوع المجاعات •

الخلاصة

والخلاصة انه لبيان مكانة ابن خلدون قد تفيد مقارنته ولو لماما بآخرين من المشاهير في هذا الميدان •

لقد شاع اسم مالتس فى عالم الاقتصاد والسكان • وهو الوجه المنيف فى مراحل نشوء هذين العلمين • رأى هذا القس الانكليزى ازدياد النوع البشرى أشد من ازدياد الثروة،كما رأى الارتباط حتميا بين هذين المتغيرين ورد على مبادىء غودوين الاشتراكية وعلى مزاعم كندورسي المتفائلة في تطور الانسان وادعى ان القوانــين الثابتة للطبيعة البشريــة تجعل من المتعــذر تخليص طبقــات المجتمع الدنيا مــن نير الفاقة • فلاح كتابــه لا يدعــو الى الفلاح ، وكانه نعيب غراب على شرفات جدران المدنية •

وفي المقابل نجد ابن خلدون اكثر نفعا فى تفهم عناصر المجتمع واوسع اتباعا لمختلف « التغيرات » الاجتماعية وارجح موقفا فى بيان العلاقات المتطورة بينها واصدق تحديدا لمعالم الحضارة واكد تمييزا لمقاييسها وذلك فى سياق بحثه للحوادث التاريخية والظواهر الانسانية . وانه لمن الظلم لابن خلدون على تقدم عهده ان يوازن بينه وبين مالتس واشباهه او ليس جديرا بعد ما قدمناه ان يعتبر مؤلف المقدمة واضع الحجر الاساسي في الديمغرافية الاقتصادية ايضا ان لم تقل فى الديمغرافية كلها .

لقد ترجمت مقدمة ابن خلدون منذ امد الى بعض اللغات الاجنبية . وعلى هذا ليس صحيحا انه من السهل الحسم بتاريخ ميلاد الديمغرافية كما فعل بعض الباحثين ، بل انه من الضرورى الانتباه للتراث الحضارى الانساني اجمع لا الى جزء ضئيل وضيق منه . ولما كانت الديمغرافية تهتم بالاعمار وجب ان نصحح لها عمرها .

وهكذا يكون ميلادها الحقيقي مقرونا بميلاد مقدمة ابن خلدون قد مضى عليه خمسمائة وثمان وتسعون سنة لا ثلاثمائة وثلاث عشرة .

المصادر والمراجع

(١) Boris Ourlamis, Le Courrier, Unesco, février, 1967.

(٢) نحافظ هنا على طريقة كتابة العهد القديم . وهي طريقة اهل الكوفة فى كتابة الرقم ١٠٠

(٣) Marcel R. Reinhard et André Armengaud, Histoire de la pulation mondiale, Ed, Montohrestien, 1961, p. 26.

(٤) Pièrre Guillaume et Jean Poussou, Démographie historique Librairie A. colin, 1970, p. 39.

(٥) اعتمدنا فى ايراد نصوص المقدمة طبعة الاستاذ الدكتور علي عبد الواحد وافي وقد ذكر الاستاذ التحريف الكبير الذى اصاب هذه الجملة فى « فصل اسعار المدن » اذ وردت وابواب الحفر والحياة . ولكن المحقق صححها على النسخة الخطية التيمورية . هذا ونرى ربما كان الاصل « وابواب الخفر والجباة » والخفر هو الحراسة .

(٦) فصل فى ان الحضارة فى الامصار من قبل الدول

(٧) عنوان فصل فى المقدمة

(٨) فصل فى وفور العمران آخر الدولة وما يقع فيها من كثرة الموتان والمجاعات

(٩) انظر فى بيان ذلك كتابنا « فصول فى المجتمع والنفس » ص ٩٧ ، ٩٨.

(١٠) فصل فى ان الحضارة غاية العمران

(١١) Otto Effertz, Théorie ponophysiocratique de la population
Revue d'Econo mie politique, 1914 وانظر ايضا
Pierre fromont, D emographie Economique Payot 1974
وكتابنا فى علم السكان جامعة دمشق ١٩٥٩ .

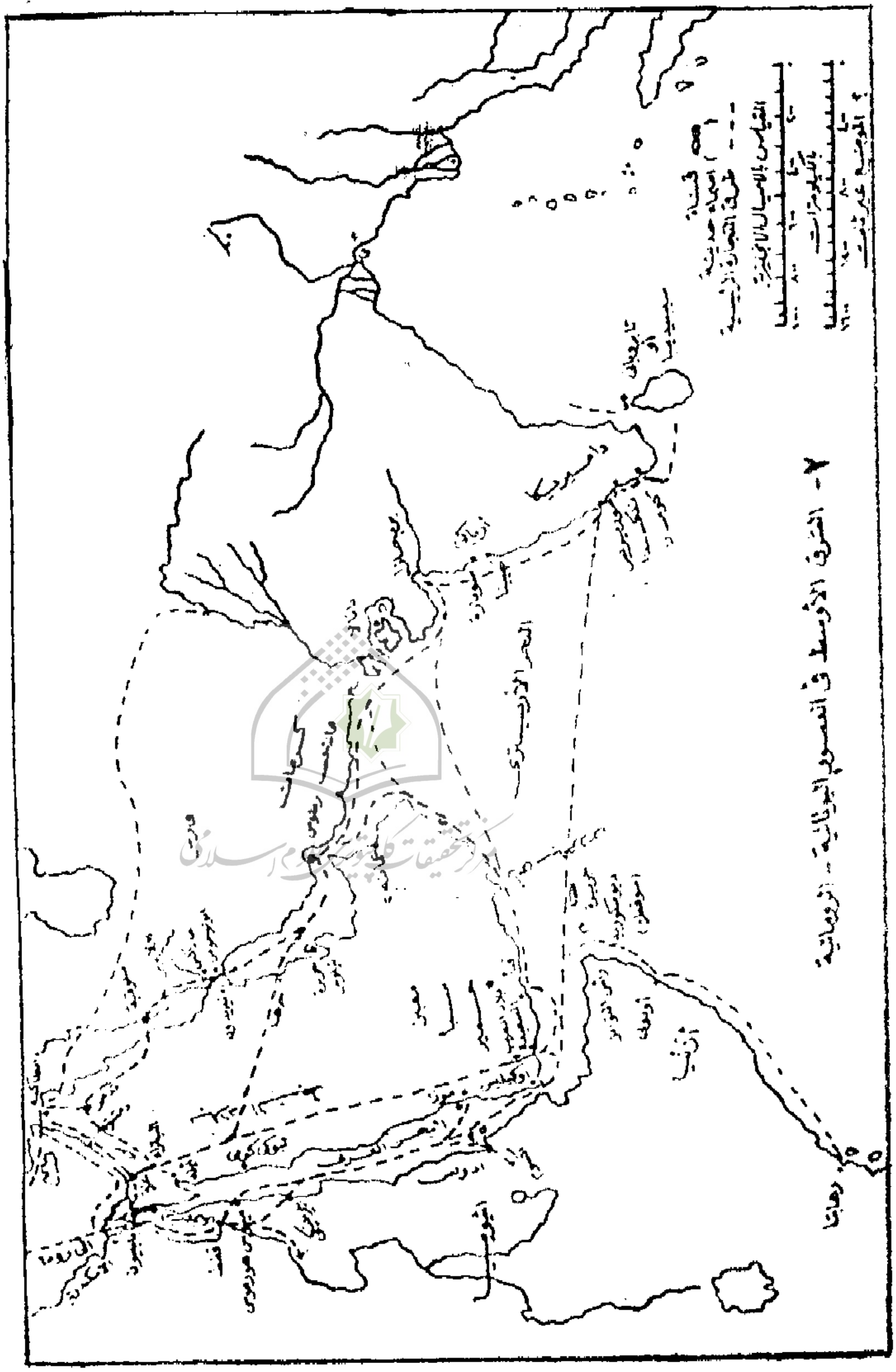
دور الأبلة في تجارة الخليج

الدكتور صالح الحمارنه
الجامعة الاردنية ـ كلية الآداب
عمـان

لقد كان الابله اليونانى Apologos معروفا في المئة الرابعة قبل الميلاد فقد ذكره نيار خوس Near chus البحار الاقريطشى فقد كان هذا البحـار قائدا لاسطول الاسكندر وقد اختاره الاسكندر للتعرف على الطريـق البحرى من نهر السند الى مصب الرافدين ، فأعد لذلك اسطولا ضخمـا فبدأت رحلته عام ٣٢٦ ق٠م٠ من ميناء الاسكندر ، الواقعة على مقربـة من كراتشى الحالية • وقد طالت رحلته خمسة شهور ومما ذكره بالنسبة لمدينة ابو لوخوس « فيها مستودع تجارات خليج فارس » وان ابولو خوس هي الابله عند العرب و ubulum فى النقوش الاكاديه (٣) •

والظاهر ان اليونانيين بعد الاسكندر قد تكاثروا في اقليم البطائح وفى البصرة حيث كانت تقوم مدينة تريدون (تردن) وكانت الابله بمثابة الميناء لهذه المدينة وكان اليونانيون يشتغلون بالملاحة والتجاره •

وهناك كتاب صغير من تأليف تاجر يونانى كان يعيش فى مصر فى القرن الاول للميلاد واسم هذا الكتاب مترجم الى الانكليزية Periplus of the Erythraeam Sea وقد سماه الاستاذ نقولا زيادة بـ « دليـل البحر الاريثرى (٤) » •



٧ - الشرق الأوسط في العصور اليونانية - الرومانية

يذكر المؤلف فيه بالنسبة للخليج العربـي اسمين فقط وهما ابـو لوخوس (الابله) وشراكس سباز لينى (المحمره) • ويكتفى بالاشارة الى عمان بالنسبة الى الخليج الآخر • ويذكرنا بان عمان فيها تمر ونبيذ وسفن مخيطه أو كما يبدأ من الكلمة التى يذكرها « مادراتا » مدرعه على ما ارتأى غلازر ، ولكن عمان الميناء كانت متجرا كبيرا اذ كان يأتيها النحاس وعود الند وخشب التيك والأبنوس والخشب الاسود (من الهند) والبخور (من قنا) ، كما نها كانت تصدر بالمقابل القوارب والسفن المدرعه (مـن جدوع النخل) واللؤلؤ (الآتى من الخليج العربى) والثياب وبعـض النبيذ والذهب والرقيق (٥) •

أما بالنسبة الى الابله فيقول عنها أنها مدينة من آسواق « بارتيا » أى اقليم فارس ، تصدر الى اليمـن الكثير من اللؤلـؤ والارجـوان والخمـور والبلح والذهب والعبيد وربما كان سكان هـذين الميناءين التوأمين (اى ابولوغوس وشراكس) مزيجا من العرب والكلدانيين والفرس وكان أحدهما او كلاهما نقطة بداية لرحلات حول الجزيرة العربية (٦) •

من هنا نرى ان تجارة الخليج العربى طوال عهـد الامبراطوريـة الرومانية كانت من أيدى مدن صغيرة مثل الابله وشراكس • يضاف اليهما مدينة تدمر السورية فى الصحراء وكان لها معهما اتصال وثيق (٧) •

ومن المحتمل ايضا ان الفرس كانوا يسيرون السفن من الابله الى الصين قبل الاسلام ، فلقد كانت جزيرة سيلان مركز التجارة البحرية فى الفترة الساسانية ما بين الصين والشرق الادنى • اذ ثمة تجارة مباشرة كانت قائمة ما بين الامبراطورية الساسانية والصين (٨) ، وكان المشتغلون بالملاحة والتجارة في الابله عرب وفرس ، فلقد شكا من نشاط التجار العرب والفرس المتسلطين على متاجر الخليج العربى وموانئه منذ وقت بعيد انطيوخوس الرابع (١٧ ـــ ١٦٤) ق•م السلوقى (٩) •

ولا غرو فان الطبرى يذكر « ان الابله كانت تسمى قبل الاسـلام ـ فرج الهند ـ (١٠) فقد كانت العلاقات البحرية بين هذا الميناء والهند وثيقة الى حد بعيد حتى ان حاكمها الفارسى كان قد حارب الهند في البحر • مما يدل على وجود قراصنه من الهنود فى الخليج العربى أو خليج عمان (١١) •

من هنا نرى ان الابله كانت عند الفتح الاسلامى للعراق مرفأ السفن من عمان والبحرين ومن الهند والصين ، فكيف تم فتح هذا الميناء وكيف كان مصيره في العهد الجديد فى ظل الدولة العربية الاسلامية •

لقد كان يقطن في الابله قبيل الفتح بجانب العرب والفرس كثير من النبط ونصارى ويهود ففى السنوات (٥٢٤ ـ ٥٣٥) م كان فى الابلـه مركز لمطرانية النصارى النساطره (١٢) •

ومن بين العشائر العربية التى كانت مستوطنة قرب الابله كانت قبيلة بكر الباسلة والتى كانت قد انتصرت عن الفرس قبل الاسلام فى معركة ذى قار وقد شجعها هذا الانتصار فاخذ بعض رجالها يقومون بغارات علـى الاطراف الغربية للدولة الساسانية (١٣) يشرح البلاذرى في كتابه «فتوح البلدان » فتح الابله بشيء من التفصيل لا نرى ضرورة نقله هنا ولكنـه يذكران عتبه (ابن غزوان) غزا الأبله وفتحها عنوة • وكتب الى عمر بن الخطاب (٦٣٤ ـ ٦٤٤) م يعلمه ذلك ويخبره أن الابله فرضة البحريـن وعمان والهند والصين (١٤) •

ويذكر الشيخ نعمان بن العراق وهو من المؤرخين المتأخرين (القرن العاشر/السادس عشر م) فى كتابه « معدن الجواهر بتاريخ البصرة والجزائر تفاصيل جمه حول فتح الابله منها انه لما نزل عتبة الخريبه كان فى الابله خمسة من الاساوره (فرس) وكانت مرفأ الصين وما دونها ، خرج اليـه اهل الأبله فناهضهم عتبة •• وبعد ايام القى الله في قلوب اهلها الرعب

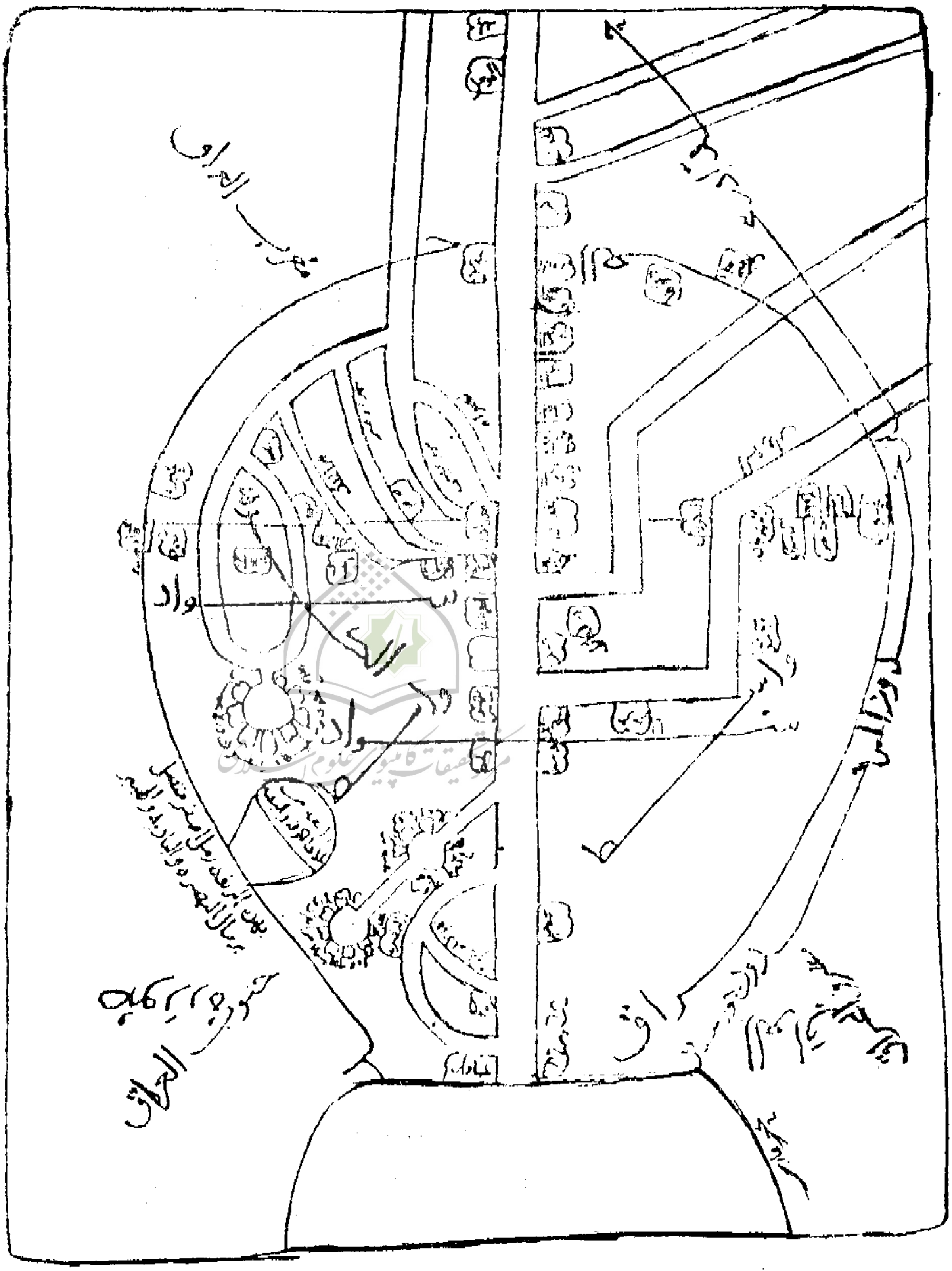
فخرجوا عن المدينة وحملوا ما خف وعبروا الفرات وخلوا المدينة فدخل المسلمون فأصابوا متاعا وسلاحا وسبيا وعينا ..

يذكر الشيخ نعمان : لما فتح المسلمون الأبله لم يجدوا قساما يقسم بينهم وكان زياد (ابن ابيه) الذى شارك بالفتح معهم) قاسمهم وهو ابن اربع عشرة سنة وله ذؤابة فأجروا عليه كل يوم درهمين » .

وقال أحدهم « شهدت فتح أبله مع عتبة بن غزوان فأصبنا سفينه مملؤة جوزا فقال رجل ما ما هذه الحجارة ؟ وكسرناها فأكلنا منها ، فقلت هذه طعام طيب » . ويضيف الشيخ النعمان فيقول « والأبله صغيرة المقدار حسنة الديار واسعة العمارة مستقلة البساتين عامرة بالناس (المياسير) وأهلها من أخصب العيش ورفاهيته ... وهم ابخل قرية وابعدها عن السخاء (١٥) .

مثل هذا الوصف قد سبق اليه الجغرافيون والمؤرخون العرب منذ نهاية القرن الثالث فالرابع الهجرى وما بعد ذلك التاريخ ، فمثلا نرى الاصطخرى يقول « الأبله مدينة صغيرة خصبة عامرة ... » ويزيد فيصف الميناء ونهر الابله فيقول وللبصرة نهر يعرف بنهر الابله طوله اربعة فراسخ ما بين البصرة والابله ، وفي حافتى هذا النهر قصور وبساتين متصلة وكأنها بستان واحد .. » (١٦)

ويزيد فى هذا الوصف ابن حوقل فيقول « وكان لبساتين بضفاف الأبله » قد مدت على خيط ، ورصعت بالمجالس الحسنة والمناظر الانيقة والابنية الفاخرة والعروش العجيبة والاشجار المثمرة والفواكه اللذيذة ، والرياحين الغضة المركب منها مثل الحيوان والبرك الفسيحة المرصوفة . ولا تخلو من المتنزهين بغرائب الملاذ وتحف المتطرفين منحدرين ومصعرين » ومشهورة فى التاريخ « المناديل البليه والعمائم » (١٧) .



صورة العراق

من هنا نرى ان الأبله هي مرفأ البصرة ومركز تجارتها البحريـة •
وكان نهر الابله مرصوفا بالسفن بصورة مستمرة وقد صرفت مبالغ كبيرة لانشاء ادراج صخرية على ضفاف نهر الابله ليمكن النزول الى مستـوى النهر الواطىء وقت الجزر تسهيلا لشحن السفر بالبضائع أو لتفريغها (١٨)• وقد ظلت الابله مركزا للتجارة البحرية حتى بعد حفر قناة الابله التى كانت تربط هذا الميناء بالبصرة نظرا لأنه كان في فوهة هذه القناة دوارة تمنع مرور السفن (١٩) •

أما ناصر خسرو والذى أتى بعد الاصطخرى وابن حوقل فيما يقارب القرن فيذكر في كتابه سفرنامه حينما زار بنفسه الابله والبصرة وفى التحديد فى عام ٤٤٢هـ/١٠٥١م فيقول : ـ

« والابله التي تقع على النهر المسمى بها ، مدينة عامـرة وقد رأيت صورها وأسواقها ومساجدها واربطتها وهي مـن الجمال بحيث لا يمكـن حدها أو وصفها ، والمدينة الاصلية تقع على الجانب الشمالي للنهر وعلـى جانبه الجنوبي يوجد من الشوارع والمساجد والاربطة والاسواق والابنية الكبيرة ما لا يوجد أحسن منه فى العالم • وهذا الجانب الجنوبى يسمى شق عثمان والشط الكبير الذي هو دجلة والفرات مجتمعين والمسمى شط العرب يقع شرقي الابله والمدينة فى الجنوب ويلتقي نهرا الابله والمعقل عند البصرة (٢٠) •

أما حول الميناء نفسه فيذكر ناصر خسرو « انه كان من المتعذر فى وقت ما ان تمر سفينة في فم الابله لعظم عمق مائه ، ثم يروى هـذه القصـة التى يكررها غيره بشكل آخر (٢١) فيقول •• « أمرت امرأة من أثرياء البصرة بتجهيز اربعمائة مركب ملاتها بنوى التمر وأغرقتها هناك بعد احكام سدادها فارتفع القاع وتيسر عبور السفن (٢٢) •

أما الشيء المهم الذى يذكره ناصر خسرو فهو الخشاب (المنار) الذى أنشىء في ميناء الابله من أجل ارشاد السفن فيقول : ـ « يتكون الخشاب من أربعة أعمدة كبيرة من خشب الساج على هيئة المنجانيق وهـو مربـع قاعدته متسعة وقمته ضيقة ويرتفع عن سطح أربعين ذارعا قمته حجارة مقامة على عمد من خشب كأنها سقف ومن فوقها أربعة يقف بها الحراس ، وكان الغرض منه (اى الخشاب) شيئين : أحدهما انه بنى في جهة ضحلة يضيق البحر عندها فاذا بلغتها سفينة كبيرة ارتطمت بالارض ، ففي الليل يشعلون سراجا فى زجاجة بحيث لا تطفئه الرياح ، وذلك حتى يراه الملاحون من بعيد فيحتاطون وينجون •• والثاني : ليعرف الملاحون الاتجاه وليروا القرصان ان وجدوا وذلك بتحويل اتجاه السفينة • ويستمر فيقول ، ولما اجتزنـا الخشاب ، بحيث اصبح لا يرى رأينا آخر مثله ، ولكن ليس على سطحة قبة لأنهم لم يستطيعوا اكماله (٢٣) •

وابن حوقل يورد ذكر الابله ضمن مدن البصرة فيقول : ـ

« ولها (أى البصرة) من المدن عبادان ، والابلة والمفتح والمـذار في مجارى دجلة ، وهي مدن صغار متقاربة فى الكبر عامرة ، والابلة اكبرهـا وأفسحها رقعة وهي أحد حدود البصرة من جهة نهرها •••• والابله مـن بينها عامرة وبها اسواق صالحة ولها حد آخر من عمود دجلة مكان يتشعب منها النهر المعروف بنهر الابلة ، وينتهي عمود دجلة الى البحر بعبادان بعد أن يضرب الى نهر الابله (٢٤) •

قد رأينا ان ميناء الابله قد استسلم للقوات العربية الاسلامية بسرعة وبدون مقاومة تذكر رغم صغر القوات العربية التي هاجمتها وفتحتها عنوة مما يدل على أن الساسانيين قد اخلوها(٢٥) وفيما بعد اصبحت الابلة مركزا اداريا لطوج وعين لها عامل خاص وقام فيها مركز لجباية العشور •

أما حجم التجارة فالراجح انه لم يكن ثابتا ، بل تعرض لتغييرات كبيرة ، فى القرن الاول الهجرى ، ويروى الحسن البصرى انه جاء رجل الى ابن عباس فقال أتقبل منك الابله بمائة الف ، فضربه ابن عباس مائة وصلبه حيا « ولما كانت العشور هي حوالي ١٠٪ من ثمن البضاعة ، لذا يمكن القول بان هذه التجارة كانت تبلغ حوالي مليون درهم سنويا (٢٦) ٠

وأود هنا أن أذكر اسماء بعض ولاة مدينة الابله مستقاة من المصادر :

ابر ابي بكره ـ البلاذرى فتوح ٣٨٥ ،

خبيبه بن كناز (يعمر) اشتقاق ص ٢١٣

كلاب بن اليه (لزياد ابن أبيه) أغانى ج ١٨ ص ١٥٦ ٠

أمية بن عبد الله بن خالد (البلاذرى) انساب ج ٤ قسم ٢ ص ١٥٢

أنس بن مالك (لابن الزبير) سعد ج٧ ، قسم ١ ، ص ١٥٩ ٠

كراز السهمى (للحجاج) البلاذرى انساب الاشراف ، ص ٣٣ ، طبعة ١ هلورث ابو المليح الهزلى (   ) سعد ج ٧ ، قسم ١ ، ص ١٥٩ (٢٧) ٠

يذكر الدكتور صالح العلي : « ان انشاء مدينة البصرة أدى الى تضاؤل أهمية الابله فاصبحت ميناء ثانوى لتجارة البصريين (٢٨) وصحيح ايضا أن أحوال البصرة فى أوائل العهد الاسلامي كانت أقل توفيقا من الكوفة خاصة فى جذب المهاجرين من العرب ، ففتوحاتها كانت بطيئة ودخلها قليل ، لذلك قرر الخليفة عمر بن الخطاب ان يخصص للبصريين دخل بعض المقاطعات التي فتحها اهل الكوفة ٠٠٠ ويبدو ان هذا كان من العوامل التي شجعت البدو المقيمين فى أطراف منطقة البصرة على الهجرة اليها (٢٩) بل نرى انه أثناء امارة عبد الله بن عامر (٢٥ــ ٣١هـ) قد اتسعت جبهة القتال التي يقوم بها البصريون فأصبحت قواتهم مسؤولة عن الفتوح فى كافة المقاطعات الواقعة شرقي الخليج الفارسي ، والتي كانت حتى ذلك الوقت تقوم بها الجيوش الاسلامية من قاعدتها في البحرين ، فبعد فتوح اقليم فارس وسجستان وكرمان شارك فيها البصريون وكذلك فتوح خراسان (٣٠) ٠

ازداد دخل البصرة وانتشر الرخاء الاقتصادى الامر الـذى شجـع التجار ورجال الاعمال على التقاطر وبذلك بدأت الحياة المدنية تنمو نموا سريعا ، وكان للبصريين وملاحي الابله الدور الكبير فى التجارة البحرية .

على انه يجب الانتباه ان مركز البصرة الكبير والذى ازداد مع الايام كبرا واهمية فى ظل الدولة الاسلامية قد اعطى هذا الامر بالذات أهميـة خاصة على الابله نفسها كونها كانت ميناء مدينة البصره العظيمه ، وقد اثنى الجاحظ عى همةالبصريين التجارية وحبهم للمغامرة : يقال أنه ليس فى الارض بلده واسطة ولا بادية شاسعة ، ولا طرف من الاطراف ، الا وانت واجد بها المدينى والبصرى والحيرى (٣١) .

وقد اتفقت كلمة أصحاب الرحلات على علو همه البصريين وبعدهم فى التجارة (٣٢) حتى قال ابن الفقيه : « وابعد الناس نجعه فى الكسب بصرى وحميرى ، ومن دخل فرغانه القصوى والسوس الاقصى ، فلا بد أن يـرى فيها بصريا أو حميريا (٣٣) ففي الحديث عن ماسة الميناء في شمالي افريقيـة يذكر ياقوت » قرية على البحر تحمل اليها التجارات وفيها المسجد المعروف بمسجد بهلول وفيه الرباط على ساحل البحر ويلقي البحر عند مسجد بهلول المراكب الخيطية التي تعمل بالابلة التي يركب فيها الى الصين .

ويذكر الافغانى ان البضائع كانت تحمل الى البصرة من مختلف بلدان الشرق حتى وصفت بأنها « قبة الاسلام » (٣٤) وليس من باب المصادفة ان يكون مؤلف أول كتاب فى التجارة وهو الجاحظ (توفى ٢٥٥هـ/٨٦٩م) بعنوان « التبصر فى التجارة » من اهل البصرة فكانت البصرة باب العراق ومحط التجارة الشرقية ثم تجارة القوافل البرية الآتية من الصحراء ولقـد لعب المربد سوق البصرة الشهير الذى يقع غربي المدينة وجهة الصحراء دورا كبيرا فى تسويق المنتوجات الصحراوية خاصة الابل ، كذلك لعـب دوره المعروف فى الحياة الثقافية في البصرة مما كان له الاثر العميق في الثقافـة

العربية الاسلامية هذا فضلا عن ان سوق المربد كان مجمعا للناس عند الاحداث السياسية الهامة فى تاريخ العرب المسلمين (٣٥) وقد بدأ الانحلال فى المربد ــ بعد مراحلة المزدهرة منذ الفترة الراشدية فالاموية فالقرن الثالث الهجرى من العصر العباسي في القرن الرابع الهجرى ، وما جاء زمن ياقوت (٦٢٦هـ/١٢٢٩م) حتى أضحى بلدة صغيرة منعزلة على حافة الصحراء غرب البصرة على بعد ثلاثة أميال منها (٣٦) •

قال ابن قتيبة : العراق عين الدنيا ، والبصرة عين العراق والمربد عين البصرة (٣٧) ،ونضيف نحن فنقول والابلة ميناؤها •

اذن فقد كان فى تولي العباسيين للخلافة قوة جديدة دفعت الى الامام التجارة البحرية الواردة الى الخليج العربي ، والصادرة عنه ، وذلك لانتقال العاصمة من دمشق الى بغداد اذ يشير اليعقوبي اشارة واضحة الى ان المنصور كان عالما بالميزات الاقتصادية التي ينطوى عليها موقع بغداد ، ويضع على لسانه هذا القول « والا فجزيرة بين دجلة والفرات ، دجلة شرقيها والفرات غربيها شرعة لدنيا كل ما يأتي من دجلة من واسط والبصرة والابلة والاهواز وفارس وعمان واليمامة والبحرين وما يتصل بذلك فاليها ترقي وبهاترسى وكذلك ما يأتي من الموصل وديار ربيعة وآذر بيجان وارمينية مما يحمل من السفن في دجلة وما يأتي من ديار مضروالرقة والشام والثغور ومصر والمغرب مما يحمل فى السفن فى الفرات فيها يحتط وينزل ومدرجه اهل الجبال واصبهان وكور خرامان فالحمد لله الذى ذخرها لي واغفل كل من تقدمني والله لابنينها ثم اسكنها ايام حياتي ويسكنها ولدى من بعدى ثم لتكونن أعمر مدينة فى الارض (٣٨) •

من هنا نرى ان موقع بغداد بل العراق كله قد ساعد على نمو التجارة اذ اصبح العراق جسرا بين ايران والهند وأواسط آسيا والصين من جانب والجزيرة العربية والشام ومصر والمغرب من الجانب الآخر وهكذا قدر

لسكان العراق ــ عند توفر الظروف ــ ان يصبحوا وسطاء فعالين في تجارة العالم المتمدن (٣٩) •

فتوسط بغداد بين الطرق التجارية بين الشرق الاقصى والهند من جهة وبين اوروبا من جهة أخرى ، قد جعل لها اهمية دولية كبيرة ، وعلى هــذا الطريق في القرن الثالث الهجرى كان التجار الرهدانية * الذين يسافرون من المشرق الى المغرب ومن المغرب الى المشرق برا وبحرا يأتون بغداد ثم يركبون دجله الى الابله ومن الابله الى عمان والسند والهند والصين كل ذلك متصل بعضه ببعض (٤٠) •

يضاف الى ذلك العلاقات الاقتصادية والتجارية التي كانت قائمة بين بلد وآخر من بلدان ان الخلافة الشاسعة المساحات والتي كانت مــن ذلك الحين بين محيطين الهندى شرقا والاطلسى غربا ، فكانت شواطىء هــذه الامبراطورية تغتسل بمياه أربعة بحار : ــ

البحر الابيض المتوسط ، والبحر الاسود والبحر الاحمر والخليــج الفارسي وكانت هذه التجارة الناشطة تقوم على الصناعات المتقدمة المتطورة وعلى الانتاج المعدنى (٤١) • فابحتلال العرب لسواحــل الخليج الفارسي كلها قد وحدوا فى امبراطوريتهم من جديد ، ما بين بــلاد غربــي آسيــا (ما عدا الاناضول) ومصر • وكان حلفاء الاسكندرقد شطروا هذه المنطقة الاقتصادية شطرين ، فالخليج العربي والبحر الاحمر لــم يعودا طريقــين متنافسين وقد استعملا جنبا لجنب طوال احتفاظ الدولة الاسلامية بوحدتها فقد راجت التجارة فى الخليج العربي من الابله وعمان وايران والبحرين مع موانىء الهند والصين أيما رواج في عهد العباسيين ، طوال المدة التي كانت فيها بغداد أولى مدن الشرق الاوسط (٤٢) •

وكان من الابله ميناء البصرة مبدأ الطرق البحرية فيذهب اولها الى الهند والصين ، بينما يدور الثاني حول سواحل الجزيرة العربية الى البحر

الاحمر والى شمالي افريقية • ولما كان الخليج ضحلا ــ كما ذكرنا ــ عند مصب دجله العوراء ، فقد انشىء منار من البحر تسترشد به السفن القادمة الى البصره •

وقد استعمل العرب المراكب الصغيرة للملاحة الساحلية ، بينما استعملوا مراكب كبيرة لعرض البحار ، وكانت الواح مراكب البحر الابيض تربط بعضها بالمسامير ، وتلمع بالفحم ، (منذ ايام الحجاج) أما مراكب البحر الاحمر والمحيط الهندى فاتبعوا طريقة أخرى في بنائها ، اذ كانت تخاط بحبال من الليف • وقد وصف لنا ابن جبير طريقة ذلك فيقول : هي مخيطة بأمراس من القنبار ، وهو قشر جوز النارجيل يدرسونه الى ان يتخيط ، ويفتلون منه أمراسايخيطون بها المراكب ويخللونها بدسر من عيدان النخل ، فاذا فرغوا من انشاء المركب عى هذه الصفة ، سقوها بالسمن ، او بدهن الخروع ، او بدهن القرش وهو أحسنها ، وهذا القرش حوت عظيم في البحر (٤٣) •

وكانت مراكب البصرة بيضاء لانها « مشحمة بالشحم والنوره وكانت المراكب التي تذهب الى الصين كبيرة جدا » اذ يبلغ ارتفاعها عن سطح الماء حدا يضطر الناس الى استعمال سلالم يبلغ ارتفاعها نحو العشرة اقدام ليصعدوا الى سطحها (٤٤) •

وقد اخذ البحاره البصريون/يخرجون من الابله/يرتادون جميع الجزر الواقعة فى الخليج العربي وتعرفوا الى الموانىء الطبيعية فيه ، وبعد ذلك انطلقوا الى المحيط الهندى واسسوا لهم مراكز تجارية فى سقطره وزنجبار وفى الشاطىء الشرقي لافريقيا ، وكانت السفن البصريه تحمل من افريقيه العبيد الزنج والعاج والاخشاب الثمينة والتبر والحجارة الكريمة • وبعد ان تم اتصال التجار البصريين بجزيرة سيلان وتجارها شرعت البصره تشترى العاج والحجاره الكريمة (وخاصة العقيق) والتوابل ويأخذون اليها البضائع ومنها النبيذ العراقي •

وعلى الشاطىء الغربي للهند (في ملبار) كانت عدة مراكز تجارية يقيم فيها آلاف من تجار المسلمين العرب من رعايا الخليفة العباسى ابهم مساجدهم وقضاتهم (٤٥) .

لقد رأينا النمو الاقتصادى الكبير لميناء البصره ولكن هذا القول قد حدث تدريجيا فقد ظلت اليمن محتفظة بمركزها التجارى الهام طوال القرن الاول الهجرى/١٤٦ كما كان فى الخليج عدد غير قليل من المراكز الهامة التي استفادت ايضا من تحول التجارة الهندية . فلم يكن لميناء البصرة ان يصبح من الموانيء الرئيسية وان يلعب دوره الخطير في التجارة البحرية مع الشرق الاقصى دون الاعتماد على ميناء صحار فى عمان (الميناء الذى حلت محله مسقط فيما بعد) هذا الميناء الذى كان أعمر مدينة بعمان واكثرها مالا ، ذات اسواق عجيبة وبلده ظريفه دهليز الصين وخزانة الشرق والعراق .... وبها متاجر البحر ومقصد المراكب والسوق فيها سوق تجارية محضة . ويعشر الناس فى هذه السوق للجلندى صاحبها (٤٧) . ولقد كانت صحار أقرب الموانىء العربية لرسو السفن الاتية من الهند الى الابله ، الامر الذى ساعدها ان تصبح (فوق كونها ميناء) مركزا للتجارة مع الهند وافريقية . وقد نمت فيها بعض الصناعات وخاصة النسيج الذى يصدر حتى الحجاز فى عهد الرسول ، ولكن نظرا لموقعها الجغرافية المنعزل فان الحياة الاقتصادية فيها لم تنم لدرجة تهدد معها سيادة البصرة ، فظلمت مجرد محطة لوقوف السفن التجارية مع الهند (٤٨) .

أما ميناء دارين الذى كان في اوائل العصر الاسلامى من المراكز العربية الهامة للتجارة وخاصة تجارة المسك ، فلقد كان للمسك الدارى شهرة فى كافة انحاء الجزيره . وكان التجار الداريون يصدرونه الى البصره ومدن شرقى الجزيره وحتى الى الحجاز . حيث كان للداريين فى المدينة المنورة جالية كبيرة ، ولكن يبدو ان دارين اخذت تضعف تدريجيا بعد انشاء البصرة التى أصبحت المركز الرئيسى لتجارة الهند (٤٩) .

ومن الموانيء المزدهرة ايضا فى ذلك الحين كان ولا شك ميناء سيراف (الطاهرة اليوم) في كرمان الواقعة على الشاطىء الايرانى جنوب شيراز والمحاذى للخليج العربى وان المضاحل الخوانه عند مصب نهر الابله والتى كانت تعترض الملاحـة هناك قد سببت فى نمو ميناء سيراف حتى بلغت التجارة فيه مبلغا جعل منه منافسا للبصرة وميناها الابله في الغنى والثروة • رغم ان هذه المدينة كانت تقوم على شاطىء حار ومجدب شأنها شأن عدن• وكانت سيراف تعيش عى ما يرد اليها من مؤن عبر البحر • فكان الفضل لوجودها كله لتجارتها البحرية • ويصف الجغرافيون العرب دور التوف التى كان يقيم تجارها واصحاب سفنها فكانت مبنيه من طوابق مـن خشب الساج المستورد من الهند وغيره من الاخشاب المجلوبه من شرق افريقية • وان الشحنات كانت تجلب عامة فى سفن صغيرة من الابله ميناء البصره الى سيراف حيث تنقل الى السفن الكبيرة تنقلها الى الصين (٥٠) • وقد اصاب ملاحو سيراف حظا وافرا من الغنى حتى ان أحدهم بلغ ملكه أربعة ألف دينار ، وكانت أبنيتها ذات الطبقات العديدة تصنع من خشب السـاج الثمين والآجر وكانت الدار الواحده تشترى بما يزيد عـن المئـة الـف درهم (٥١) •

وهكذا فقد كانت الرحله الى بحار الهنـد والصين او الى شرق آفريقية تبدأ من الأبله ، وتجتاز عبادان بارشاد الناطور الساكن فى الخشبات وفى سيراف تتجمع السفن، وقد تحمل سفن صغيرة التاجر والبضائع من البصرة الى سيراف حيث تنقل الى السفن الكبيره هناك • فاذا انحدرت السفن في الخليج كان عليها ان تتجنب المتلصصه ، (٥٢) • لذلك كثيرا ما كانـت السفن تحمل النفاطين والمقاتلين (كما كان بفضل البحارة الصينيون) • وكانت اكثر السفن تعرج على صحار أو مسقط لتحمل بضائع جديدة وتتزود بالماء • وكان بعض السفن يتبع الطريق في محاذاة شواطىء فارس ثـم شواطىء مكران فشواطىء السند •

ويجب هنا الحذر كذلك من القراصنة الذين كانت سوقطره من أوكارهم (٥٣) • وأن بعض السفن تتجه من عمان الى شرقى افريقية ، ولعل أقصى ما وصلته فى تلك الجهات جزيرة مدغشقر (٥٤) •

ويقول المسعودى (٥٥) ان الموسم الذى كان العرب يبحرون فيه عامة من الجزء الغربى من المحيط الهندى هو عندما تكون الشمس فى القوس Sagittarius اى النصف الثانى من تشرين ثانى (نوفمبر) والنصف الاول من كانون أول (ديسمبر) فالسفن نادرا ما كانت تبحر فى حزيران (يونيه) ويذكر الحورانى نقلا عن كتاب أخبار الصين والهند هذه الازمنه عن الرحلات الى الصين :ـ

من مسقط الى كولم ملي	شهر قمرى (٢٩ ـ ٣٠ يوما)
من كولم الى تله بار	شهر
من كله الى صنف فولاو	شهر
من صنف فولاذى الى كانتون	شهر

فالرحلة من مسقط الى كانتون ميناء الصين العظيم تستغرق ١٢٠ يوما ، عدا فترات الوقوف فى الموانىء ، ولهذا يجب ان نقدر ستة شهور أو اكثر للرحلة كلها من البصرة أو سيراف ، واذا ربطنا هذا القول بالحقائق الثابتة عن المناخ فى البحار الشرقية توافر لنا ما يفى بالغوص (٥٦) •

فالسفن القاصدة الى الصين كانت تهبط الخليج العربى قبل أن تشتد عواصفه ، اى في شهر ايلول (سبتمبر) أو شهر تشرين أول (اكتوبر) وتعبر المحيط مسقط الى ساحل ملبار على الشاطىء الغربى للهند ، مع الرياح الموسمية الشمالية الشرقية كما تفصل اليوم (٥٧) وفى ملبار هذه مراكز تجارية يقيم فيها آلاف من تجار المسلمين العرب ، لهم مساجدهم وقضاتهم • وكانت الهند تصدر الى بلدان الخلافة البهارات والانسجة بما

في ذلك أفخر الاقمشة الحريرية ، وكذلك نشأت على الشاطىء الجنوبى الشرقى للهند (كورومانادل) مراكز تجارية للتجار المسلمين ، وكانت هذه المراكز التجارية تستورد سنويا عشرات الالوف من الجياد العربية (٥٨). ثم بعد الوصول الى كانتون وقضاء الصيف هناك تعود السفن مع الرياح الموسمية الشمالية الشرقية فتكون الرحلة فى الذهاب والاياب معا قد استغرقت عاما ونصف عام (٥٩) .

وبالمناسبة جميل ان نذكر ان القصص التى جاءت في « كتاب عجائب الهند » والتى حكيت حول السندباد البحرى والتى تحدرت الينا من قصص الف ليله وليله ما هي سوى صدى لهذه الرحلات البحرية التى يقوم بها أهل التجارة من المسلمين في البحار الجنوبية انذاك ومن المرجح ان يكون السندباد قد بلغ فى تسفاره البحرى مدينة كالا فى شبه جزيرة ملقه حيث كان التجار يجلبون الذهب والقصدير وكان التجار المسلمون يستوردون سلعا وبضائع غالية الاثمان من سومطره ، وعى الاخص الذهب والبحار والبخور والنباتات الطبية والكافور (٦٠) .

وكان البحارة العرب وقبلهم كثير من أهل العراق ، يسترشدون بخرائط من رحلاتهم (٦١) فيذكر المقدسى : ورأيت معهم (التجار) دفاتر .... يتدارسونها ويعولون عليها ويعلمون بما فيها (٦٣) .

وفي فترة لاحقة استعمل البحارة العرب البوصلة التى لهم الفضل في اشاعة استعمالها (٦٣) .

ويذكر بليابيف ان التجار العرب والمسلمين قد أخذوا يستوطنون فى مدينة كانتون (كان ـــ فو) وقد بنوا فيها المساجد واصبح لهم قاض يحكم بينهم بحسب الشريعة الاسلامية ، وفي سنة ٧٥٨م ثار أهل مدينة كانتون ضد امبراطور الصين وحكومته ، ولكى يقمع هذه الثورة لجأ « ابن السماء » اى الامبراطور الى مرتزقة من الفرس كانوا فى خدمته ، ابان هذه الثورة عاد المسلمون من رعايا الخليفة العباسى القاطنين فى تلك

المدينة الى بلادهم حاملين اليها مغانم كثيره جاؤا بها من الصين ، ولكن لم تطل غيبتهم فعادوا الى كانتون وبنوا المساجد وعاد قاضيهم ليحكم بينهم حسب الشرع الحنيف • وقد توغل بعض التجار فى داخل الصين نفسها حاملين معهم بضائعهم وسلعهم ، وبدأوا يستوردون الخزف الصينى الجميل الصنعة والاقمشة الحريرية الغنية (٦٤) •

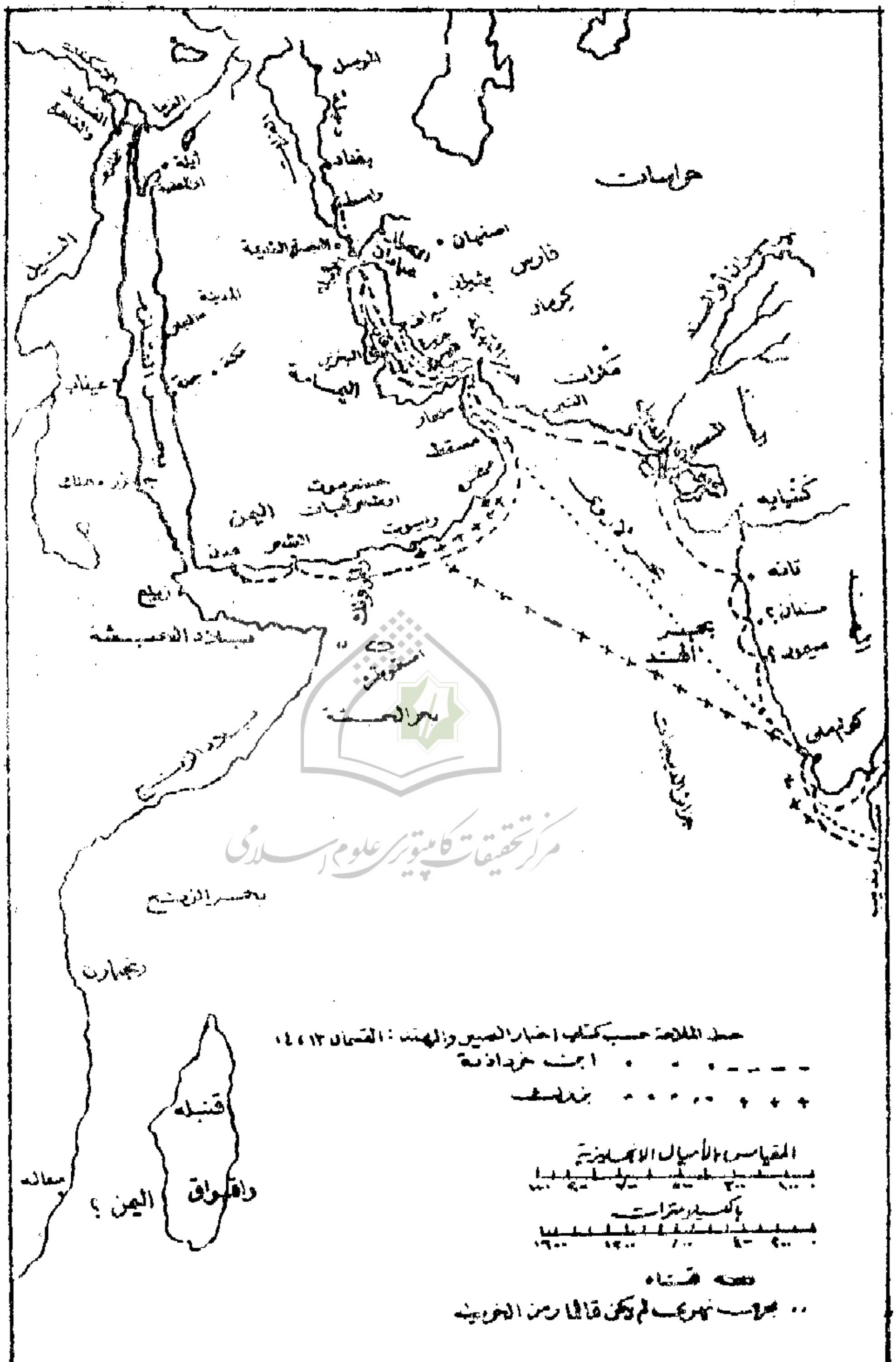
ان هذا الطريق البحرى الممتد من ميناء البصره على الخليج حتى كانتون هو اطول طريق مائى استعمله الانسان وعلى شكل منتظم قبل التوسع الاوروبي فى القرن السادس عشر للميلاد • فسلوك مثل هذا الطريق العظيم عمل جليل جدير بالعناية والاهتمام ويذكر الدكتور حورانى ان الفضل في قيام تجارة بحرية بين الخليج والصين فى هذه الفترة من التاريخ يعود الى قيام امبراطوريتين معا • وعلى طرفى هذه الطريق • فقد اتحد العالم الاسلامى كله من الاندلس الى السند ايام الخفاء الامويين (٦٦٠ ــ ٧٤٩م) ثم اكثر من قرن فى ظل العباسيين (٧٥٠ ــ ٨٧٠م) (باستثناء اسبانيا وقسم من شمالى أفريقية) وفى الصين ملكت اسرة تانج Tcang (٦١٨ ــ ٩٠٧م) على امبراطورية متحدة حتى آخر ايامها/٩٦٥• هذا وقد ورد فى أخبار تانج الصينية هذه أسماء بعض الخلفاء العباسيين وأما عن قيام علاقات ديلوماسية بين العباسيين والصين فأمر لا نعرف عنه شيئا ثابتا ولاتذكر المصادر العربية شيئا عن وصول سفراء عن الصين الى بغداد أو سامراء (٦٦) ، وتشير التواريخ الصينية الى ذهاب عدة سفارات عربية الى البلاط الصيني فى القرن السابع والثامن للميلاد مرسلة من (Ham-Mi Mo-Mini) الى أمير المؤمنين ابي العباس (A-bu-lo-ba) ومن ابي جعفر المنصور (A-pu Ch' a - fo) ومن هارون الرشيد (A-lun) وهي تذكر ثلاثة وفود أرسلها الرشيد وصل احدها سنة ٧٩٨م (٦٧) والاستاذ الدورى يرى ان هذه الوفود كان يرسها تجار العرب مع هدايا طريفه الى البلاد لرفع مكانتهم (٦٨) •

ولذلك نرجح ان التجار العرب المسلمين عند وصولهم الى الصين كانوا يحظون بمقابلة الامبراطور الصينى بشكل رسل من قبل الخليفة وذلك بغية الحصول على بعض الامتيازات الجمركية أو حفاظا على بضائعهم من النهب والسلب من قبل الموظفين الصينيين (٦٩) •

ومع الاسف فقد تعرضت مدينة البصرة وميناؤها الابله الى الكثير من الحروب والدمار والخراب عبر الفتن الكثيرة التى المت بتاريخ المنطقة •

ففى سنة ٢٥٧/٨٧١ حين كانت ثورة الزنج على أشدها خرب صاحب الزنج البصرة واحرق معظم أقسامهـا ، وكان الجامع مما خرب وانتهب جنده المدينة ثلاثة أيام ، وفى سنة ٣١١هـ/٩٢٣ نهب زعيم القرامطه مدينة البصره • وقد خربوا الابله والبصره وقطعوا بغداد عن الخليـج (٧٠) والقزوينى فى المئه السابقة (١٣)م يذكر ان هذه المواضع قد آلت الـى الخراب (٧١) •

وبعد ذلك بقرن وصف ابن بطوطه الابله فقال « هي الآن (٧٢٧هـ) قرية بها آثار قصور وغيرها دالة على عظمتها (٧٢) » •



٤ - الشرق الأوسط وشرق افريقيه في عصر العباسيين

المصـــادر والمراجع

١ ـ نقولا زيادة : تطور الطرق البحرية والتجاره بين البحر الاحمر والخليج العربي والمحيط الهندى . دراسات الخليج والجزيرة العربية العدد ٤ ص ٧٥ .

٢ ـ The voyage of Nearchus from the Indus to the Euphrates. Ed. W. Vincent London 1797.

ـ جورج حوراني : العرب والملاحة فى المحيط الهندى فى العصور القديمة وأوائل القرون الوسطى . الترجمة العربية ـ يعقوب بكر القاهرة ، المكتبة الانجلو مصرية ص ٤٥ ـ ٤٦ .

٣ ـ حوراني : العرب والملاحة نقلا عن جلازر ص ٤٦ .

٤ ـ نقولا زيادة : تطور الطرق البحرية ص ٨٠ .

٥ ـ نقولا زيادة : ن.م ص ٩٠ .

٦ ـ جورج حوراني : العرب والملاحة ، ص ٤٧ .

٧ ـ ن.م ، ص ٢٤٥ .

٨ ـ جورج حوراني : ن.م ، ص ٩٧ ، ١٠٧ ، ١٠٩ .

٩ ـ نقولا زيادة : تطور الطرق البحرية ص ٧٦ .

وايضا انظر : Pliny VI. 149-9

١٠ـ الطبرى : تاريخ الرسل والملوك جزء III ص ٢٠٢٣ .

١١ـ حوراني : العرب والملاحة ص ٢٩٨ ، ١١٠ .

١٢ـ ت. : المصادر العربية لتاريخ الصقالبة ، كراكوف ١٩٥٦ ج ص ٣٠٣ .

١٣ـ C. Becker, Combridge Mediaeval History VOL. II p. 329

١٤ـ البلاذرى : فتوح البلدان ، طبعة ابريل ١٩٦٨ ، ص ٢٤١ ـ ٢٤٢ .

* فى مكان الخريبة ثم تمصير البصرة .

١٥ـ الشيخ نعمان بن محمد بن العراق ، كتـاب معـدن الجواهر بتاريخ البصرة والجزائر ، تحقيق د.محمد عبد الله ١٩٧٣ مجمع البحـوث الاسلامية ـ اسلام آباد ص ٢٢ ، ٧٥ ـ ٧٦ .

١٦ـ الاصطخرى ، ابو اسحاق ابراهيم بن محمد ، مسالك الممالك ، طبعة ابريل ١٩٢٧ ص ٨٠ ـ ٨٢ .

* الفرسخ يساوى ستة كيلومتر واحيانا ثمانية .

١٧ـ ابن حوقل ، ابو القاسم : كتاب صورة الارض ، منشورات مكتبة الحياة ، بيروت ص ٢١٢ ـ ٢١٣ . حدود العالم « ورقة ١٣ م (مخطوط) .

١٨ـ عبد العزيز الدورى : تاريخ العراق الاقتصادى « فى القرن الرابع الهجرى » دار المشرق ، بيروت ١٩٧٤ ص ١٣٦ .

١٩ـ النويرى : نهاية الارب ج ١٢ ص ٣٤ ، ٤٤ .

٢٠ـ ناصر خسرو علوى : سفر نامة ترجمة يحيى الخشاب ، الطبعة الاولى ـ القاهرة سنة ١٩٤٥ من ٩٩ .

٢١ـ ابن حوقل : صورة الارض ، ص ٢١٣ .

٢٢ـ ناصر خسرو : سفر نامة ص ١٩ ـ ١٠٠ .

٢٣ـ ناصر خسرو : ن.م ، ص ١٠٠ .

٢٤ ـ ابن حوقل : صورة الارض : ص ٢١٤ .

٢٥ـ البلاذرى : فتوح البلدان ، ٢٤١ ـ ٢٤٢ .

٢٦ـ صالح العلي : التنظيمات الاجتماعية والاقتصادية فى البصرة ، بيروت ١٩٦٩ ، ص ٢٥٨ ـ ٢٥٩ ، ٢٦٠ .

٢٧ـ سلام أبو عبيد : الاموال ـ القاهرة ـ ص ٧٠ .

صالح العلي : التنظيمات ، ص ٣٣١ .

٢٨ـ صالح العلي : ن.م ، ص ٤٠ .

٢٩ـ صالح العلي : ن.م ، ص ٤٢ .

٣٠ـ الجاحظ : كتاب البخلاء المكتب العربي بدمشق ، سنة ١٩٣٨ .

٣١ـ عبد العزيز الدورى : تاريخ العراق الاقتصادى ، ص ٢٩٨ ـ ١٣٠ .

٣٢ـ ابن الفقيه : كتاب البلدان ، طبعة ميدن ، ج ٥ ، ص ٥١ .

٣٣ـ سعيد الافغاني : اسواق العرب ، دمشق ١٩٣٧ ، ص ٣٥١ .

٣٤ـ صالح العلي : سومر ، بغداد ١٩٥٢ ، ص ٢٨٢ ـ ٣ ٢ .

٣٥ـ عبد العزيز الدوري : تاريخ العراق الاقتصادي ١٣٥ ـ ١٣٦ .

٣٦ـ المقدسي : احسن التقاسيم ، طبعة ليدن ، ص ١١٨ .

ياقوت : معجم البلدان ليبزج ١٨٦١ ـ ١٩٧٠ ، ج ١ : ٤٨٤ .

٣٧ـ ابن قتيبة : عيون الاخبار ، دار الكتب ، القاهرة ١٩٢٥ ، ج ١ : ٢٢٢ .

٣٨ـ اليعقوبي : البلدان ، طبعة بريل ، ص ٢٣٧ ـ ٢٣٨ .

٣٩ـ عبد العزيز الدوري : تاريخ العراق الاقتصادي ، ص ١١٩ .

الجاحظ : كتاب البخلاء ، ص ٣٩ .

التنوخي : الفرج بعد الشدة ، القاهرة ١٩٠٤ ، ج ٢ ، ص ١١ .

٤٠ـ ابن قرد اذبه : المسالك والممالك ، مطبعة ليدن ج VI ص ١١٤ .

* الرهدانية :

كان هناك رأى سائد ان مرجع هذه التسمية يأتي من الكلمة الفارسية راه دان بمعنى قائد أو دليل ، وهذه التسمية تنطبق على ما امتاز به هؤلاء التجار من معرفة للطرق التجارية المائية والبرية .

وهناك اعتقاد آخر عند سيمسون أن هؤلاء التجار (الرهدانية) كانوا يأتون من شواطىء البحر الابيض المتوسط قرب ممتلكات كارول الكبير والتسمية اذن جاءت من الموانيء الواقعة اعلى ضفاف الرون ، ومن التعبير اللاتيني Nautae Rhedanic الملاح الرهداني ارتبط فيهم والملاح الرهداني مذكور فى المصادر الاوروبية فى القرون الوسطى . ورأى آخر ـ خاطىء ـ جاء به S. Katz ينسبهم الى مدينة الرى فى شمال بلاد الفرس. والخطأ هنا واضح اذ ان التسمية لمدينة الرى رازى .

ويذكر الاستاذ لفيتسكي انه كان يوجد فى قرطاجه (تونس اليوم) سوق تسمى سوق الرهدانية وكانت هذه السوق عامرة حتى قبل ٩٦٧م وبجانبه سوق اخرى للرفائيين والكتانيين ولذلك يمكن القول ان تعبير الرهدانية لصق بهؤلاء التجار لانهم غالبا ماكانوا يتجرون بالكتان ويتبادلون ذلك مع التجار المسلمين وهذا مايؤكده المقدسي من ان اهم بضائع الرهدانية كانت الكتان .

لفيتسكي : **المصادر العربية** جزء ١ ، ص ١٢٠ ، جزء ٢ ، ص ٧٧ .

آدم متز : **الحضارة الاسلامية فى القرن الرابع الهجرى** ـ ترجمة ابو ريده ، جزء ٢ ، ص ٣٧١ .

صالح الحمارنه : مجلة دراسات ، مجلد ٢ ، ١٩٧٥ ، العدد ١ الجامعة الاردنية عمان ، ص ٥٦ ـ ٥٧ .

٤١ـ ی : بیلیاییف : العرب والاسلام والخلافة العربية ، الترجمة العربية ، بيروت ١٩٧٣ ، ص ٢٨٦ .

٤٢ـ جورج حوراني : العرب والملاحة ص ١٧٤ .

٤٣ـ عبد العزيز الدورى : تاريخ العراق الاقتصادى ص ١٤٥ .
Islamic Celture F. 909-910

المسعودى : مروج الذهب ، طبعة باريزج 1 ، ص ٣٦٥ .

ابن جبير : رحلة باعتناء دى حمرية ١٩٠٧ ، ٦٧ ـ ٦٨ ، ٧٠ ـ ٧١ .

٤٤ـ الدورى : ن.م ص ١٤٥ .
ابن رسته : الاعلاق النفيسه طبعة ليدن ، ص ١٩٦ .

٤٥ـ ی يلياييف : العرب والاسلام ص ٢٨٧ ـ ٢٨٨ .
عبد العزيز الدورى : تاريخ الاقتصاد العراقي ص ١٤٧ .
ابن قرداذبه : المسالك ، ص ٦٧ .

٤٦ـ الاصفهاني : كتاب الاغانى ج 1 ص ٦٤ .

٤٧ـ الافغاني : اسواق العرب ، ص ٢٢٥ ـ ٢٢٧ .

٤٨ـ صالح العلي : التنظيمات ، ص ٢٥٨ .

٤٩ـ البلاذرى : فتوح البلدان ، ص ٣٨٤ .
النويرى : نهاية الارب ج ١٢ : ص ١٤ .
ياقوت : معجم ج ٢ ، ص ٥٣٧ .
صالح العلي : تنظيمات ، ص ٢٥٨ ـ ٢٥٩ .

٥٠ـ الاصطخرى : المسالك والممالك ، ص ٣٤ ، ١٢٧ .

المقدسي : احسن التقاسيم ، ص ٤٢٦ ـ ٤٢٧ .

جورج حوراني : العرب والملاحة ، ص ٢٠٧ .

٥١ـ الاصطخرى : المسالك والممالك ، ١٣٨ ـ ١٣٩ .

نقولا زيادة : الجغرافية والرحلات عند العرب ، بيروت سنة ١٩٦٢ . ص ٢٢٣ ـ ٢٢٩ .

٥٢ـ حوراني : العرب والملاحة ، ص ٢١٨ .

٥٣ـ حوراني : ن.م ، ٢١٠ .

٥٤ـ نقولا زيادة : الجغرافية والرحلات عند العرب ص ٢٢٣ ـ ٢٢٩ .

٥٥ـ المسعودى : مروج الذهب ، ١ : ٣٢٥ ـ ٣٢٧ .

٥٦ـ حوراني : العرب والملاحة ، ٢١٩ ـ ٢٢٠ .

٥٧ـ حوراني : ن.م ، ٢٢٠ .

٥٨ـ ى بليايف : العرب والاسلام ، ص ٢٨٨ ـ ٢٨٩ .

٥٩ـ حوراني : العرب والملاحة ، ص ٢٢١ .

٦٠ـ I. Krachkovski

Arabic geographical Literature Moscow 1957 pp 280

وما بعدها

ى : بليايف : العرب والاسلام ، ص ٢٨٩ .

جورج حوراني : الملاحة والعرب ، ٢١٨ ـ ٢١٩ .

اليعقوبي : البلدان ، ٣٦٥ ـ ٣٦٦ .

٦١ـ عبد العزيز الدورى : تاريخ العراق الاقتصادى ص ١٤٦ .

٦٢ـ المقدسي : أحسن التقاسيم ، ص ١٠ .

٦٣ـ S. Madavi,

Arab Navigtion
Islamic Culture VOL, XVI pp 407
Hyderabad Deccam, 1942, p. 407.

٦٤ـ ى.بليايف : العرب والاسلام . . ، ص ٢٩٠ .

٦٥ـ ى.بليايف : ن.م ، ص ٢٩٠ .

ج.حوراني : العرب والملاحة ، ص ١٩١ .

٦٦ـ ى.بليايف : العرب والاسلام ص ٢٩٠ ـ ٢٩١ .

٦٧ـ عبد العزيز الدورى : بغداد ١٩٤٥ العصر العباسي الاول ، نقلا عن

Brtohmeider Medieval Researches
London 1937 Vol. I p. 264-5

٦٨ـ عبد العزيز الدورى : ن.م ، ص ١٤٩ .

٦٩ـ ى.بليايف : العرب والاسلام ، ص ٢٩٠ ـ ٢٩١ .

٧٠ـ لستزنج : بلدان الخلافة الشرقية ، الترجمة العربية ، بغداد ص ٦٦ .

٧١ـ قزويني : عجائب المخلوقات ، ٢ : ١٨٠ ، ٢ : ١٩٠ .

٧٢ـ ابن بطوطة : رحلة ج ١ : ص ١١٧ .

علوم الإنسان وأهميتها فى دراسة اليمنيين القدماء

دكتور يوسف شلحد

قد عقدت هذه الندوة بادىء بدء لدراسة النقوش والمساند • ويخال لاول وهلة أن الباحث الاجتماعى كالمتطفل فيها على موائد العلم الصحيح اذ هو يستند الى النتائج التي يحصل عليها علماء النقوش ليربط الماضى بالحاضر وهم لا يستفيدون منه الا القليل •

ولكن ماذا تعلمنا النقوش ؟ انها تعلمنا عن اسم العاهل أو القيل صاحب النقوش وعن زمن حكمه احيانا وعما بناه وشيده وعن غزواته وفتوحاته وعن اسماء بعض الالهة وعن بعض العادات الاجتماعية والمراسيم الدينية •• ولست بهاضم لحقوق علماء النقوش ولا جاحد لفضلهم اذا قلت ان غيوما كثيفة تخيم على الحضارة اليمنية وما هذه المعلومات الا اوتاد متباعدة وكلنا نامل ان تصبح دعائم يعاد عليها بناء المجتمع اليمني القديم • الا اني اشك فى ان تتحقق يوما هذه الامنية القصوى مهما تعددت المساند لان صاحب النقش كان همه ان يشيد بما فعله فى مناسبة معينة • اللهم الا اذا ابتسم الحظ بالكشف عن مكتبة او عن قانون مثل قانون حامورببى والى ان تجود الايام بمثل هذا الكنز الدفين الا يسعنا ان نعكس الآية ونطلب من علوم الانسان ان تساهم مساهمة فعالة بالتحقيق عن اليمنيين القدماء ؟ ومن المؤكد ان علماء النقوش لم يهملوا هذه المصادر اهمالا تاما ولكنهم لم يستغلوها كما يجب ولم يعطوها حقها من الاهمية وقد يكون السبب فى

ذلك عدم الثقة بها . الا ان النقوش نفسها تكون احيانا مدعاة للشك فكم من هزيمة سجلت كنصر على العدو ولنا فيما كتبه استربون عن حملة اليوس جالوس اصدق شاهد على صحة ما قدماه .

ليس هنا مقام البحث عن علوم الانسان وطرائقها وارتباطها بعلم التاريخ وهو منها ولكنى لا أجد بدا من ابداء ملاحظة خاطفة عن الاتنولوجيا ـ وهي تحليلية استنتاجية ـ لانها متهمة بالبحث عن البدائي . والواقع انها لا تهتم بالبدائى بحد ذاته ولكنها تتوخاه لسهولة البحث ليس الا . اما موضوع دراستها فهى الخصائص الاجتماعية لتتبين من خلال ليس فقط ما يميز بين شعب وشعب ولكن ايضا يتوافق بين الثقافات .. وبسبب العزلة التي عاشت فيها هذه البلاد حافظت على عادات وتقاليد وانظمة اجتماعية لها طابعها الخاص قد تستكشف من خلالها معالم مجهولة منها ما يعود الى عهد الممالك اليمنية القديمة .

من الشائع والمصطلح عليه مثلا ان اليمن من اليمن ولذا قالوا « العربية السعيدة » نقلا عن بطليموس . ولكن الحقيقة ان اليمن او اليمانه أو يمنت مشتق من اليمن الذى هو ضد الشمال .. وفى النقوش تدل كلمة يمنت على الجنوب ويقابلها لفظة شامت اى شمال ويقول اهل صنعاء في كلامهم عن قبيلة خولان الواقعة في منطقة صعدة خولان الشام كما ان اهل حضرموت يطلقون كلمة شام على الحجاز،واليمين فى المعتقد العام السائد بين الشعوب هو مكان تشمله النعمة ويعمه الفلاح ويتفاءل به ولذا قدموه على الشمال الذى يتشاءم به فأصحاب الميمنة هم اهل الجنة واصحاب المشئمة هم أهل الجحيم . والسبب فى هذا التفاضل ديني محض وهو قائم على عبادة الشمس والى الشمس عند طلوعها كانت توجه الصلوات .. وهذا ما نهى عنه الاسلام وبما أن الجنوب يقع في هذه الحالة على يمين المصلى وهو مكان تشمله الشمس بنعمتها اصبح مرادفا لليمن والسعادة . اما الشمال فغدا مثالا للظلمات والتشاؤم وعدم الفلاح،ونجد فى « لسان العرب » لابن

منظور شاهدا على ذلك اذ يقول ولقد دعى اليمن يمنا لوقوعه عن يمين الكعبة . ونسي الناس الصلة بين الجنوب واليمين ولكن ظلت المعتقدات قائمة على هذا الاساس .. واذا رجعنا الى الديانة اليمنية القديمة لوجدنا الشمس تحتل المصاف الثالث بين الالهة مما يدل على تطور فى العقائد قد تكون له صلة بانتهاء عهد الامومة أى بالنسبة الى الام واصبح الاب القيم على الاسرة وسأعود الى موضوع الامومة خلال هذا الحديث .

وتعلمنا النقوش أيضا أن اليمنيين القدماء يعددون خطاياهم عليه لنيل الصفح عنها من الآلهة وهنا أيضا قد تساعدنا الاتنولوجيا على فهم أصل هذا المعتقد الذى يربط الاقرار بالمغفرة لاننا نجده عند عدد من الشعوب بل كان شاذا ايضا عند بدو سيناء وقد وصف ابن ناظم الجيش عـادة « دفن الذنوب » وصفا مسهبا فى مخطوطة تحفظها مكتبة الاسكوريل فى اسبانيا ولا زال بدو الحويطات يعملون بمثل هذه العادة عند عقد الصلح ولعلها وصلت اليهم والى بدو سيناء من الانباط وهم يمنيو الاصل كما هو معلوم .

أما المجتمع السبئى وبالاولى اليمنى القديم فلم يصلنا عنه الا القليل خاصة فيما يتعلق باحكام الاسواق ونظام العائلة والزواج واني على ثقة بان الابحاث الاتنولوجية تساعد علماء النقوش على فهم الاوضاع الاجتماعية السابقة للاسلام ففي منطقة مثل اليمن عاشت فى شبه عزلة خلال مئـات السنين الحاضر شاهد على الماضى بل انه الماضى الذى لم يزل حيا . ولا تسالوا عن تعجبي عندما وجدت في بعض الاماكن في اليمن الشمالى وخاصة فى قبائل حاشد وبكيل ومذحج نظما تعود بنا الى ما قبل الاسلام واهمها احكام السوق فظننت نفسى قد انتقلت فجأة الى سوق عكـاظ ومجنة والطائف فهناك حاكم السوق وشاعره اى الدوشان وهناك ايضا الحماية التي تشمل كل من دخل السوق مدة ثلاثة ايام اى يوم السوق واليوم الذى سبقه واليوم الذى يليه يكون خلالها آمنا ولو كانت عليه دماء يطالب بها وان تجاوز احد على هذه الاحكام ووقع منه اعتداء مهما

كان سببه فان شيخ القبيلة هو الذى يطالب بالحق او بالادب كما يقولون وادانة الجانى وليس صاحب الدم •• أما الجزاء فيكون في هذه الحالة من الصرامة بمكان ويبلغ أضعاف الدية المألوفة •وما قلته عن الاسواق استطيع ان اقوله عن بعض الأشخاص الذين تشملهم حماية القبيلة فلا تمتد اليهم يد بالسوء وعلى عكس ذلك فان لهم من النفوذ والحصانة ما يجعلهم يقفون بين صفوف المتحاربين ليحولوا دون سفك الدماء •

أنى لم اطلع الا على القليل من النقوش ولا ادرى اذا جاء فى بعض المساند اشارة الى لاسواق ولكن مانعلمه عن الجاهلية واحوالها يدل دلالة واضحة على وجود صلة وثيقة بين المجتمع القبلى قبل الاسلام المجتمع القبلى اليمني المعاصر فكلا هما يخضعان لاحكام تقليدية يطلق عليها كلمة طاغوت مما يدل على انها مستقاة من نبع واحد • فليس من المستبعد أن تكون الاسواق عند اليمنيين القدماء قائمة على الاسس نفسها لا سيما واننا نجد لديهم طبقات محافظة تكاد لاتختلف عما هو شائع بين القبائل اليمنية الشمالية اذ قسموا المجتمع على ما يقول لنا جل علماء النقوش الى اقيال وكهنة وحملة سيوف ومزارعين • وكان على الابن ان يمشي على خطوات ابيه فى العمل ونجد تقسيما مماثلا فى اليمن الشمالى فهو يميز بين السيد والفقيه والبائع والصانع والخادم وكانت الانكحة ممنوعة بين هذه الطبقات • وكلمة دوشان وهو خادم القبيلة ورسولها وشاعرها تدل على قدم هذه الانظمة فهى وسيلة يجهلها اصحاب المعاجم وفى لغة اهل الشام العامية نجد الدوشة ومعناها الضوضاء والانزعاج الذى يحدث عند المستمعين من كثرة الكلام وهذا هو شان الدوشان فى المدح •

اما نظام الاسرة القديم فلاتعلمنا عنه النقوش الى القليل وهنا ايضا تستطيع الانتولوجيا ان تقدم خدمات جمة الى علماء النقوش ليس فقط استنادا الى المخلفات ولكن ايضا استنادا الى التحليل البنيوى Structuralisme

وفي دراسة طويلة قمت بها عن القرابة والزواج عند العرب يتضح ان هناك صلة قوية بين نظام الزواج ونظام المعيشة والحياة • فالاندوجمي او الزواج من داخل العشيرة نجده خاصة عند اصحاب الخيم بسبب الانفراد واختلال الامن • واذا كان البدوى يؤثر الزواج من ابنة عمه بل له عليها حق فليس طمعا بميراثها وحفظا له ليبقى ضمن نطاق الاسرة فالبدوية لا ترث اصلا على حسب الاحكام القبلية لانها هى نفسها كانت تدخل في جملة الميراث • انما زواجه منها هو نوع من الوراثة ولذا لا يحق للعم ان يطلب من ابن اخيه اى مهر فى هذه الحالة • اما الاكزوجمى او الزواج من الاباعد فيحدث بعد الاستقرار بالارض • وهناك ايضا صلة بين الحياة الزراعية ونظام الانتساب الى الام الذى يؤدى احيانا الى بوليندرى أي تعدد الازواج • ويؤكد لنا الاسترابون ان هذا النظام كان مألوفا عند السبئيين اذ كان جميع الاخوة وكان لكل واحد منهم عصا يضعها امام مدخل البيت عند الاختلاء بالزوجة الا ان المضاجعة ليلا كانت من حق الاخ الاكبر • وهذا ما حمل بعض العلماء مثل روبرتسون سميث ومونجومرى وات على القول ان عهد الامومة كان سابقا لعهد الابوة عند العرب القدماء وانا لا اسلم بصحة هذه النظرية فيما يتعلق بسكان البادية ولكن اميل الى تصويبها فيما يخص بعض المناطق اليمنية ويقول لنا البحاثة واستر مارك استنادا الى كلاسر وونكر ان فى النقوش السبئية اشارة الى ما اعادة استرابون •وهذا ما ذهب اليه ايضا العالم الالماني جوزف هننجر والباحث الاتنولوجى البرنس بيتر • ولكن علماء النقوش الذين استنطقهم يجهلون هذه النصوص •

ومما لا جدل فيه اننا نجد عند بعض القبائل قبل الاسلام عادات هي من مخلفات النظام البوليندرى منها نكاح المقت ونكاح المتعة وجاء في سيرة الامام الهادى انه طلب من عملائه ان يعاقبوا بشدة كل من يقدم فتاة للضيف اذ كانت العادة على ما يقول المؤلف ان يقدم صاحب البيت اخته او ابنته الى الضيف بعد ان يزينها فكانت تبقى معه صباحا ومساء وكان يداعبها ويلمس

جسمها وبطنها وما تحت البطن وذلك امام والديها ولكنه ما كان يتمادى الى حد الفسق • وقد اكد لى بعض اليمنيين ان مثل هذه العادة كانت متبعة في بعض قبائل الجوف الى سنوات خلت •

هذه بعض ملاحظات خاطفة عن العلاقات بين المجتمع اليمنى القديم والمجتمع القبلى اليمنى بعد الاسلام ولا اود الاطالة فى موضوع الانظمة لا سيما فيما يتعلق باحكام الزواج فقد كتبت عدة مقالات فى هذا الصددوكلها ترمى الي هدف واحد الا وهو ان اليمن قد حافظ على طابع ثقافى خاص بالاضافة الى ثقافته العربية الاسلامية واننا في بحثنا عن اليمنيين القدماء لا يمكننا ان نوفيهم حقهم بالاستناد الي النقوش فقط ولكن ايضا بالاستقصاء عن خصائص المجتمع القبلي على ان نفهم الثقافة بمعناها الواسع كما تحددها علوم الانسان ولذا لا نستطيع ان نكتفي بالادب والفلسفة والعلوم الدينيه ولا بد لنا من ان نتخطاها لتتناول شتى النواحى الاجتماعية • ان الانسان في المجتمع وكل مظهر من مظاهر الحياة الاجتماعية هو نوع من الثقافة • وهى ماثلة فى الادب الشعبى والقضاء القبلى واغنية الفلاحين والصناعات اليدوية فاذا فهمناها بهذا المعنى الواسع استطعنا ان نجد الصلة بين الماضى والحاضر لاسيما اذا اعطينا كل نظام اجتماعي حقه من البحث اى اذا اعتبرناه حادثا اجتماعيا تاما له تفاعليه فى مختلف مظاهر الحياة •

يتبين لنا مما سبق ان معلوماتنا ضئيلة عن المجتمع اليمني القديم وان البحث الاتنولوجي يستطيع ان يساعد علماء النقوش فى البحث عن الانظمة والعادات والاحكام التي كانت سائدة يومئذ • الا ان جهلنا يبلغ اشده عندما نحاول ان نكشف النصيف عن اصل الانسان اليمنى • فمن اين اتى اصحاب هذه المبانى والسدود ؟ ابوسع العالم اليوم ان يكتفى بأقوال النسابة ؟ ان العلم الحديث يلقى السؤال بعد السؤال للتحقيق عن الماضى • وليس لنا لاضاءة هذه المجاهل سوى اللغة وعلم ما قبل التاريخ والانترويولوجيا والباليتتويوجيا •

اما اللهجات التي كتبت بها المساند فليست من خصائصي وهي موضوع نقاش حاد بين المتعصبين للعربية والمتعصبين للحبشيه بل قد ذهب بعضهم الى ان اصل اليمنيين من الحبشة وان الحبشة كانت مهد الساميين والحاميين . الا ان هذا الادعاء تنقصه الادلة العلمية ولا يكفى لاثباته وجود تشابه لغوى ضعيف بين السامية والحامية . ومما لا شك فيه ان اقدم الهياكل العظمية شبه الانسانية التي اكتشفت الى اليوم موطنها الحبشة فمنها ما يعود الى مليونين من السنين كما فى منطقة الاومو ومنها ما يعود الى ثلاثة ملايين من السنين كالذى اكتشفته مؤخرا البعثة الفرنسية ـ الاميكية واطلقت عليه اسم « لوسي » ولكن اين نحن من الحاميين والساميين والزمن الذى يفصل بينهم وبين هذه الهياكل العظمية يعد بمئات الالاف مع السنين. ومع اني اميل الى التسليم بان اللهجات التي كتبت بها النقوش هي عربية لا بدلى من الاضافة ان اللغة وحدها ـ من الوجهة العلمية البحتة ـ ليست بدليل قاطع على جنس اصحاب البلاد الاصليين فقد تكون لغة الفاتح الغالب وقد تختلف لغة التخاطب عن لغة التدوين فعلى الباحث ان يحتفظ باحكامه ولا يجعل من المقياس اللغوى حجة حاسمة على اصل السكان . واميل الى الاعتقاد بان توحد اللهجات في الجزيرة العربية قد بدأ قبل الاسلام بمدة طويلة بينما بقيت لغة البلاط سائدة لتدوين الحوادث . وعلينا الا ننس أن امرأ القيس المتوفى نحو سنة ٥٣٩ ميلادية كان من قبيلة كندة اليمنيه وفي ديوانه من الجمال فى السبك والاتقان والمجاز ما يدل على انه ليس اول من ابتدع القصيدة ولا شك فى انها قديمة العهد اذ لا يمكن ان يتم لها فجأة مثل هذا النضوج ومن البديهي ان يكون النضوج اللغوى سابقا لها . فقد اتقن الناس لسانهم وتنبهوا الى قواعد سابقة قبل ان يضعها النحاة على حد قول الشاعر البدوى :

ولست بنحوى يلوك لسانه ... ولكن سيلقي اقول فاعرب

وبما ان اول قصيدة وصلتنا يمنية المنشأ فاني اميل الى الظن ان اللغة

توحدت أو تكاد منذ نهاية القرن الثالث الميلادي وظلت السبئية لغة الدواوين والتسجيل .

ومهما تكن نتائج ابحاث علماء النقوش فهي لا تتعدى الالف الأول قبل الميلاد ولذا فهي لا تفيدنا في شيء عن اليمن السابق لهذا العهد ، فهل نضرب عنه صفحا لعدم وجود المساند وليس من المعقول ان تظل هذه المنطقة على اهمية موقعها الجغرافي خالية من الناس آلاف عديدة من السنين . ومن المؤسف جدا ان اليمن لم ينل حظه من التحقيق فى ميادين علوم الانسان ولذا يجد الباحث نفسه امام مجاهل مظلمة يحاول ان يبددها العلماء بنظريات تحتاج الى مزيد من التحقيق والاثبات . فقد ذهب بعضهم الى ان تأهيل الجمل ذي السنام الواحد قد تم على ايدي اليمنيين وان اليمن كان موطن ثقافة هامة سابقة للثقافات الاسيوية والافريقية؟ اننا نجهل كل شيء من مبتدعي هذه الثقافة وهم يمنيون طبعا بحكم موطنهم فلعلهم اتوا من القوقاز ولعلهم جاءوا من اسيا الوسطى مقتفين خطوات الجمل ومن بديع الاتفاق ان الزامل وهو غناء شعبي يمني تشبه بعض الحانه الاغاني المغولية وهذا لاشك دليل ضعيف على الصلة بين الشعبين . ولكن الدراسة الهيموتيبولوجيه (اى عن فصائل الدم والكرويات الوراثية) التي قامت بها البعثة الفرنسية العام الماضى فى اليمن الشمالي كشفت عن صلة اكيدة بين اليمن من جهة وبين القوقاز والمغول من جهة ثانية . ويستفاد ايضا من الدراسات الانتروبولوجية ان ابناء الجنوب اى القحطانيين تختلف بنيتهم عن اهل الشمال اى العدنانيين فهؤلاء مستطيلوا الاقحاف اما سكان اليمن فمستديروها ونجد في اليمن بالاضافة الى العنصر العربي عنصرا حبشيا مائلا الى السواد وجنسا البياوجنسا فدويا وهذان الجنسان لاصلة لهما باقوام البحر الابيض المتوسط . ودفعا للقيل والقال والنقاش البيزنطي العقيم ليسمح لي بابداء ملاحظة هي بديهية ولكني افضل بسطها لتبديد كل التباس : اني فى كلامي عن نتائج البحث الانتروبولوجي لا احاول ان اميز بين امة شعب وشعب اذ ليس للوطنية من علاقة بعلم الاجناس البشرية فلبنان الفينيقى وفلسطين الكنعانية وسوريا

الآرامية •• اصبحت كلها عربية منذ الفتح الاسلامي ولكن هذا لا يمنع الباحث الانتروبولوجي ان يبدى بنتائج ملاحظاته عن الانسان القديم دون ان يأبه بجنسية احفاده اليوم •

اما الابحاث عن الاعصر الحجرية فلم تزل في مهدها • فقد قامت البعثة الفرنسية في نهاية العام الماضي بمسح شامل لليمن الشمالي ووجدت بعض الاوائل الحجرية التي قد تعود الى مئة الف سنة قبل الميلاد • وفى جبل تلع ، فى المحافظة الثانية ، عثر سيرجي شيرنسكي على فؤوس اليد الشيلية وهي تدل على وجود الانسان فى هذه المنطقة قبل مئات الالآف من السنين • بقي علينا ان نستنطق الباليونتولوجيا • الا اننا امام ظلمات تامة اذ لم يكشف الى اليوم عن أى هيكل عظمي انساني يعود الى العصر الحجري •

بعد هذه الجولة الخاطفة نجد انفسنا امام مشاكل علمية جمة لا يهتم بها علماء النقوش والآثار وهي تمت بصلة وثيقة الى الحضارة اليمنية القديمة • ولا نستطيع ان نجد لها حلا الا بعد بحث وتنقيب طويلين والفائدة من هذا الجهد ليس ان نستكشف فقط معالم الثقافة اليمنية القديمة ولكن ايضا ان نجد الحلقات الضائعة من سلسلة تمتد من ايامنا الى زمن كان يعيش الانسان خلاله فى الكهوف وعلى المناهل متنقلا من مكان الى مكان ليؤمن معاشه من الصيد والنبات • وليست الكهانة من خصائصنا لنتنبأ عن نتائج هذا العمل الشاق ولكن لعله يكشف النقاب عن اصل البشرية •

لنضع الخيال جانبا ونظل في مجال البحث العلمي • واعتقادى انه لن يتم لنا الوصول الى نتائج علمية صحيحة الا اذا وفينا النقاط التالية حظها من التحقيق •

١ ــ التنقلات القديمة والوسائط التي استخدمها الانسان فى حله وترحاله بما فيها الملاحة •

٢ ــ الانسان اليمني القديم فى الاعصر الحجرية وقبل الممالك اليمنية •

٣ ــ الممالك اليمنية القديمة •

٤ ــ اليمن موكب الاســلام •

٥ ــ الانسان اليمني عامة من الوجهة الانتروبولوجية والايكولوجية •

٦ ــ الانظمة الاجتماعية والعائلية والحقوق والتقاليد •

٧ ــ الثقافة بمعناها الواسع اى الادب الكتابي والشعبي واللهجات والفنون والموسيقي والصناعة والهندسة المعمارية •

٨ ــ العلاقات الثقافية بين اليمن والمناطق التي امها اليمنيون سابقا او كانوا على علاقة بها مثل الهند والحبشة والبــلاد العربيــة واندونيسيا والاندلس •

٩ ــ تطور المجتمع اليمني المعاصر وما نتج عن ذلك من تطاحن قيمي بين القديم والحديث •

واذا كتب لهذه الابحاث التوفيق استطعنا ان نضع مؤلفا شاملا عن اليمن ليس فقط فى نطاق محصور على النقوش والآثار ولكــن كمركــز ثقافى هام يعود الى ما قبل التاريخ اخذ عنه اهل الشمال وشعت اضواؤه فى واحة تيماء ووادى موسى وغوطة دمشق وعلى ضفاف دجلة والفرات ثم انتقلت الى افريقيا الشمالية والاندلس •

الدكتور يوسف شلحد

مسؤول برنامج البحث العلمي

عن اليمن والجزيرة العربية فى المركز

الوطني الفرنسي للابحاث العلمية

الحاجة إلى إعادة كتابة التاريخ الإسلامي

الدكتور محمود يوسف زايد
الجامعة الاميركية ـ بيروت

ارجو ان أبين اولا أن ما سأتناوله آراء قابلة للجدل والمناقشة، والى أنني مدين بالكثير منها لطائفة من الكتاب والمؤرخين من العرب والاجانب ، ولكنها فى موضوع لا اتصور ما هو اولى باهتمام الجامعيين والمعنيين بشئون الاسلام وتاريخنا وعروبتنا ، وهو « الحاجة الى اعادة كتابة التاريخ الاسلامي » • فتاريخ الامة هو المرآة التي يرى فيها الفرد ذاته ، فتتضح له معالم هويته ، وهو مصدر الهامه واعتزازه بنفسه وبأمته وبتراثه ، وخير معين في جلاء الحاضر واستشراف المستقبل ، وهو سلاح من أسلحة الصمود فى وجه الكوارث والنكسات •

ولا يجمع الزملاء الذين حظيت بمقابلتهم بين المحيط والخليج ، وغيرهم من المعنيين بالشئون الاسلامية من ديار الاسلام ، على شيء اجماعهم على ضرورة النظر في تاريخنا ، سواء أعدناه للقارىء العادى ، أم لرجل العلم • وقبل قدومي بقليل تكرم علي زميل فى لبنان فاطلعني على جهود الجزائر في هذا المضمار ، اعترافا من اخواننا الجزائريين بأنه لولا الاسلام وتراثه ، لكنا فى الراجح نبكي ضياع الاندلس •

فغالبية المؤرخين الذين تصدوا لكتابة تاريخنا منذ أوائل هذا القرن ، ينتمون فى الاكثر الى فئتين : وهما فئة التقليد ، وفئة التجديد • وبالرغم مما

فى حشر غالبية المؤرخين فى هاتين الفئتين من تبسيط وتجوز وتعميم ، فـان فيه كثيرا من الحق الذى نحب أن نتبينه • أما جهود المقلدين من أصحـاب المختارات والكتب المبسطة والمختصرات فهي في الغالب جهود ضائعة تتمنى لو تصرف في سد أبواب النقص فى تواريخنا الاولى ، من حيث افتقارها الى التحليل ، والتعليل ، وتلمس البواعث الخفية وراء الاحداث والتطورات التاريخية والحضارية • ثم يجدر بنا ان نذكر أننا نعيش في عصر يتطلب خبرات ومهارات لم تكن معروفة أو اساسية فى العصور الماضية •

كان الاولون ــ على سبيل المثال ــ يعيشون في عالم لم يكن فيه للرقم الحسابي من الأهمية ما له اليوم • لم يكن الكم يتحكم فىحياتهم كما يتحكم اليوم فى كل مظهر من مظاهر حياتنا • كان الطالب يرحل فىسبيل العلم ويطلبه متى شاء ، ويقضي فى التحصيل ما شاء من السنين ، حتى ولو أجيز فيمـا نسميه اليوم بسن التقاعد • وكان الرجل يتزوج دون التفات كبير الى السن • وكان يذهب الى الجهاد فى سبيل الله متى شاء ، فلا تصده نقطة حراسة ولا أسلاك شائكة • وكان في الغالب لا يعرف عمره بالضبط • وكان السبيل الى الاحصاء تقدير عدد من تتسع لهم الجوامع او الحمامات أو تقدير عدد من يأكلون ذبائح الجزارين •

لكن منذ الثورة الصناعية اخذت الذهنية الكمية على حد تعبير المؤرخ نيف تسود العالم انطلاقا من البلدان الصناعية • واخذ الرقم يتحكم فيحياة الانسان منذ ولادته حتى وفاته ، وفي بعض البلدان الاوروبية حتى تتـم مواراته في مثواه الاخير • بل لقد بلغ الحال في بعض البلدان ان صـار الانسان رقما لا يعرف الا من خلاله • لا يكفى في القرن العشرين ان نقول في كتاب تاريخي : « كانوا كثيرين ، ويبعد المكان مسيرة يوم وليلة،والبلدة الفلانية وراء كذا ، وهي من اعمال كذا ، على ما اورده هذا الجغرافـي او

ذاك » • نجد لكاتب الامس عذرا لا نجده لكاتب القرن العشرين ولنا فيما حل بنا ـ نحن العرب ـ عبرة واى عبرة • لابد للمؤرخ من ان يتبين الابعاد الزمنية لما يعالجه •

اننا نعيش اليوم في عصر الالة والحاسبات والفضاء ، ولا يجوز عند تعليلنا لنصر او كارثة ان نردها الى الشجاعة او الجبن فحسب • ولنا الآن من حالنا مع العدو عبرة واى عبرة • ينبغي على المؤرخ ان يلم بكل اطراف الصورة وان يتبين الاسباب مادية كانت او غير مادية • ويكفي هنا ان اشير الى ان كثيرا من الانتصارات الحاسمة في التاريخ ما كانت لتتحقق لولا الاختراعات والوسائل والمهارات الجديدة • هل كان من الميسور مثلا لقائد من اشهر قواد التاريخ وهو نابليون أن يحرز انتصاراته الاولى التى غيرت خارطة اوروبا لولا المدفع المتنقل ؟ وهل كان يتأتى للمغول ان يقطعوا المسافات الشاسعة ويأخذوا اعداءهم على حين غرة لولا اطلاق الاعنة لخيولهم وتمرسهم في ركوب الخيل ؟ وهل كان سيطول عمر العالم بوصفه عالما ، لولا اختراع النظارات ؟

ينبغى على هؤلاء المقلدين ان يأخذوا بعين الاعتبار اهتمامات الناس في القرن العشرين ، بغية توسيع مدارك القارىء ، وغرس جذور هذه الاهتمامات في نفسه • هناك قضايا كبرى تشغل كل المجتمعات الحاضرة : كالاسرة ومستقبلها ، والسكان وما يدعى بالانفجار السكاني ، والتكنولوجيا ، والاختراعات ، والعلم والتعليم ، والبيئة ونضوب مواردها وتلوثها ، ومتوسط عمر الانسان وطوله ، والتخطيط وادارة المدن • هناك مشكلات اجتماعية لم يعرفها الاولون كمشكلة المسنين ، وما ينبغي عمله لاشعارهم بانهم لا يزالون افرادا نافعين للمجتمع • فلقد بلغت نسبة المسنين فى بعض الدول المتقدمة اكثر من ١٥٪ من عدد السكان بينما لم تنجح الحضارات الكبرى الاقدم منها في ان تستبقي اكثر من ٢ الى ٣٪ من المسنين • وبالرغم من ان اكثر هذه الاهتمامات لها اصول وتراتيب ادارية

في تاريخنا ، فان المؤرخين التقليديين يتناسونها لعدم ادراكهم لها ، او لضيق آفاقهم العلمية وقصور مداركهم عن تصورها ، او لعجزهم عن تقصيها وجمع شتاتها من بطون المراجع وحواشيها وذيولها • فمثلا ينادى منظمو الاسرة في القرن العشرين بضرورة الاتجاه نحو الاسرة الاحادية ، وانا لا اعرف امة شددت على هذه الناحية كالمسلمين • والذى اراه ان اعظم الانجازات التي تحققت بعد اشراق شمس الاسلام هي الثورة الاجتماعية ، وخاصة الثورة على وضع الاسرة في المجتمع القبلي والسير بها الى الاسره الاحادية التي ترى المجتمات المتقدمة السير باتجاهها ، وتصرف الملايين من الجنيهات في سبيل اقناع المجتمعات ، وخاصة النامية منها ، بالاخذ بها •

واحب ان اضرب مثلا آخر ، وهو تنظيم المدن وادارتها • قلما تجد بحثا لعربي عن ادارة المدينة في العصور الاسلامية مع ان المسلمين نجحوا فى هذه الناحية نجاحا منقطع النظير • ولست اشك فى ان ادارة مدينة فاس فى المغرب كانت اكثر تنظيما واكثر فعالية من عواصمنا في الوقت الحاضر •

أما فئة المجددين فى كتابة التاريخ فهى فئة الذين قد اخذوا بالمنهج العلمي فى الكتابة تأثرا منهم بالغرب • ولهؤلاء فضل لا ينكر فى اعداد دراسات علمية لجوانب عديدة من تاريخنا وحضارتنا • لكن غالبية هؤلاء ايضا مقلدون لا للمؤرخين المسلمين ، ولكن للغربيين على اختلاف مذاهبهم وأهوائهم • ولتقليد الغربيين محاذير كثيرة اخطرها فى رأيى تطبيق مقاييس الحضارة الغربية على حضارتنا ، واتخاذ القيم الغربية اساسا لمحاكمة قيمنا•

ووجه الخطورة فى هذا أننا بتطبيق مقاييسهم تتجنى على منجزاتنا ، واحيانا نشوهها ، ونشغل أنفسنا بقضايا تصرفنا عن التوفر على ما ينبغى أن تنصب عليه جهودنا • لقد شهد الغرب انفجار ثورة على الكنيسة قامت في اعقابها حركة الاصلاح الدينى • هل معنى هذا أن نقول ــ كما قال البعض ــ بأنه لا بد لنا من ثورة دينية ؟ سمعت صديقا قبل يومين يقول

بأننا في حاجة الى لوثر مسلم • هل نحن حقا بحاجة الى مثله ؟ لقد ثار لوثر على تحكم الكنيسة فى الحياة والموت والمعتقدات • وأراد لوثر أن يكون للمسيحى حق فهم النصوص الدينية • لكن اين الكنيسة فى الاسلام حتى نثور عليها ؟ واين هم رجال الكهنوت ؟ ان ما نادى به لوثر هو فى صلب الاسلام وجوهره وتعاليمه •

وشهد الغرب فصل الكنيسة عن الدولة ، فأخذ بعضهم على الاسلام كونه دينا ودولة • بل ان أحد المؤرخين المعاصرين حكم على الاسلام بالتدهور منذ وضع الرسول صلى الله عليه وسلم اسس حكومته وأمته فى المدينة • وأغرب من هذا أن هذا المؤرخ نفسه يأخذ على الغربيين تخليهم عن الدين ، ويطلق على عصر ما بعد النهضة والثورات الدينية « عهد ما بعد المسيحية » •

وقاس بعض الغربيين ظهور الاسلام ومسيرته ومعتقداته على المسيحية دون فهم لطبيعة الاسلام والظروف التى بزغت فيها شمسه • أخذت المسيحية فى الانتشار فى ظل الامبراطورية الرومانية ديانة مشتبها فى أمرها من قبل الاباطرة ، ووقع الكثير من المسيحيين ضحية للظلم والاضطهاد والموت بسيوف الجلادين • وأحكم رجال الاقطاعات الكبرى قبضتهم على الفلاحين فهجروها الى المدن ، وسقطت اعداد كبيرة من العبيد ضحية للثورات • فكان أمرا طبيعيا أن يقول مفكرو المسيحية بقرب فناء العالم ، وحلول الآخرة • وكان أمرا طبيعيا أن يحكموا على طبيعة الانسان بأنها مجبولة على الخطيئة ، وان ينادوا بالمحبة ولين الجانب والتجاوز عن الاساءة • لم يكن أمام المسيحية وسط تلك المشاهد المفجعة الا أن تحمل العزاء للناس ، وأن تبشرهم بجنات الآخرة ونعيمها ، وبعبارة موجزة أن تعلمهم كما قال أحد المؤرخين كيف يموتون •

أما بالنسبة الى الاسلام فكان الوضع مختلفا كل الاختلاف ، ولا وجه لقياس ولا مقارنة • فالاسلام حمل للعالم رسالة للحياة وللبناء ، لصلاح

أحوال الناس فى دنياهم وآخرتهم ، وعليه اندفع المسلمون لتبليغ الرسالة وتوحيد الناس في ظل الاسلام • وقالوا بأن الانسان يولد على الفطـرة ، وأن صلاحه وفساده متوقفان على النظام الذي يعيش في ظله•وفسر الاسلام للانسان طبيعة الكون الذى نعيش فيه ، فوضع حدا فاصلا بين العالم المادى والخالق عز وجل ، وحث الناس على النظر فى ظواهر الكون فدفع عجلة العالم بقوة أدت الى تلك النهضة الكبرى التى تزعم بها المسلمون ميادين الفكر والعلم •

وشغلنا بعض الغربيين بتطبيق مقاييسهم علينا فى ميدان كانت منجزات العرب فيه ولا تزال موضع اعجاب العالم كله وهو ميدان الفنون ،فعالجوه من الناحية السلبية ، وافتقدوا فيه تصوير الانسان • وأود هنا ان اتساءل كيف يجوز ان نحكم على الفن الاسلامي بما لم يكن من مقاصد أصحابه • أليس فى هذا عمى منهجي ــ مقصودا كان أو غير مقصود ؟ لقد كان الفنان المسلم ينشد المثال لا المثل : كان يستهدف الجوهر لا العرض ، واللامحدود لا المحدود • انظر الى أى نسق زخرفى أو نباتي تجده تجريديا لا يمثل شيئا بعينه • وتجد الشكل مطواعا فى الامتداد قابلا لتوليد مختلف الاشكال •

ثم هناك قضية الاصطلاحات الغربية واستخدامها دون تمعن فى دلالاتها كلنا على سبيل المثال نعرف اصطلاح الديمقراطية ، أخذنا فى المزايدة على أصحاب الاصطلاح ووضعه فى غير موضعه • أخذنا ندس الاصطلاح مثلا في جوانب دينية لا تجوز معها الديمقراطية • أنا اعلم ان الذين تحمسوا له وحاولوا زجه في قرائن دينية ، فعلوا ذلك على سبيل الدفاع عن الاسلام • لكن غاب عنهم أنه لا ديمقراطية فى الدين ، فالدين يرتكز على الوحي ،وكل مسلم لا يمكن ان يتشرف بحمله هذا الاسم الا اذا سلم بالوحي •

واخطر من هذا كله ان نقبل على كـل رأى غربي أو نظريـة عربية فنعتبرها أمرا مسلما بصحته ، ونحاول أحيانا اثبات جذورها واصولها فى

أحاديث رسول الله صلى الله عليه وسلم ، أو فى القرآن ، أو فى النصوص الجغرافية والتاريخية • مضى عهد احل الناس فيه مذهب روسو في الانسان الطبيعي المحل الاسمي فى تفكيرهم وأدبهم ، ثم لم يلبثوا أن أدركوا أنه لا يوجد هناك انسان طبيعي • فالانسان هو المخلوق الوحيد الذى لا يستطيع ان يعيش بعد الولادة الا اذا تكفل انسان برعايته • وفى هذه الاثناء تتكون طبيعة الانسان الثانية • يذكرني هذا بما حدث خلال الحملة الفرنسية على مصر حين تحمس بعض رجالها لرؤية الانسان الطبيعي فى الصحراءفي الطريق من الاسكندرية الى القاهرة،وقصدوا بذلك البدو• فلما انقض البدو عليهم، علق أحدهم على البدو بقوله انه كره الانسان الطبيعي منذ ذلك الحين •

وشهد القرن التاسع عشر ظهور دعـــاوى تفوق بعض الاجناس على البعض الاخر، وذلك بسبب تفوقهاالعسكرى ، ثم لمتلبث النظرية أن تهاوت في أعقاب انحسار الاستعمار باستقلال المستعمرات • وشهد القرنالتاسع عشر ظهور فكرة التقدم Progress ، ثم انهارت فى اعقاب اندلاع الحرب العالمية الاولى التي حطمت آمال العالم فى السلام على الارض •

يفترض فيمن يتصدى لاعادة كتابة التاريخالاسلامي أن يحدد اولامعالم الاطار او النسق Pattern الذى يتبعه • فليس هناك مؤرخ يكتب بدون نسق قائم على تصور كلي للموضوع • فالحكم على الشيء كما هو معروف فرع من تصوره • صحيح أن هناك من ينكر على المؤرخان يكتب وفق نسق كالمؤرخ هـ • أ • ل • فيشر • ولكن عدم وجود النسق ، كما رد عليهالنقاد هو فى حد ذاته نسق ويتعين على المؤرخ ممن يحملون الاسم بجـدارة ان تكون لدية نظرة واضحة الى الانسان والكون •فقـد سبقت الاشارة الى اختلاف الاسلام عن غيره من الاديان فى مفهومه لطبيعة الانسان والخلق •

ويفترض الاطار الكلي رؤية واضحة لموقع تاريخنا من التاريخ العالمي لقد جرى الغرب على تشويه تاريخنا وتواريخ أمم ، بل وقارات باكملها ،

بجعلها حاشية على تاريخه ، هذا مع ان عصر السيادة الاوروبية على أكثر بقاع العالم يستمر أكثر من أربعة قرون ابتدأت بالاكتشافات الاوروبية ، هذا بينما استمرت الدولة الاسلامية والدول الاسلامية المستقلة فى السيطرة أكثر من عشرة قرون بدءا بالخلفاء الراشدين ، وانتهاء بالاتراك العثمانيين • يكاد المرء لا يصدق ان تاريخ الاسلام كله لا يحتل فى بعض التواريخ العالمية اكثر من صفحات محدودة •

ومن الامور الاساسية في رسم الاطار الكلي قضية قسمة التاريخ الى عصور او التعصير كما يقترح البعض تسميتها • وهنا لا بد أن نذكر بان الطريقة الاوروبية في تقسيم التاريخ خاصة بأوروبا • أخطر ما فى هذا التقسيم علينا أن عصور الازدهار الاسلامية توافق عندهم ما يعرف بالعصور الوسيطة ، وعبارة العصور الوسيطة ما أطلعت في أوائل القرن السادس عشر الا للدلالة على انها لم تكن سوى معبر من العصور الكلاسيكية ــ اليونانية والرومانية ــ الى العصور الحديثة • لقد وقر فى ذهن الاوروبي ان هذه العصور كانت الى حد كبير عصورا مظلمة، مع ان الظلام لم يكن فى العصور بقدر ما كان فى أذهان من أطلقوا التسمية • والاشارة الى أن الاسلام ظهر فى هذه العصور توحى بأن العهود الاسلامية الاولى كانت مظلمة او شبة مظلمة كالغربية •

لسنا فى حاجة الى هذا التقسيم ، وحسبنا القول بما قبل الاسلام وما بعد الاسلام • وهنا لا بد لي من الاشارة الى قضية هامة ، وهى مسألة اعتبار العهود الاسلامية التى تلت القرن الحادى عشر عهود انحطاط • هذه الكلمة الاخيرة ترجمة لما دعاه اكثر الغربيين بكلمة Pecline • ولو أن كتابنا ومؤرخينا تمعنوا فى منجزات الشعوب الاسلامية خلال ما اسموه بعصور الانحطاط لوجدوا ان أكثر من بقعة فى العالم الاسلامى شهدت نهضة فى هذا الجانب او ذاك من الحضارة • وابرز الامثلة على ذلك منجزات المغول في الهند ، والاتراك العثمانيين في ميادين الفن والعمارة • ومما

يستلفت النظر أنه فى حين أن بعض كتاب الغرب أنفسهم قد أخذوا يتخلون عن فكرة الانحطاط هذه ، فان كتابنا ومؤرخينا يصرون عليها •

يحتاج القول بالانحطاط أو التدهور الى اعادة النظر فيه فى ضوء واقع مسيرة الحضارة الاسلامية ، وفى ضوء تطور غيرها من الحضارات • ولو فعلنا ذلك لوجدنا ان حضارتنا كغيرها من الحضارات مرت فى أدوار ثلاثة : دور النشأة وارساء الجذور والقواعد ، ودور النقل والانتقاء من كل مصدر فى متناول العلماء المفكرين ، ثم اخيرا دور التوطيد والتبلور • ويوافق الدور الاول زمن البعثة النبوية والخلفاء الراشدين • ويقع الثاني خلال القرون الثلاثة التالية ثم تلا ذلك دور التوطيد وتحديد المعالم والمفهومات وتبلورها • ما خيل الى البعض انه انحطاط لم يكن الا توطيدا وبلورة للمذاهب والآراء والمعتقدات ، واستمساكا بها • صحيح أن بعض انحاء العالم الاسلامي تعرضت فى هذه الاثناء لنكسات وكوراث ولكنه عموما استمسك بما عنده ولم يتدهور • واقع الحال ان معطيات الحياة وظروفها لم تتغير ، ولم يضع العرب ايديهم على علم جديد يقلبون به وجه الحياة • ومما ينبغي تذكره هو ان الغرب ذاته كان فى هذه الاثناء بلدا ناميا او متخلفا • وجاء الانقلاب الحقيقى فى الموازين بالثورة الصناعية التي مكنت الغرب من الانتقال من الاستعمار القديم الى الاستعمار الحديث والسيطرة على مقدرات الشعوب • ولم يكن الغرب ليتمكن من التطور بسرعة فى ذلك الطريق لولا استغلال الشعوب وخيراتهم •

في هذه الاثناء شهد العالم الاسلامى تطورات يغفلها مؤرخونا : يتناسون المغول فى الهند والعثمانيين ومنجزاتهم ، ويتناسون انتشار الاسلام فى افريقيا ويتناسون الحركات الاصلاحية • كان كل هذا امتدادا للعصر الاسلامى الذى لا نزال نعيش فيه برغم جميع الفلسفات الاجتماعية الجديدة أو الايديولوجيات • لقد بقى المسلم فى شتى بقاع الارض مسلما لـه شخصيته المستقلة ، صامدا فى وجه الكوارث • فى هذه الاثناء قضى على

شعوب برمتها دون رحمة ، وتغيرت خارطة العالم مرة ومرات ، والمسلم مسلم ـ عربيا كان أو غير عربي . وتلمس الغرب سر هذا الصمود الغريب فوجدوه فى الاسلام . فانبرى الكثيرون من المبشرين والمستشرقين لدراسة الاسلام لا بقصد الدراسة وانما لزعزعة أسس الاسلام ذاته.فذهب بعضهم الى انه لا يصلح المسلمون الا اذا تخلوا عن الاسلام أو شكوا فى الوحي او رجعوا الى فرعونيتهم أو اصولهم السابقة على الاسلام . ووقع نفر منا تحت تأثير هذه الدعاوى . لكنهم لم يلبثوا ان اعادوا النظر فى مواقفهم ومنهم ـ على سبيل المثال ـ المرحوم الدكتور محمد حسين هيكل الذى كتب يقول :

« وقد حاولت أن أنقل لابناء لغتي ثقافة الغرب المعنويةوحياته الروحية لنتخذها جميعا هدى ونبراسا ، لكنني أدركت بعد لأى أنني أضع البذر في غير منبته ، فاذاالارض تهضمه ثم لا تتمخض عنه ، ولا تبعث الحياة فيه . وانقلبت التمس في تاريخنا البعيد فى عهد الفراعنة موئلا لوحي هـذا العصر ينشأ فيه نشأة جديدة ، فاذا الزمن واذا الركود العقلي قد قطعا ما بيننا وبين ذلك العهد من سبب قد يصلح بذرا لنهضة جديدة . فرأيت أن تاريخنا الاسلامي هو وحده البذر الذى ينبت ويثمر ، ففيه حياة تحرك النفوس ، وتجعلها تهتز وتربو ، ولابناء هذا الجيل فى الشرق نفوس قوية خصبة تنمو فيها الفكرة الصالحة لتؤتي ثمرها بعد حين » .

لست أرى سببا للتشاؤم ولا لليأس ـ وأعتقد أن مهمة تعميق الهوية العربية الاسلامية هي بالدرجة الاولى مسئولية المؤرخ . لم يكن الطبرى او اللاذرى أو اليعقوبي فى حاجة الى تأكيد العروبة او الاسلام لانهم كانوا يعيشون فى جو عربى اسلامى . اما اليوم فنحن نعيش فى عصر الايديولوجيات والمذاهب « والتقاليع » ولا معدى لنا عن أن نضع القارىء فى الجو الصحيح الذى يولد فيه الشعور بالاعتزاز بنفسه وبقومه وبتراثه .

ولن يتولد فيه هذا الشعور الا اذا أغنينا تاريخنا بالابحاث التي تدور حول عروبة البلاد وتحولها الى الاسلام ، واغنينا كثيرا من معالجاتنا للمنجزات بالمحتوى • هناك كما أشرت نقص فى الموضوعات التي نعالجها • لقد تعربت بلاد كانت قد خضعت لامم أجنبية ، وتعرضت لتأثير حضاراتنا ، لكنها صمدت في وجه هذه التأثيرات مثل شمال افريقيا • أليس نقصا فينا الا ندرس قضية تعريبة وتحوله الى الاسلام • ألا نقول باستمرار بأننا من المحيط الى الخليج ؟ كيف صرنا من المحيط الى الخليج ؟ وقصدت بمحتوى المنجزات الا نكتفى بقولنا مثلا ان العرب انشأوا المستشفيات • ما هى الصورة التي نكونها لدى القارىء بمجرد ايراد هذه الحقيقة مع ذكر مبلغ ما صرف عليها ؟ أليس الواجب علينا ان تتعدى ذلك الى البحث فى ادارتها ، وفي عملية التعلم والتعليم والتدريب فيها ؟

يقودني هذا الى القول بان كل مؤرخ للحضارة أولا وآخرا • ولا يمكن لابحاثه ان تأتي غنية الا اذا أدرك وجوه حضارة القوم الذين يؤرخ لهم ، وكان بصيرا بالترابط بين مختلف مظاهر حياة المجتمع على اختلاف فئاته ، وبالعلاقات بين التطورات المختلفة المحلية منها والعالمية • أبسط الامثلة واقربها على سبيل المثال اكتفاؤنا عند بحث حروب الفتح الاولى فى الاسلام بتمجيد شجاعتنا وانتصارنا على الفرس ومن بعدهم الترك وغيرهم• هناك أبعاد اخرى للفتح لا يمكن للكاتب تبينها الا اذا كان ملما بعض الشيء بتاريخ هذه الامم التي انضوت تحت لواء الاسلام ، وعلاقاتها بعضها ببعض • هنـــاك فرق كبير بين الاكتفاء بخبر الفتح وبين تجاوز ذلك الى ادراك ان العرب كانوا الامة الوحيدة التي حطمت حاجز الفرات بين الشعوب السامية ولايرانية ، وحاجز نهر جيحون الذى كان يفصل بين الشعوب الايرانية والتركية ، وأن النتائج الحضارية التى ترتبت على تحطيم هذين الحاجزين كانت اعظم بكثير مما يتصوره المرء • بتفسير هذه

الابعاد نغني الموضوع ، ونوسع مدارك القارىء ، ونعمق ادراكه لمدى الانجاز الضخم الذى حققه قومه، وبالتالى نعزز فيه شعوره بالاعتزاز بنفسه وبتراثه .

لست ادعو الى تحميل التاريخ ما لا يطيق ، ولا الى تزييف الوقائع . أنا أدعوا الى تبينها فى نطاق أبعادها الصحيحة . وهذا بالمناسبة لا يتسنى لاتباع التفسيرات التاريخية ذات الوجه الواحد ، ولا أتباع الدكتاتوريات الفكرية ، ولا اتباع المقارنات والمقابلات التي تنتزع الامور من قرائنها التاريخية . فالحكم بأن المسببات كلها مادية أو روحية أو سيكولوجية او اقتصادية او سياسية فحسب ، يشوه المنظور التاريخى . فلا بد من انفتاح الذهن واعتماد التحليل العلمى الدقيق .

ولا يتسنى هذا ايضا لمن لا يلتزمون بالمنهج العلمي التزاما كاملا . وهذه نقطة أحب أن أؤكدها لان اكثر كتابنا لا يأخذون من الجانب العلمى سوق الشكليات . يسمح مثلا كانت او آخر لنفسه ان يجتر اجترارا ، أو أن يكتب دون اطلاع كاف . لا بأس في أن نأخذ بالطريقة الغربية . فالكاتب الغربى لا يكتب فى الغالب الا اذا كان عنده جديد يقوله ، أو اذا كان لديه تفسير جديد لموضوعه . ولو فعل كتابنا ومن يشتغلون بالتاريخ عندنا مثلهم ، لاختفت اكثر الكتب التي ألفناها .

وأود ان أقف قليلا عند خطأ يرتكبه عدد من كتابنا ومؤرخينا فى حق أنفسهم وحق أمتهم ، ألا وهو غلبة الاسى على كتابتهم عندما يتصدون لتاريخنا وخاصة عند بدء الفتن والحروب ، وعند قيام الدول المستقلة . وان دل هذا على شيء فهو على عدم تفهم كامل لطبيعة العصور التي قامت بها الدول الاسلامية ، ثم الدول المستقلة . اذ لم يكن في مقدور دولة مترامية الاطراف كالدولة الاسلامية ، ولا أمبراطورية مثل امبراطورية شارلمان مثلا أن تظل متماسكة لفترة طويلة من الزمن. لقد قامت الدولة الاسلامية فىعصر

كان معين البشر فيه محدودا ، وكانت المسافات شاسعة ، والاسلحة وأدوات الحصار ذات اشكال بسيطة • هذا من ناحية ، ومن ناحية اخرى : لماذا لا نركز على الانجازات الكبرى التي كان تحقيقها ولا يزال أقرب ما يكون الى المعجزات ، وفي مقدمتها خلق هذا العالم العربى والعالم الاسلامى • فلا أعرف الى الان ما يقرأ أكثر من القرآن الكريم ، ولا اسما يردد مثل اسم « محمد » صلى الله عليه وسلم • فلماذا نكتب عنهم بروح والحزن • اذا كان لا بد من الاسى والحزن ، فليكن علينا نحن العرب المعاصرين • لا عليهم هم • لقد قاموا بدورهم خير قيام •

• • •

قد يتساءل احدكم عما يجب علينا ان نفعله لنعيد كتابة تاريخنا على الوجه الصحيح • هذه مسئولية الجامعات العربية والاسلامية ، فالجهد الفردى وحده لا يكفي • لا بد من جهد جماعي منسق لسد النقص فى أبحاثنا ، وعلى أساس مثل هذا الجهد يمكن لنا ان نعيد الكتابة •

الدكتور محمود يوسف زايد
أستاذ التاريخ الاسلامي
الجامعة الاميركية فى بيروت

تجديد في ظل الأصالة

دكتور سعيد عبد الفتاح عاشور
استاذ تاريخ العصور الوسطى
جامعة الكويت

من الحقائق المسلم بها ان نسبة كبيرة من العرب اليوم غير راضين عن وضعهم واحوالهم . فرغم هذه المظاهر البراقة التي نلمسها في بعض جوانب الوطن العربي الا ان نظرة جادة امينة في ضوء المقارنة بين أوضاع المجتمع العربي من ناحية واوضاع العالم المتحضر من ناحية اخرى ، تجعلنا ندرك ان هذا المجتمع يعاني فعلا من حالة تخلف خطيرة ، فكريا واجتماعيا واقتصاديا .

ومن حق العرب اليوم ان يألموا لهذا الوضع ويعيدوا النظر في حقيقة امرهم ، ويتدارسوا اسباب هذه الكبوة التي ألمت بهم ، والاسلوب الصحيح للنهوض منها . ذلك ان العرب لم يكونوا مطلقا من تلك الامم التي عاشت على هامش تاريخ البشرية ، دون ان يسطروا فيه أثرا بناء ، وانما كان العرب أصحاب رسالة خالدة ، وبناة حضارة هي باعتراف كافة الباحثين اعظم حضارة شاهدها العالم اجمع ـ مشرقه ومغربه ـ طوال العصور الوسطى .

ومن هذا المورد استقى الغرب منذ القرنين الثاني عشر والثالث عشر ، عندما أفاق اهل الغرب من ظلمة العصور الوسطى ليفتحوا اعينهم على حضارة عربية شامخة البنيان لم تترك فنا ولا علما ولا ضربا من ضروب المعرفة الانسانية الا اسهمت فيه بجديد ، فنشطت حركة الترجمة من العربية الى اللاتينية ، ولم يترك الاوربيون في القرنين الثاني عشر والثالث عشر كتابا عربيا في الاداب او العلوم او الفنون الا تلقفوه في نهم وعكفوا على ترجمته الى اللاتينية ليتعلموا فيها ويتتلمذوا على ايدى مؤلفيها من اعلام الفكر

العربي • حتى القرآن الكريم عندما وقعت منه نسخة مخطوطة في ايديهم ترجموها الى اللاتينية فى وقت مبكر يرجع الى النصف الاول من القرن الثاني عشر للميلاد •

لم يتردد ريموند رئيس اساقفة طليطله في انشاء مكتب كبير للترجمة قام بترجمة عديد من امهات ثمار الفكر العربى الى اللاتينية • بل لقد ظهر من ملوك اسبانيا الذين عرفوا بتعصبهم الشديد فى ذلك الدور ضد العروبة والاسلام ، من قدر الثقافة العربية وادرك الا امل فى صحوة الغرب دون الوقوف على تراث العرب والافادة منه ، ومن هؤلاء الفونس الخامس ملك قشتالة وليون الملقب بالحكيم (٢٥٢ ـــ ١٢٨٤) •

وعلى هذا الاساس قامت النهضة الاوربية فى القرن الخامس عشر ، وهى النهضة التى استمرت فى تطور وازدهار الى ان بلغت ما بلغته اليوم من تفوق وازدهار • اما الاصل ، واما المنبع الذى استقت منه الحضارة الحديثة فلم يلبث ان تعرض للجفاف والذبول ، ووقف العرب اليوم على مفترق الطرق ، بين اسفين على مجد ولى ومترحمين على أيام انقضت ، وبين متشككين فى ماضيهم وحاضرهم ومستقبلهم ، وبين مفتونين بحضارة الغرب بلغ من شغفهم بها ان اقبلوا عليها فى نهم مالا يلتهمون الا مساوئها ولا يقدسون الا سيئاتها • ولننظر فى امر كل فريق من هذه الفرق الثلاث •

اما المترجمون على الحضارة العربية وامجادها ، فيحلو لهم بين حين وآخر ان يقيموا لها عزاء في شكل مؤتمر او ندوة او غير هذا وذاك ، ينعون فيه مجد الآباءو وآثار الاجداد ، وغالبا ما يقف دورهم عند التغني بامجاد الماضى ، لعلهم يجدون في ذلك نوعا من السلوى يعوضهم عما يشعرون به من اسى عند المقارنة بين ما كانوا عليه وما صاروا اليه •

ويعبر هذا الفريق عن وجهة نظره بشتى الطرق العلنية الواضحة ، اما بالكتابة او الخطابة التى يتحدثون فيها عن ازمة الحضارة العربية ، وهم

في جميع الحالات يرددون كلاما مكررا يستعرضون فيه ما حققته تلك الحضارة من منجزات فى مختلف العلوم والفنون ، وما اسهمت به من نصيب كبير فعال فى بناء الحضارة الغربية الحديثة ، وكيف ان العرب على هذا الفريق وقوفه عند هذا الحد ، وعدم محاولة تخطيه الى العمل على ايضاح الحقيقة الخاصة بان الحضارة العربية ذبلت ولكنها لم تمت ، وانها كالشجرة الراسخة اصلها ثابت وجذورها قوية متينة ممتدة فى الاعماق ، لئن جفت اوراقها نتيجة لعدم العناية بها ، فان بعض الرعاية ومزيد من العناية كفيلان بان يعيدا الى هذه الشجرة نضرتها وخضرتها ، لتصبح اعظم مما امست فيه ، ويعود الى الاستظلال بظلها ليس العرب وحدهم وانما البشر كافة ، مثلما حدث فى سالف الزمان . اجل ، علينا ان ندرك وان نعترف بأن ذبول شجرة الحضارة العربية لا يرجع الى عدم قدرتها على مسايرة التطور الحديث ، او ـ كما يدعي البعض ـ الى بذور ضعف كامنة بين ثنايا تلك الحضارة اشبه بالجراثيم التى تنخر فى جسم حتى يتساقط وتتهاوى اعضاؤه تحت تأثيرها . وانما جاء ذبول تلك الشجرة نتيجة لسبب رئيسي واحد هو تقاعس اصحابها عن العناية بها والالتزام بجوهرها ، والاستمرار برعايتها . ومع هذا فان شجرة الحضارة العربية رغم كل ما يحيط بها اليوم من مظهر جاف مجدب ، ما زالت محتفظة باسباب الحياة تنظر الى ابنائها نظرة الم وامل ، وكأنها تترقب اليوم الذى يقومون فيه بمحاولة جدية مخلصة لرعايتها ، حتى تنهض من كبوتها وتقدم لهم وللبشرية جمعاء اضعاف ما يقدمونه لها .

واما الفريق الثاني الذى يضم عصبة المتشككين فى ماضي العروبة وحاضرها وربما مستقبلها ، فيمثل الجانب الهدام الذى لا يرى فى ماضي الحضارة العربية الاجمودا ، ولا فى حاضرها الا عجزا ، ولا في مستقبلها الا ظلاما . وفى الوقت الذى تستثير عظمة الحضارة العربية مفكرى العالم اجمع في الشرق والغرب ، فيعكفون على دراستها ، وبيان اصالتها ، وايضاح

عناصر القوة فيها ، وشرح فضلها على الحضارة البشرية جمعاء ويبذلون جهودا متواصلة لاحياء تراثها .... فى هذا الوقت نسمع صوتا خافتا غير برىء يستهدف فى صورة مباشرة او غير مباشرة ــ عن علم او جهل ــ التشكيك فى قدرة العرب على الانطلاق ، وفى استطاعة حضارتهم النهوض بل فى قيمة تراثهم الخالد واهميته بالنسبة للحاضر والمستقبل .

نعم ، فى الوقت الذى تفاجئنا فيه دور النشر كل يوم بمطبوعات جديدة عن التراث العربي تبرز عظمته وقوته وتصدر عن المهتمين بالاستشراق فى روسيا وهولندا وفرنسا وانجلترا والولايات المتحدة الامريكية وغيرها ، اذا باصوات ـ ماكرة او غافلة ـ تنبعث من جوف الوطن العربي نفسه تقلل من قيمة التراث العربي بل تندد به ، وترى فى احيائه نوعا من الردة غير المستحبة ، وتتهم الجهود الحريصة على احياء ذلك التراث بانها جهود رجعية . ولعل هؤلاء فاتهم ان الحضارة العربية تمثل اكبر حركة تقدمية شهدها التاريخ ، زمن ازدهارها ، وان هذه الحضارة تحوى من امكانيات الانطلاق والتقدم ومسايرة التطور من اجل سعادة البشر مالا تحويه حضارة اخرى ، واننا عندما ننادى باحياء تراث الحضارة العربية فاننا لا ننادى بالتمسك بالاساليب العتيقة فى الانتاج كما يحلو لذلك الفريق ان يتشدق ، ولا نطلب بالوقوف عند اساليب الماضي وعدم الاخذ بمحاسن الحاضر . اننا عندما ننادى باحياء التراث العربي ، انما نستهدف استخلاص ما في هذا التراث من قيم بناءة ــ فكرية وخلقية واجتماعية واقتصادية ــ وهي قيم مثالية لاترتبط بالماضي وحده ، وانما هي صالحة لكل زمان ومكان ، ومن الممكن ان تكون اداة طيبة ووسيلة فعالة للنهوض والانطلاق والوصل الى ما بعد مرحلة القمر . علينا ان نذكر ان روجر بيكون رائد البحث العلمي والمنهج التجريبي الحديث في العالم الغربي عندما توصل الى ان الظواهر الطبيعية جميعها متوافقة ومتآلفة تآلفا يؤدى الى وحدة الطبيعة ، وعندما قال بان الطبيعيات والكيمياء والفلك

والرياضيات تؤدى الى وظائف مختلفة لشىء واحد هو الطبيعة ، وعندما تنبأ بامكان الوصول الى اختراع سفن تسير بآلات دون حاجة الى مجداف او شراع ، طائرات يحرك الانسان اجنحتها كما يفعل الطير ، ومفرقعات ملتهبة تبيد الجيوش ، وروافع ضخمة لرفع الاثقال ، وعقاقير سامة تبيد الحشرات والهوام ، ومصابيح تضيء دون ان ينفذ وقودها .... الى غير ذلك من الارهاصات التى توصل اليها الانسان فعلا فيما بعد ، والتي غدت اساس التطور الحضارى الحديث .... علينا ان نذكر ان بيكون الذى عاش فى القرن الثالث عشر للميلاد عندما توصل الى هذا القدر من المعرفة وتنبأ بتلك المعلومات انما كان قد تعلم اللغة العربية ، وتلقى العلم فى جامعة اكسفورد الناشئة على ايدى اساتذة كانـوا قـد تتلمذوا بدورهم على ايدى العرب فى اسبانيا ، وأنه دأب دائما على حث تلاميذه ومعاصريه على علم اللغة العربية وعلوم العرب بوصفها الطريق الوحيد للمعرفة الحقة .

ان اتسام الحضارة العربية بمسحة من الايمان لا ينبغى ان يكون سببا لادانتها بالجمود والرجعية ، فالاديان السماوية نزلت من اجل تحرير البشر لا تقييدهم ، وبهدف تطوير المجتمع البشرى نحو الافضل والاسمى ، لاتجميدة . والايمان ليس معناه مطلقا تقبل الحقائق تقبلا اعمى دون تميحصها ودراستها دراسة حرة تستهدف الوصول الى كنهها . فها هو القرآن الكريم يستعرض آيات الله من ليل ونهار ، وشمس وقمر ، وسماوات وارض ، ومد للظل ..... ثم يطالب المؤمنين بان يتدبروا هذه الآيات ، واذا ذكروا بها لم يخروا عليها صما وعميانا . اذا وجدت فئة من رجال الدين — فى المسيحية والاسلام سواء — اتصفت منذ العصور الوسطى بالتزمت والرغبة فى حصر الفكر البشرى داخل دائرة محدودة ضيقة فان هذه الفئة لا يمكن ان تعبر عن رحابة صدر الاديان السماوية وما تحوية من قدرات خلاقة على طريق التحرر والانطلاق .

وفيما عدا هذه الفئة المتزمتة التى تمثل نسبة قليلة من رجال الدين ، نجد اعلام الحضارة العربية وبناتها اكثر ما يكونون تحررا في تفكيرهم واتساع أفقهم • أليس ابراهيم بن سيار النظام هو أول من قرر ان الشك بداية لكل معرفة ، ثم جاء الغزالي من بعده فاكد هذه النظرية وافاض فيها فى كتابه « احياء علوم الدين » وذلك قبل ان يولد ديكارت الفيلسوف الفرنسي الذائع الصيت بقرون ؟ اليس ابن تيميه فى كتابة « نقد المنطق » هو الذى نادى بان الاستقراء هو الطريقة الوحيدة الموصلة الى اليقين ؟ اليس بن حيان هو الذى قال العبارة الشهيرة بان المعرفة لاتحصل الا بالعمل واجراء التجارب ؟ اليس ابن رشد هو الشارح الاعظم لفلسفة ارسطو ، الذى اطلق لتفكيره العنان وضرب مثلا فريدا لحرية الفكر بعيدا عن كل قيد ديني أو غير ديني ؟ اذا كان هؤلاء وغيرهم من اعلام الحضارة العربية والفكر العربي قد سبقوا زمانهم فكريا بعدة قرون فكيف تعتبر الحضارة العربية جامدة ؟ وكيف نعتبر العودة الى التراث والعمل على احياء ما فيه من قيم ومثل ضربا من الرجعية ؟؟؟ •

اما الفريق الثالث الذى يشمل المفتونين بحضارة الغرب ، فقد بهرهم ضوء الحضارة الغربية الحديثة ، فاقبلوا عليها في نهم شديد يتمسحون بها ويحاولون الانتساب اليها متنكرين لاصولهم الحضارية •

ولو كان هؤلاء تدبروا امرهم ليميزوا بين الغث والسمين ، ويحرصوا على اختبار العناصر الطيبة من الحضارة الغربية لهان امرهم ، ولكنهم فى حماستهم لكل ما هو غربي اندفعوا ليأخذوا عن الحضارة الغربية مساوئها ورذائلها • لقد اغمضوا أعينهم عما فى الحضارة الغربيــة مـــن حرص على الانتاج والتزام باصول العمل وقواعده وغير ذلك من الجوهــر ، وفتحوا اعينهم واسعة على ما ابتلى به المجتمع الغربي اليوم من رذائل ومفاسد • والغريب ايضا بشأن هذا الفريق انه فى الوقت الــذى تنبعث اصوات من الغرب تبدى اعجابها بروحانية الشرق ، اذا بهم يتطرقون فى

تمجيد مادية الغرب . لقد فات هؤلاء ان المعجبين بروحانية الشرق ضاقوا ذرعا بعبادة المادة ، وادركوا انه لا حياة لجسد بلا روح ، فاتجهوا بقلوبهم نحو الشرق ينشدون روحانياته ويتلمسون فيها القيم والمثل .

• • •

فاذا اردنا بعد ذلك ان نطرق باب المشكلة التي نحن بصددها لتجديد ما ينبغي ان تكون عليه الحضارة العربية بين تيارى الاصالة والتجديد ، فاننا نجد ان الحل فى حقيقة امره ليس صعبا ولا مستعصيا وذلك اذا حددنا المقصود بالاصالة والمقصود بالتجديد . اذا كان المقصود بالاصالة والعراقة والاحتفاظ بما تحويه من قيم ومثل ، فان الاصالة في هذه الحالة ينبغى ان تكون اساس التقدم بالحضارة العربية ونقطة الانطلاق لاية حركة تستهدف نهضتها داخل اطار مرن بعيد عن الجمود الذى تتبرأ منه تلك الحضارة . اما التجديد ، فاذا كان المقصود به التخلى عن الجوهر ونبذ القديم لا لشيء سوى انه قديم والتمسح بالجديد لا لشيء سوى انه جديد ، ففي هذه الحالة تصبح الدعوة الى التجديد خطرا على كيان الحضارة العربية واصالتها ومثلها وكيانها . والتجديد مرفوض رفضا قاطعافي هذه الحالة . ولكن اذا كان المقصود بالتجديد احياء ما ذبل من المثل والقيم والاستفادة من الجوانب البناءة في الحضارات الاخرى التى من شأنها ان تزيد تلك المثل والقيم اصالة ورسوخا وتمد البناء الحضارى العربى بمزيد من الصلابة ومزيد من القدرة على الحركة ، فمرحبا بالتجديد فى هذه الحالة ، لانه لا يتعارض مع الاصالة ولا يقف منها على طرف نقيض ، وانما يتفق مع خصائص الحضارة العربية وسماتها الاساسية ، وهو الامر الذى لا يتضح الا بالقاء نظرة سريعة نحدد فيها تلك الخصائص والسمات تحديدا دقيقا يلقى اضواء على مشكلة خلقناها ، ثم اجتمعنا لدراستها :ـ

لعل اول ما تتصف به الحضارة العربية هو انها حضارة تقدمية متطورة بعيدة عن الجمود . فالعرب الذين بدأوا بناءهم الحضارة من نقطة الصفر غداة انطلاقهم من شبة جزيرتهم فى القرن السابع للميلاد

وانتهوا بان دونوا شروحا على فلسفة ارسطو فاقت كل ماكتب عن تلك الفلسفة حتى العصور الحديثة ، وسبقوا غيرهم في وضع نظريات فى الصوت والضوء ، والصور فى المرايا المقعرة والمحدبة وتحليل المواد تحليلا كيماويا، ووصف كثير من المركبات الكيماوية وخصائصها ، التمييز بين القلويات والاحماض ، وتأليف موسوعات فى الطب ظل يعول عليها فى دراسة الطب فى الجامعات الاوروبية حتى القرن التاسع عشر ، والتوصل الى نتائج في الفلك والعلوم الرياضية لم يعرفها العالم من قبل ... هؤلاء العرب لا يمكن ان تكون حضارتهم جامدة ، وانما هي تقدمية متطورة ، بدأت باستخدام الرماح والسهام وانتهت بوصف القنبلة والطوربيد واستعمال القوة الدافعة للبارود ،

بدأت بتلقين الفقه والحديث في المساجد والجوامع وانتهت بانشاء المدارس والجامعات لاستيعاب كافة العلوم العقلية والنقلية . واذا تتبعنا هذا المشوار الطويل لوجدنا انه لم يستغرق من الزمان اكثر من ثمانية قرون . فهل توصف مثل هذه الحضارة بعد ذلك بالجمود وعدم القدرة على التطور ؟ وهل يوصف الرجوع الى مثل هذه الحضارة وقيمها بانه نوع من الرجعية او الردة كما تدعى قلة من الناس ؟

وبعد ذلك تأتي صفة ثانية للحضارة العربية هي الحيوية والاستمرار. فهذه الحضارة منذ مولدها مرت بادوار متباينة بين يقظة وسبات ، وتعرضت لهجمات عديدة من الداخل والخارج ، ولكنها ظلت بروحها وقيمها ومثلها وجوهرها حية قائمة شامخة ، لم تمت مطلقا لندعي انها فى حاجة الى بعث جديد ، ولم ينفذ معينها لنقول انها تفتقر الى احياء ، ولم تذبل جذورها الاصيلة لنطالب باستبدالها بغيرها . لئن كانت اوراقها قد جفت وذبلت فان جذورها ما زالت حية يتوافر لها من اسباب القوة ما يضمن اخضرار الاوراق من جديد لتعود كما كانت بل اكثر مما كانت عليه فى الماضي . وحسبي ان اشير الى مثال واحد فى هذا الصدد للتدليل على

حيوية الحضارة العربية واستمرارها • فالجزائر البلد العربي الاصيل تعرضت فيه الحضارة العربية لاعنف وابشع ما يمكن ان تتعرض له حضارة فى التاريخ من محاولة لاقتلاع جذورها على ايدى الاستعمار الفرنسي • ولكن ماذا حدث بعد تلك الجهود الطويلة المضنية التي بذلتها فرنسا من اجل فرنسة الجزائر ومحو مقوماتها العربية واستئصال شافة لغتها وعقيدتها ؟ •

قامت الجزائر عربية مرة اخرى مثلما كانت قبل الاستعمار الفرنسى ، تفخر بحضارتها العربية ، واسرعت قبل غيرها الى تعريب جامعاتها ومعاهدها التى فرنسها الاستعمار • بل لا نبالغ ولا نجامل اذا قلنا ان الجزائر اليوم غدت زاوية اساسية من زوايا القومية العربية وركنا بارزا من اركان الحضارة العربية وجبهة شريفة من اشرف جبهات النضال العربى • فهل هناك صورة ابرز من هذه الصورة للتدليل على حيوية الحضارة العربية وقدرتها على الاستمرار والبقاء والصمود فى وجه القوى المعادية •

وما يقال عن الجزائر يقال اليوم عن فلسطين الحبيبة وارضها العربية الطيبة التي شهدت صفحة من اروع صفحات الحضارة العربية واكثرها ازدهار والتى تتعرض اليوم لابشع جريمة عرفها تاريخ البشر فى محاولة اثمة لطمس معالمها العربية ، ولكنها تقف بسواعد ابنائها العرب ــ مسلمين ومسيحيين ــ صامدة مرفوعة الرأس لتضرب اروع مثل على حيوية شعب وحيوية حضارة •

وبعد ذلك تأتي صبغة ثالثة للحضارة العربية تبدو فى اتساع افقها وانفتاحها على العالم اجمع وعلى الحضارات كلها • فالحضارة العربية منذ مولدها حتى اليوم لم تكن ابدا منغلقة على نفسها ، وانما هي قابلة للاخذ والعطاء • وحسب الحضارة العربية انها عند قيامها افادت من الحضارات القديمة السابقة لها زمنيا مثل حضارات اليونان والرومان والفرس بل

الهنود والصينيين • وهي في ذلك حرصت كـل الحرص على ان تحسن الاختيار والانتقاء ، كما اظهرت قدرة على تكييف الالهام الدخيل وفـق حاجاتها ، وفي خلقها اياه خلقا جديدا يسبغ عليها طابعها الخاص • وبعبارة اخرى فان الحضارة العربية لم تلتقط كل ما صادفته من عناصرالحضارات الاخرى ، وانما عرفت كيف تتخير غذاءها ، فتقبلت كل ما من شأنه ان يساعدها على الاحتفاظ بجوهرها ومثلها وقيمها وطابعها ، ونبذت كل ما لا يقبل التكيف وكل ما لا يتفق مع اصولها ومبادئها • ولا يقلل من شأن الحضارة العربية مطلقا انها افادت من غيرهـا ، لان سنة التطور البشرى والرقي الحضارى تتطلب دائما ان يستفيد الخلف من جهود السلف • ولو كان لزاما على كـل جيل او على كـل حضارة ان تبدأ بوضع اساس البناء الحضارى من جديد لوجدنا البشر اليوم في مستوى اقـرب الى العصر الحجرى القديم ، ولكننا توصلنا الى القداحة اليوم بعد ان بدأ الانسان الاول بحك قطعتين من الحجر بعضهما ببعض لتوليد شرارة يشعل منها النار ،وما زالت جهود الاجيال تتعاقب حتى توصل الانسان الى عود الثقاب فالقداحة ويكفي الحضارة العربية فخرا انها لم تقف عند حد الاخذ عن الغيروالنقل عن السابقين وانما ابتكرت واضافت وجددت ، ثم اعطـت الحضارات الاخرى اللاحقة اضعاف ما اخذته عن الحضارات السابقة •

اما الصفة الرابعة للحضارة العربية فهي التسامح المطلق •الحضارة العربية حضارة محبة وأخاء • محبة بين مختلف الاجناس واخاء بين مختلف الاديان السماوية • لا تعصب اعمى ولا كراهية ممجوجة ، ففي ظل المحبة والاخاء يكون التعاون محكما والتقدم ممكنا • الا يكفي ان يكون بناة الحضارة العربية واعلامها من العرب والفرس والترك والبربر وغيرهم من ابناء الشعوب والجنسيات التي انصهرت داخل بوتقة العروبة وفكـرت بعقليتها وانتجت بوحي من مثلها وفي ظل قيمها وما وفرته لهم جمعيا مـن حياة آمنة مطمئنة • الا يكفي الحضارة العربية ان يكون يكون مـن بين

اعلامها وبناتها جابر بن حيان والحسن بن الهيثم وابن رشد والطبري والبيروني والخوارزمي والفارابي وابن سينا والبتاني وابن خلدون ؟ الكل سواء مع اختلاف الدماء التي تجرى فى عروقهم والكل يسيرون فى موكب واحد هو موكب العروبة • ومن ناحية اخرى الا يكفي الحضارة العربية ان تحتضن بين ذراعيهاوداخل صدرها المسلم والمسيحي واليهودى بل ربما الصابئي ؟ يكفي ان نعلم انه من بين اعلام الحضارة العربية كان ثابت بن قرة وسنان بن ثابت ، وحنين بن اسحق وجورجيوس بن بختيشوع ويوحنا بن ماسويه وموسى بن العازار واسحاق بن موسى وابن العبدى • بل يكفى الحضارة العربية فخرا ودليلا على تسامحها ان الفيلسوف اليهودى الشهير ابن ميمون الذى يفخر به الفكر الاسرائيلي تلقى تعليمه على ايدى اساتذة ومشايخ من العرب المسلمين ، في جامع قرطبة الكبير ، حيث سمح للجميع على اختلاف اديانهم ومللهم ونحلهم بالدخول وتلقى العلم دون تفرقة او تمييز • وهكذا ضربت الحضارة العربية اروع مثل فى التسامح والاخاء والمحبة •

واخيرا فان الحضارة العربية تتصف بانها حضارة ايمان • ففي ظل الايمان نشأت ، وبين ربوعه ازدهرت وترعرعت ، وبفضله وهديه اكتسبت اسمى قيمها ومبادئها ومثلها • فمن الايمان كان التسامح والمحبة ، ومن الايمان نبعت مكارم الاخلاق •

والحضارة العربية عندما اتصفت بالايمان واتخذت منه دعامة لها لم تهمل المادة بل اعطتها حقها من التقارير لما لها من اهمية في بناء العمران وسعادة البشر • ومن ناحية اخرى فان الحضارة العربية عندما اتخذت من الايمان ركيزة لها استهدفت فى المقام الاول أن تحمى كيانها بسياج منيع من المبادىء الخلقية والمثل الكريمة لان الاديان السماوية كلها تتفق فى رسالة واحدة هى الامر بالمعروف والنهي عن المنكر • والايمان لا يتعارض مع العلم مطلقا بل على العكس الايمان هو الذى يتوج العلم

بهالة من الخير والبركــة تجعــل منه علما نافعا . فلا خير في علــم دون اخلاق ، ومكارم الاخلاق هى جوهر الاديان السماوية ومحور رسالتها . وحسبنا دليلا على الترابط بين الايمان والعلم ما جاء في الحديث الشريف « العلم علمان علم الاديان وعلم الابدان » وهكذا غدا علم الطب ــ او علم الابدان ــ صنوا للايمان وعلم الاديان . واذا كانت بعض المذاهب الحديثة تدعى بانه فى التمسك بالايمان بعدا عن الخط الاشتراكى ، فاننا نجد فى مبادىء الاديان السماوية خير اشتراكية تأخذ من الغنى للفقير . ها هو القرآن الكريم يحتم اخذ الزكاة ويفرضها فرضا على القادر فيقول « خذ من اموالهم صدقة تطهرهم وتزكيهم بها » وها هو العهد الجديد يردد فى سفر اعمال الرسل أن « جميع الذين آمنوا كانوا معا ، وكان عندهم كل شيء مشتركا ، والاملاك والمقتنيات كانوا يبيعونها ويقسمونها بين الجميع كما يكون لكل واحد احتياج !! » فهل هناك بعد ذلك اشتراكية اقوى واعمق من اشتراكية الايمان هذه ؟ ! .

واخيرا فاننا عندما نقول ان الحضارة العربية حضارة ايمان لا نعنى بذلك ــ كما يدعى المغرضون ــ ان يتحول المجتمع الى حلقات ذكر ويترك الانتاج والعمل . فالحضارة العربية حضارة ايمان ومثل واخلاق ، وهى حضارة كد وعمل وانتاج « وقل اعملوا فسيرى الله عملكــم ورسولــه والمؤمنون » .

دكتور
سعيد عبد الفتاح عاشور
استاذ كرسي تاريخ العصور الوسطى
كلية الآداب ــ جامعة القاهرة

كربوغا صاحب الموصل ودوره في مقاومة الصليبيين

بقلم : ابراهيم خليل
مدرس مساعد ـ قسم التاريخ
كلية الآداب ـ جامعة الموصل

كربوغا قبل توليه السلطة :

كان موت ملكشاه ، بداية لانحلال دولة السلاجقة وتفككها ، حيث بدأت سلسلة من الصراعات بين العائلة الحاكمة السلجوقية نفسها ، كان ابرزها الصراع الذى نشب بين بركياروق وتركان خاتون زوجة ملكشاه الاخيرة ، والتى كانت انجبت ولدا سنة ١٠٨٧م أسمه محمود . وقد حاولت تركان خاتون ان تكتم نبأ وفاة زوجها حتى تكون انتهت من تدابيراتها الخاصة فى تدعيم موقف ابنها .

لعب قوام الدولة أبو سعيد كربوغا بن عبد الله الجلالي الامير ، دورا مهما في الدعوة لمحمود (١) ويبدوا انه كان يعمل فى خدمة تركان خاتون حيث ارسلته الى اصبهان بخاتم السلطان « فاستنزل مستحفظ القلعة وتسلمها » (٢) . ثم اخذت تتصل بالامراء وتبذل لهم الاموال سرا وتأخذ منهم البيعة لابنها محمود . ومن هؤلاء الامراء اسماعيل بن ياقوتي خال بركياروق . وكان اميرا على اذربيجان فأرسلت اليه تطمعه بالزواج منها وتدعوه لمحاربة بركياروق . وكان كربوغا قد ساهم في تلك المهمة .

توجهت تركان خاتون الى اصبهان حيث حسم الصراع بان يحتفظ ابنها محمود بأصبهان وفارس ، وتكون بقية الدولة السلجوقية من نصيب بركياروق • ولكن الاقدار تدخلت فتوفي محمود سنة ١٠٩٤ وعنئذ سار بركياروق الى أصبهان « فدخلها وتملكها » (٣) •

نشب صراع آخر على العرش • اذ دخل بركياروق فى نزاع مع عمه تتش الذى اخذ يطالب بالسلطنة • وكان ممن ساعده في هذا الصراع قسيم الدولة آقسنقر ، صاحب حلب • وكان آقسنقر يبرر هذه المساعدة بان « أولاد ملكشاه صغار ، وان الملك لا يستقيم لهم لصغرهم وللخلف الواقع بينهم » (٤) • بالاضافة الى عدم استطاعة آقسنقر نفسه الوقوف بوجه تتش ، الذى كان يسيطر على دمشق وما جاورها • وقد أدخل آقسنقر معه فى هذا الحلف كل من بوزان صاحب حران ، وياغى سيان صاحب انطاكية مقنعا اياهم بنفس الحجة وحتى « ينظروا ما يكون من أولاد ملكشاه » على حد قوله • (٥)

استطاع تاج الدين تتش بذلك التحالف من احتلال الرحبة ونصيبين سنة ١٠٩٣م • وتطلع الى الموصل بعد ذلك حيث كان العقيليون يحكموها، وقد طلب من ابراهيم بن قريش العقيلي أن يعترف به سلطانا وان يسهل له المرور عبر الموصل نحو بغداد لاسقاط بركياروق • ولكن ابراهيم رفض مطلب تتش • والتقى الجيشان عند « المضيع » وهي قرية قرب الموصل • وكان ابراهيم فى ثلاثين ألفا وتتش فى عشر آلاف • وقد انتهت المعركة بانتصار تتش وهزيمة ابراهيم وحلفائه من الشيوخ العرب فقبض عليهم جميعا • ويذكر ابن الاثير كيف ان كثيرا من نساء العرب قتلن انفسهن خوفا من السبي والفضيحة • (٦)

دخلت الموصل فى حوزة تتش ، فعين عليها علي بن شرف الدولة نائبا عنه ، ثم اتجه بعد ذلك نحو ميافارقين وديار بكر واذربيجان حيث

احتلها . أما بركيا روق فقد احتل الري وهمذان وما بينها ، والتقى الطرفان، وهنا انحاز قسيم الدولة آقسنقر صاحب حلب الى بركياروق مذكرا بوزان صاحب حران « بانا اطعنا هذا لننظر ما يكون من اولاد صاحبنا ، والآن وقد ظهر بركياروق والرأى والمرؤة تقتضي بأن نقصده ونكون معه » .(٧) ويورد ابن العديم (٨) في « زبدة الحلب » سببا آخر لانحياز آقسنقر وهو أن تتش أخذ يقرب ياغي سيان اليه ، ولم يول آقسنقر وبوزان شيئا من البلاد التى فتحها . ثم وجد تتش نفسه وحيدا فآثر الانسحاب وهو في أشد الغيظ من تصرفات حليفة السابق وقرر ان ينتقم منه .

قدم بركياروق الى بغداد ، وأرسل الى الخليفة المقتدى بالله يطلب الخطبة ، فأجيب طلبه ، ولقب بـ « ركن الدين » (٩) .

أما تتش فقد عاد الى الشام ، وبدأ يتحرش بحلب في صيف ١٠٩٤م . وفي مواجهة ذلك تحالف آقسنقر مع بوزان وارسل لهم السلطان بركياروق الامير كربوغا،الذى كان قد مال الى جانبه ايضا بجيش كبير،وقد التقى الطرفان عند نهر سبعين ، واشتد القتال ودارت الدائرة على آقسنقر وحلفائه واحضر عند تتش أسيرا « فقال له : لو ظفرت بى ماكنت صنعت . قال : كنت اقتلك . فقال له (تتش) أنا أحكم عليك بما تحكم على » .

اتجه تتش بعد ذلك الى حلب ، حيث اعتصم بقلعتها كل من قوام الدولة كربوغا وبوزان منتظرين النجدة من بركياروق « وتحير أهل حلب فيما يفعلونه » (١٠) . فأخذ بعضهم زمام المبادرة ففتحوا الابواب ودخل تتش وسلمت المدينة اليه وقبض على بوزان فقتله . ثم أخذ كربوغا حيث اعتقله بحمص . (١١)

ويعلل ابن الاثير عدم قتل تتش لكربوغا فى انه أبقى عليه طمعا فى استصلاح حمية الامير « أنر » .. زيادة على ذلك انه لم يكن له بلد يملكه اذا قتله ، كما فعل بالامير بوزان . (١٢) .

استولى تتش بعد ذلك على الرها وحران وسار الى ديار بكر قاصدا فارس لملاقاة بركياروق • وقد دارت رحى معركة قتل اثنائها تتش بعد خيانة بعض اعوانه المقربين اليه « فقطع رأسه وطيف به في المعسكر ثم حمل الى بغداد وطيف به فيها » (١٣) •

اكتفى بركياروق بذلك الانتصار ، ولم يحاول ضم الشام الى فارس وبغداد • فتوزعت املاك تتش بين ولديه رضوان ودقاق فسيطر الاول على حلب وأخذ الثاني دمشق • ثم جرت اتصالات بين بركياروق ورضوان حول مصير كربوغا فوافق رضوان على اطلاق سرحة (١٤) •

توجه كربوغا ، بعد اطلاق سراحه ، مع أخيه التوتاش وجميعا حولهما عددا من « العساكر البطالين » (١٥) احتلوا بهما حران ونصيبين واتصل بها هناك محمد بن شرف الدولة مسلم بن قريش ، وثروان بن وهيب وأبو الهيجاء الكردي لطلب مساعدتها ضد الامير علي بن شرف الدولة صاحب الموصل •

وافق كربوغا على تقديم المساعدة، فالتقى بمحمد بن شرف الدولة واتجها سوية نحو الموصل، لكنه لم يتمكن من فتحها فتركها الى « بلد » وفي الطريق قتل محمد بن شرف الدولة • فعاد كربوغا الى حصار الموصل ونزل بقرية « باحافلا » • وحاول على بن شرف الدولة الاتصال بجكرمش صاحب جزيرة ابن عمر ولكن التوتناش علم بذلك فقاتله وانسحب جكرمش ثم عاد الى بلاده • وقد عاد التوتناش ليشترك مع اخيه كربوغا في حصار الموصل •

واجه اهالي الموصل الحصار الاقتصادي الذي ضربه كربوغا حولها على الرغم من انعدام الاقوات والمؤونة بها بحيث أنه لم يعد هناك « ما يوقدونه فأوقدوا القير وحب القطن » (١٦) فاضطرت الى الاستسلام بعد تسعة اشهر • وقد نجح كربوغا في حكم المدينة « واحسن السيرة فيها » (١٧) الى درجة انه قتل اخاه التوتناش لانه « قبض على اعيان البلد وطالبهم بودائعهم » • (١٨) واستمر كربوغا في حكم الموصل حتى وفاته سنة ١١٠١م

٢ — احتلال انطاكية من قبل الصليبيين :

فى الوقت الذى كان فيه بلدوين يوعاد نفوذه في الرها وما جاورها من المناطق ويؤسس أول امارة صليبية فى الشام كانت اكثرية الجيش الصليبي التي انفصلت عن الحملة الكبرى قد اتجهت نحو شمال الشـــام قاصدة انطاكية • وقد وحد الصليبيون ، وهم في طريقهم نحو انطاكية مساعدة قوية من جانب سكان تلك المناطق وبخاصة الارمن (١٩) وقد تألف هذا الفريق من بوهيموند النورماندى • وروبرت ، وأتين دى بلوا وريموند واديمار وجونموى • وكان يمثل الامبراطور البيزنطي فى الحملة القائد « تاتيكيوس » على أساس ان هناك اتفاقية بين الصليبيين والبيزنطيين أقسموا فيها للامبراطور بأن يسلموا اليه انطاكية • (٢٠)

احدثت انباء تقدم الصليبيين قلقا كبيرا بين اهالى الشام • وبدأ الصليبيون زحفهم على انطاكية فوصلوا مدينة « مرعش » فخف سكانها لاستقبالهم فرحين غاية الفرح وحملوا اليهم ذخيرة وفيرة ، وكان ذلك فى كانون الاول ١٠٩٧ م • ثم دخلوا مدينة المعرة (٢١) الجديدة واستولوا على قلعة ارتاح (٢٢) وتجمعوا عند نهر الاورنت (العاصى) (٢٣) عند الجسر الجديد ، (٢٤) وبعد قتال شديد مع بعض الاهالي شقوا طريقهم عبر النهر منتصرين • وبفضل هذا الانتصار « غنموا غنيمة هائلة من قافلة كانت تحمل المؤونة الى باغى سيان (٢٥) وهكذا اضحى الطريق امامهم مفتوحا الى انطاكية (٢٦) •

كانت انطاكية من اقوى المدن المحصنة فى ذلك الوقت ، (٢٧) ومن الصعوبة جدا اقتحام اسوارها وقلاعها • ويظهر ان الصليبيين قدروا أهميتها من الوجهتين العسكرية والتجارية ، وساعدتهم على ذلك الظروف السياسية التى كانت تسود الشام حينذاك ، ففى الوقت الذى كان الصليبيون يشقون طريقهم عن الاراضي الاسلامية كانت الحروب الاهلية بين ولدى تتش : رضوان صاحب حلب ودقاق صاحب دمشق قد دخلت مرحلة حاسمة •

ولعب ياغي سيان صاحب انطاكية دورا في هذا الصراع ، فهو تارة مع رضوان واخرى مع دقاق ، الامر الذى كان له اثر سلمى على الوضع العام الاسلامى ، وعلى وضع ياغى سيان نفسه الذى حرم من الحصول على أقرب القوى الاسلامية اليه ، وهى حلب التي لم تكن تبعد عنه اكثر من (٦٠) ميلا • (٢٨) •

اما موقف سكان انطاكية ، فلدينا روايتين احداهما اسلامية والاخرى لاتينية ، حيث تذكر الرواية الاولى بأن ياغي سيان « خاف من النصارى » • (٢٩) الذين في داخل انطاكية فأخرجهم بحجة حفر الخندق ، وكان اخرج المسلمين من قبلهم ، فلما أرادوا الدخول منعهم ، ولكنه وعدهم بأن ينتظروا حتى يحسم الصراع بين الطرفين • وأمنهم على نساءهم واطفالهم • أما الرواية الثانية فتذكر بأن « الارمن والسريان الذين كانوا داخل المدينة قد دأبوا على مغادرتها كل يوم متظاهرين بالفرار » • وكانوا موجودين بيننا (اى بين الصليبيين) كل يوم بينما بقيت نساءهم فى المدينة (٣٠) ويضيف المصدر اللاتيني الى قوله هذا بأنهم كانوا ينقلون الاخبار بين الصليبيين وقوات المدينة ، حتى ان المحاصرين اخذوا يخرجون من المدينة جماعة جماعة دون أن يعترض الصليبيون طريقهم •

يبدو من هاتين الروايتين ان ياغي سيان اتخذ بعض الاجراءات التي تحتمها ظروف المعركة ، وحتى لا يتحول اولئك الى « رتل خامس » علما بأنه قد قام ببعض الاستحكامات واحتاط للامر وظهر من شجاعته وجودة رأيه ما لم يشاهد من غيره ، كما يقول ذلك ابن الاثير • هذا ولا يعدم ان يكون قد بالغ هو أو بعض جنده في القيام باجراءات أمن مشددة اتسمت احيانا بالتعسف لا سيما اذا أخذنا برواية المؤرخ المجهول بأنهم كانوا يتقصون الاخبار من الجانبين الامر الذى يجعل من المنطق اخراجهم من المدينة مهيئا نفسه لحصار قد يطول ، وقد طال فعلا •

بدأ الصليبيون فى الاغارة على بعض القرى القريبة لنهبها والحصول على المؤن ، واضطروا لذلك ان يترك بعضهم مواقعه ، فترامى الخبر الى ياغى سبيان فخرج يغير على الصليبيين بنفسه ، « ولا يكاد يخرج ويعود الا ظافرا » • (٣١) وقد فطن الصليبيون الى ذلك وأنبهم بوهيمند على ترك مواقعهم • (٣٢)

أخذت حالة الصليبيين تسوء • لا سيما وان الارمن والسريان قد أخذوا يشترون الحنطة والاطعمة من القرى المجاورة ويبيعونها للصليبيين بأثمان فاحشة (٣٣) وفى هذا الوضع السيء ، حيث الفقر والبؤس والجوع ، بدأ بوهيموند يلعب لعبته ، ويعمل لنفسه ، فيكون بذلك قد ارغم باقى الزعماء الصليبيين على التنازل له عن انطاكية بعد فتحها من جهة ، والتخلص من ممثل الامبراطور البيزنطى القائد تاتيكيوس والذى ينتظر بدوره ايضا توزيع الغنائم من جهةاخرى • لا سيما وان بطرس الناسك قد تسلل المعسكر ليلا ولكن قبض عليه وأعيد (٣٤) اما الجنرال البيزنطي تاتيكيوس فقد ترك المعسكر ايضا في شباط ١٠٩٨ لكي يثير البيزنطين لارسال امدادات اكثر للصليبيين (٣٥) وقدكان رحيل تاتيكيوس بتأثير من بوهيموند الذى ارتاح بعد رحيله وصفا له الجو • وقد أورد المؤرخ المجهول بأن تاتيكيوس قد سمع بنبأ زحف جيش تركي كبير فأستبد به الفزع الشديد فراح ينتحل شتى المبررات (٣٦) ويظهر ان بوهيموند قد استفز القائد البيزنطى واعلمه بأن الصليبيين يتهمونه بالخيانة وبانه يتفاوض سرا مع الاتراك ، وعندئذ فكر تاتيكيوس بالانسحاب • (٣٧)

التفت بوهيموند بعد ان تخلص من تاتيكوس لتنفيذ القسم الاخرمن خطته وهى التأثير على بقية الزعماء الصليبيين وكان قد اتفق مع رجل ارمنى الاصل اسمه فيروز يعرف بالزراد من أهل انطاكية وغلمان له برج كانوا يتولون حفظه (٣٩) على أن يفتح له باب البرج الذى فيه بعد أن بذل له بوهيموند « مالا واقطاعا » (٤٠) ويذكر ابن العديم سببا لخيانة فيروز

فيقول « ان ياغي سيان كان قد صادر هذا الزراد وأخذ ماله وغلته فحمله هذا على ان كاتب بوهيموند (٤١) ولما تأكد بوهيموند من دخوله المدينة عقد اجتماعا لكبار القادةوبين لهم الصعوبات التي تعترض الصليبيين والحالة السيئة التى وصلوا اليها « من عدم القوت ومن حور الشتاء ومن طول مدة الحصار » (٤٢) وطلب منهم أن ينفرد أحدهم باالقيادة فان تمكن من الاستيلاء على المدينة أو شن الهجوم عليها بمفرده أو بمساعدة الاخرين اصحب المدينة له • (٤٣) ولكنهم اختلفوا وكل طلبها لنفسه • فقال : « الصواب ان يحاصرها كل رجل منا جمعة فمن فتحت في جمعته فهى له فوافقوا على ذلك » (٤٤) ويبدو من هذه الروايات بأن بوهيموند كتم سر اتفاقه مع فيروز الزراد ، لاكمايورد (الدويهى) بأن بوهيموند أطلع قواد جيوش الصليبيين على السر الذى كان بينه وبين صاحب البرج فأقبل عليهم لهرب حزيل • (٤٥)

تجمع الصليبيون بعد ساعات من المؤتمر المذكور فى السهل ، واقام جماعة منهم على الجبل ، وما أن انبلج الفجر حتى اقتربوا من الابراج « فدلى الزراد حبلا فطلعوا من السور وتكاثروا ورفع بعضهم بعضا » (٤٦) وهجم قسم منهم على الحراس فقتلوهم وتسلم بوهيموند البرج ، وعندما تكامل عددهم وأصبح يزيدعلى خمسمائة ضربوا البوق عندالسحر فاستيقظ ياغى سيان وسأل عن مصدر البوق فقيل له انه القلعة ففتح الباب «وهرب ياغى سيان فى نفر يسير وترك بها اهله وماله » (٤٧) حيث سقط عن فرسه بالقرب من ارمناز ومعه خادم من غلمانه فحمله الخادم واركبه ولكنه عاد فسقط ثانية وادركه الارمن وقتلوه وحملوا رأسه الى الصليبيين • أما انطاكية فقتل منها وأسر وسبى من الرجال والنساء والاطفال ما لا يدركه حصر وهرب الى القلعة ثلاث الاف تحصنوا بها (٤٩) « كما نهبت الاموال والالات والسلاح » (٥٠) وقد أحدث استيلاء الصليبيين على انطاكية هلعا بين سكان المناطق المحاورة « فوصل الخبر الى عم (٥١) وأنب (٥٢) فهرب من كان بها من المسلمين وتسلمها الارمن » • (٥٣)

هذا وقد استغرق حصار انطاكية حوالي ثمانية أشهر من وصول الصليبيين اليها وحتى ٣ حزيران ١٠٩٨ أى قبل أربعة ايام من وصول كربوغا صاحب الموصل بجيش كبير لنجدتها • (٥٤)

٣ ـ التحالف الاسلامي :

ترجع المحاولات الاولى للتحالف الاسلامي الى كانون الثاني سنة ١٠٩٧ أى بعد ان وصل الصليبيون انطاكية بشهر وتسعة أيام • فقد تجمعت عند شيزر(٥٥) حمله اسلامية لنجدة انطاكية على رأسها دقاق صاحب دمشق ، وجناح الدين حسين بن ملاعب أمير حمص • وقد اصطدم هذا التحالف بقوات صليبية بقيادة بوهيموند كانت تتقدم نحو نهر العاصي فقرروا اعتراضها فى موقع يعرف باسم البارة (٥٦)وانتهت المعركة بانزال خسائر فادحة بالقوات المتحالفة فعاد المسلمين الى حماه • (٥٧)

كما جرت محاولة اخرى حيث وجد رضوان صاحب حلب انه لايستطيع ان يغمض عينيه عن هذه الحوادث • وانه لابد من يهرع لنجدة ياغى سيان لاسيما وأن الاخير قد ارسل ولده شمس الدين برسالة يعتذر فيها عما بدر منه ويطلب النجدة • وبالفعل تحرك رضوان فى شباط ١٠٩٨ وانضم اليه سقمان بن أرتق صاحب ديار بكر وأرسلان تاش صاحب سنجار وتقدموا نحو انطاكية ، ولكن الارمن نقلوا تحركات الجيش الاسلامي الى الصليبيين فاستنجد هؤلاء وعسكروا بين نهر العاصي وبحيرة العمق(٥٨) فدارت معركة بين الطرفين استبسل فيها سقمان بن أرتق وكانت نتيجتها ان تخاذل المسلمون وتفرقوا • (٥٩)

أما الصليبيون فقد استولوا على حصن حارم (٦٠)بد أن انسحب منها المسلمون الى حلب • وبسقوط حارم بايدى الصليبيين اصبحت جبهة انطاكية من جهة حلب آمنة •

وكما فشل دقاق صاحب دمشق فى نجدة ياغي سيان فشل رضوان صاحب حلب ايضا ،فكان لابد لياغي سيان من أن يمد بصره الى القوى

المحيطة به لعله يظفر بتحالف اكثر قيمة واهمية • ولكن أين يتوجه ؟ •كان من الطبيعي ان لايتصل بمصر في هذه الفترة لاسيما وان الوزير الافضل ابن بدر الجمالى كان بعيدا عن ادراك قيمة التحالف الاسلامى والخطر الذى يتهدد الامة الاسلامية • ففي الوقت الذى كان السلاجقة فى خضم الصراع مع الصليبيين عمل هذا على استغلال ذلك ، وانشغال السلاجقة فأرسل جيوشه الى ناحية الشام ونزل في بيت المقدس مطالبا الامير سقمان والامير ايل غازى ابنا أرتق يلتمس فيهما تسليم بيت المقدس اليه من غير سفك دم ولما (٦١) رفضا طلبه استعد للقتال ونصب المجانيق وهاجم بيت المقدس وتسلمها من سقمان •

لم يكتف ابن بدر الجمالى بذلك بل ارسل وفدا مصريا الى معسكر الصليبيين أمام انطاكية في شباط ١٠٩٨• وبالفعل دخلت الفاطمية في مفاوضات مع الصليبيين في الوقت الذى كان السلاجقة يشددون الضغط عليهم•(٦٢) والظاهر أن الصليبيين قد تحسسوا بذلك الانقسام « فكتبوا الى صاحب حلب ودمشق باننا (اى الصليبيين) لانقصد غير البلاد التي كانت للروم ، لانطلب سواها » (٦٣) حتى لايساعدوا صاحب انطاكية • وهنا ادرك ياغي سيان خطورة الموقف فوجه نداءا الى بركياروق وتابعه قوام الدين ابو سعيد كربوغا الذى يدرك ببصيرته وحكمته ما يهدد العالم الاسلامى من مخاطر ثم انه كان من ابرز امراء اعالي الجزيزة ، وفوق ذلك ان هذه النجدة قد تتيح له تحقيق طموحه بضم حلب اليه والتى كان يتطلع اليها منذ زمن بعيد • واذا ما استولى كربوغا على انطاكية فسوف يكون من السهل عليه ضم حلب •(٦٤)

تهيأ كربوغا للسير فى سنة ١٠٩٨ حين ارسله بركياروق على رأس جيش كبير • (٦٥) ولكنه لم يلبث ان توقف فى الطريق حيث حاصر الرها لمدة ثلاثة أسابيع ، فاعطى بذلك فرصة كبيرة للصليبيين جدوا فيها لفتح انطاكية وقد تم لهم ذلك • ولو أن كربوغا انفذ الى انطاكية مباشرة لاسلمه ياغى سيان مدينة انطاكية وتغيرت ظروف المحاصرين • (٦٦)

سمع كربوغا بسقوط انطاكية ، وهو يهم بعبور الفرات • واقام فى مرج دابق حيث اجتمع بدقاق بن تتش صاحب دمشق وطغتكين التركمانى اتابك دمشق وجناح الدولة حسين بن ملاعب صاحب حمص وارسلان تاش صاحب سنجار وسقمان بن أرتق وغيرهم من الامراء من ليس مثلهم « على حد قول ابن الاثير • » (٦٧)

تحرك الجيش الكبير نحو انطاكية عن طريق نهر العاصى وكان يعلم بان قلعتها لازالت بيد المسلمين ، واقترب من انطاكية وشدد الحصار عليها ومنع عنها الطريق برا وبحرا • (٦٨) وقد تغير موقف الصليبيين ،فبعد ايام من دخول المدينة وجدوا انفسهم محاصرين من قبل قوات كربوغا (٦٩) التي عسكرت فى السهل الممتد جنوبى انطاكية عند باب البحر • (٧٠) وبعد مناقشة بين كربوغا وشمس الدين بن ياغى سيان حول تسليم القلعة أرسل كربوغا قائدا من قواده هو احمد بن مروان لتسلم القلعة •

أما الصليبيون فقد تعرضوا داخل انطاكية لازمة قاسية ، اذا اخذ اليأس يدب الى نفوسهم ، بسبب قلة الغذاء « فليس لهم ما يأكلونه •• وتقوت الاقوياء بدوابهم ، والضعفاء بالميتة وورق الشجر » • (٧١) واصبح من المحتمل جدا ان يعم الوباء المدينة • أضف الى ذلك ، ان السكان المسيحيين انفسهم فقدوا الثقة بقدرة الصليبيين على تحصين المدينة والاحتفاظ بها ، خاصة وان قلعة المدينة كانت لا تزال بيد المسلمين • (٧٢) ولم يكن ثمة أمل سوى وصول الامبراطور البيزنطي الكسيوس كوفين ، حيث كانوا قد أرسلوا اليه نداء لنجدتهم ، فخرج الامبراطور المذكور على رأس جيش قاصدا انطاكية عبر اسيا الصغرى ، ولكن الامور لم تكن تجرى لصالح الصليبيين ـ على ما يبدو ـ فقد التقى الامبراطور بـ « اتين دى بلوا » وجماعته فاخبروه بان انطاكية قد استردت من قبل المسلمين وان جيشا اسلاميا كبيرا في طريقة للقضاء على قوات الامبراطور البيزنطي قبل وصولها • ومع انه ـ اى الامبراطور ـ تلقى الخبر بحذر ويأس ، وقرر

الانسحاب على اعتبار انه كانت انطاكية قد سقطت فمن الحماقة التقدم اكثر فى ارض الاعداء ، وانه من الخير له ولامبراطوريته ان ينسحب تجنبا للمخاطر ، فقد بدأ باستشارة كبار قادة جيشه ، فنصحوه بالتراجع ايضا • ومع ان انسحاب الكسيوس كومنين ، كان من الوجهة الستراتيجية ، اجراءا حكيمـا ، الا انه كان مـن الناحية السـياسية خطأ فظيعا فت عضد الصليبيين ، الذين وضعوا اللوم على « دي بلوا » باعتباره يتحمل مسؤولية كبيرة ازاء اخوانه المحاصرين الذين ضعفت معنوياتهم ، (٧٣) وبلغوا درجة من اليـأس ، اضـطرتهم الى ارسـال وفـد الى كربوغا « يطلبون منه الامان ليخرجوا » (٧٤) وكان الوفد المذكور يضم رجلين هما بطرس الناسك وآخر اسمه هيرليون ، وهو شخص فرنسي يحسن العربيـة والفارسية • ولكن الوفد المذكور عاد خالي الوفاض بعد ان رفض كربوغا طلبهم (٧٥) وقال لهم « لاتخرجون الا بالسيف » • (٧٦)

ازدادت حالة الصليبيين سوءا • وخارت قواهم ، وضعفت معنوياتهم وسيطرت عليهم حالة من اليأس والكآبة ، ولعل هذه الحالة النفسية هي وراء اختلاق بوهيموند « قصة الحربة المقدسة » • وتفصيل ذلك أن رجلا اسمه بطرس بورثلميو ادعى انه شاهد في الحلم مكان الحربة التي طعن بها السيد المسيح فى الكاتدرائية ، (٧٧) ولا شك فى ان مثل هـذه الاسطورة وغيرها من التى انتشرت بين الصليبيين كان لها اثر كبير فى رفع معنوياتهم والتفافهم حول زعاماتهم • كما جاءت عاملا حاسما فى القضاء على روح اليأس الذى وجد طريقه اليهم • وبالتالى كانت سببا فى احرازهم النصر • (٧٨) وكان لبوهيموند دور كبير في نشر خبر الحربة المقدسة ، وعلى الرغم من ان « ادهمار » المندوب البابوى وبعض الامراء شككوا بالقصة المذكورة الا انهم سرعان ما اكتشفوا الحربة المقدسة (٧٩) فارتفعت معنوياتهم ودفعوا فى صفوف متراصة وتقدمهم « هيم دى فرماندو » و « روبرت النورماندى » و « كودفرى » ورجال بروفانس يتقدمهم ادهمار حاملا الحربة • ثم تنكرد وبوهيموند • اما ريموند فقد ظل فى الداخل ليراقب الحصن • (٨٠)

بدأ الصليبيون بالخروج وكربوغا لم يصـدر لقواته امرا بالهجوم عليهم وهنا اشار « وثاب بن محمود » بأن يبادر بالهجوم ، في حين قـال بعض الامراء ينبغي ان تقف على الباب فنقتل كل من يخرج فان امرهـم الان وهم متفرقون سهل • (٨١) ولكن كربوغا امرهم بعدم المبادرة بهجوم وقال لاتفعلوا ، امهلوهم حتى يتكامل خروجهم فنقتلهم » • (٨٢) وقد حاول بعض الجنود قتل جماعة من الخارجين الا ان كربوغا نهرهم •

تكامل خروج الصليبيين ، واحتشدوا فى صف عظيم ، فتردد كربوغا أزاءهم • وقد ذكرت بعض المصادر المسيحية انه بعث اليهم رسولا يعرض عليهم انه على استعداد لبحث شروط الهدنة لكنهم تجاهلوه ، فلجـأ الى الانسحاب الى ارض وعرة بعيدة ، (٨٣) على أمل ان ينقض عليهم هناك ، ولكن الهزيمة سرعان ما لحقت بالجيش الاسلامي وكان آخر من انهزم سقمان بن ارتق وجناح الدولة • (٨٤) وعندما وجد كربوغا ذلك انهزم هو أيضا ، واعتقد الصليبيون ان في الأمر مكيدة ، فلحق به فرسان النورمان الذين انقضوا على الاموال والاقوات والامتعة • (٨٥) وذكر ابن الاثير بان جماعة من المجاهدين ثبتوا وقاتلوا حسبة وطلبا للشهادة » •

لقد ابدى الصليبيون وحشية كبيرة • فقتلوا الآلاف من المسلمين وغنموا ما في المعسكر ، وهكذا لم يستطع كربوغا ــ في الحقيقة ــ لا أن يوجد جيشه ، ولا ان يجنب النساء والاطفال المذبحة ، ولا حتى خيمته من النهب (٨٧) • كانت هزيمة كربوغا فى ٢٨ حزيران سنة ١٠٩٨ • (٨٨) اما قلعة انطاكية فقد استسلمت بعد ان راسل الصليبيون احمد بن مروان وأمنوه ومن كان معه واطلقوا اصحابه ، فخرج الارمن وقتلوا بعضهم واخذوا بعضهم ولم يسلم منهم الا القليل •

٤ ــ نظرة فى اسباب الهزيمة :

لنتساءل عن اسباب هزيمة كربوغا ، التي لم تكن عسكرية وحسب بل تداخلت جملة عوامل كان لها اثر كبير في توجيه الاحداث نحو المصير

الذى آلت اليه • بامكاننا القول أن حملة كربوغا كانت تحمل منذ البدء جذور انهزامها وتقهقرها • ونجمل هذه الاسباب بما يأتي :

اولا ـ عدم زحف كربوغا الى انطاكية مباشرة : اذا أردنا أن نلقي نظرة على جيش كربوغا ، الزاحف نحو انطاكية تبين لنا انه وصل في ٧ حزيران • علما بانه كان قد خرج قبل ذلك بثلاثة اسابيع ، وهي التي قضاها في حصار الرها (٩٠) مما اعطى لاعدائه فرصة الاستعداد والتأهب لملاقاته • ويقول كراى ان بلدوين امير الرها كان له فضل كبير على الصليبيين حيث أعاق كربوغا مدة ثلاثة اسابيع (٩١) ويعلل رونسيمان ستراتيجية كربوغا ان كربوغا كان يقصد حماية جناحه الايمن ، ولكنه ـ اى كربوغا ـ لم يدرك ان بلدوين كان ضعيفا الى الحد الذى لايستطيع فيه القيام بالهجوم (٩٢) • ومهما يكن من أمر فقد اضاع كربوغا هذه الاسابيع سدى •

ثانيا ـ الحوار الذى جرى بين كربوغا وابن ياغي سيان حول القلعة : ان هذا النقاش يدل دلالة واضحة على عدم وجود الثقة بين الاثنين • فقد أصر كربوغا على تسلم القلعة على اساس أن تكون خط دفاع ينسحب اليه المسلمون ، ولكن شمس الدين بن ياغي سيان فضل ان يحتفظ بالقلعة ريثما يتم احراز النصر • ومع ان كربوغا حسم الموقف بأن أرسل من يستولى على القلعة الا ان هذا الجدل كان له أثر كبير في اضعاف معنوية المسلمين من جهة وتضييعهم الوقت من جهة أخرى •

ثالثا ـ ارتفاع معنوية الصليبيين بعد عثورهم على الحربة المقدسة : عندما ساءت حالة الصليبيين داخل انطاكية ، وأفرط الجوع فيهم واضطر بعضهم الى اكل الميتة ، (٩٥) وانهارت قواهم • ادركوا انه لابد من حدوث معجزة • وتحت وطأة هذا الشعور شاعت بعض القصص عن الحربة المقدسة ، وكيف ان الله ادركهم ، ووجه اليهم رجلا قرويا اسمه بورثلميو ، والذى ذهب الى ريموند واخبره بقصة الحربة التى كان المسيح قد طعن بها (٩٦)

وانها مدفونة بكنيسة « القسيان » في الكاتدرائية وانهم ان وجدوها فان النصر سيكون حليفهم والا فانهم مقبلون على الهلاك • وبعد ثلاثة ايام من الصوم اتجهوا الى الموضع المذكور ، وبالفعل وجدوا الحربة فأبشروا بالنصر • ومهما يكن من أمر ، فان هذه القصة كانت عاملا مهما في رفع معنويات الصليبيين فتعلقوا بحدث ألهى ألهب حماسهم ووضعهم تحت حالة من الحماس الجمعي ، جعلهم يتدفقون الى خارج المدينة بكل قوة ونشاط الامر الذى كان له أثر في نصرهم •

رابعا ــ عدم تجانس جيش كربوغا : لقد كان عدم التجانس هذا الصفة التى ميزت جيش كربوغا • فقد تنازعته الخلافات بين الامراء العرب والترك • (٩٨) فأيد حمص على عداء مع امير فيح يوسف بن آبق • كما تفرق كثير من التركمان بتدبير رضوان ، (٩٩) على ما يبدو • وقد احس كربوغا بذلك فعمد الى الاتصال برضوان صاحب حلب • وعندما « ترادفت رسل الملك رضوان في اثناء ذلك الى كربوغا توهم دقاق من ذلك » • وهكذا كان النزاع مخيما على جيش كربوغا • ومع أن هارولدلامب يذكر بان هؤلاء الامراء ، على الرغم من تنازعهم مستقلين لسنوات بعيدة ، الا ان السبب العام الذى جمعهم هو دفاعهم عن الاسلام ، فان روح النهب والسلب والحصول على الغنائم كانت تسيطر على بعض قطاعات جيش كربوغا وبخاصة عرب بنى كلاب • (١٠١) لذلك بقوا يعانون خللا فى صفوفهم كان له اثره فى هزيمتهم • (١٠٢)

خامسا ــ عدم وجود خطة عسكرية واضحة فى ذهن كربوغا : من خلال هذا الاستعراض للاحداث يظهر لنا ان كربوغا كان لا يملك خطة عسكرية يستطيع بموجبها قيادة جيشه • ولعل ابرز ما يوضح ذلك هو عدم رغبته فى توجيه الضربة القاضية للصليبيين وهم يخرجون من انطاكية • (١٠٣) لربما خشى اذا اسرع بضربهم فسوف لا يقضى الا على مقدمتهم • (١٠٤) وهنا ارتكب خطأ عسكريا حيث ان الهجوم فى بعض الحالات افضل وسيلة

للدفاع . وما أن شاهد كربوغا تراص الطليبيين حتى اصيب بالذعر ولجأ الى الارتداد واستدراج العدو الى ارض مكشوفة ، وابلغ احد قواته بأن يعلن الانسحاب حالما يرى النار حيث انها ستكون اشارة الى ان المعركة قد اصبحت ليست من صالحهم . (٢٠٥) ولكن الصليبيين شددوا هجماتهم ، وتم لهم النصر .

سادسا ــ معاملة كربوغا لمعيتته من الامراء : لقد ذكر بعض المؤرخين ان سوء معاملة كربوغا لمن معه من الملوك والامراء كانت سببا من اسباب هزيمته . فقد شعر بنوع من الاستعلاء على هؤلاء « وتكبر عليهم ظنا منه انهم يقيمون معه على هذا الحال » . (١٠٦) « فخبثت نياتهم » . (١٠٧) وقد ساهم ملوك كربوغا هذا وغطرسته فى السير نحو الكارثة . (١٠٨) علما بانه ليس من بين هؤلاء الزعماء من كان يستسيغ ان يكون تحت امرة كربوغا الذى ليس الا اميرا مثلهم . (١٠٩) هذا وقد يكون للجو الذى خيم على المعسكر الاسلامى اثر فى اقدام كربوغا على مثل هاتيك المواقف حيث بلغ النزاع والمنافرة بين الزعماء اشده ، فشعر كربوغا بان جيشه سيتمزق ، فاراد ان يحفظ النظام باستخدام سلطة مستبدة . (١١٠)

٥ ــ خاتمــة :

وبعد ، لا بد أن نقول بان كربوغا قد ادى دوره فى الدفاع عن العالم الاسلامى ،مدركا مايتعرض له هذا العالمحينذاك من اخطار متمثلةبالعدوان الصليبي . وقد فتح الباب بذلك امام عماد الدين زنكي ونور الدين محمود ليكملا المسيرة من بعده . وتتجسد امامنا هذه الحقيقة اذا ما علمنا بان عماد الدين ــ بالذات ــ قد عاش فى كنف كربوغا بعد مقتل والده ، حيث تعهده ، (١١١) .وقد يكون عماد الدين قد تحسس الخطر الصليبى خلال ملازمته لكربوغا .

لقد توجه كربوغا ، بعد الهزيمة ، الى الموصل ، حيث ساهم مرة اخرى فى الصراعات الاسرية التى نشبت بين بركياروق ومحمد . وفي سنة ١١٠٠

آرسله السلطان بركياروق الى اذربيجان فاستولى على معظمها • (١١٢) وعندما وصل الى مدينة خوى (١١٣) سقط مريضا • وبعد ثلاثة عشر يوما توفى فى منتصف ذى العقدة سنة ٤٩٥ هـ (١١٠١م) في بلدة خوى نفسها حيث دفن هناك • (١١٤)

أما الموصل فقد تولاها من بعده موسى التركماني وهو نائب كربوغا فى حصن كيفا الذى كاتبه الموصليون بعد سماعهم بنبأ وفاة الامير قوام الدولة ابو سعيدكربوغا • (١١٥) •

الهوامش

(١) ابن الفوطي ، تلخيص مجمع الآداب في معجم الالقاب ، ج ٤ ، ص ٨١٩
(٢) ابن الاثير : الكامل ، ج ١٠ ، ص ٢١٠
(٣) ابن القلانس ، ذيل تاريخ دمشق ، ص ١٢٧ .
(٤) ابن الاثير ، التاريخ الباهر ، ص ١١ .
(٥) المصدر نفسه ، ص ١١
(٦) ابن الاثير ، الكامل ، ج ١٠ ، ص ٢٢١
(٧) ابن الاثير ، التاريخ الباهر ، ص ١٣ .
(٨) ابن العديم ، زبدة الحلب ، ج ٢ ، ص ١٠٨
(٩) الذهبي ، العبر في خبر من غبر ، ج ٣ ، ص ١٠
(١٠) ابن العديم ، المصدر السابق ، ج ٢ ، ص ١٠٩
(١١) ابو الفداء ، المختصر في اخبار البشر ، ج ١ ، ص ١٢٣
(١٢) ابن الاثير ، الكامل ، ج ١٠ ، ص ٢٥٨
(١٣) ابن القلانس ، المصدر السابق ، ص ١٣٠ .
(١٤) ابن العديم ، المصدر السابق ، ج ٢ ص ١١٨ .
(١٥) ابن الاثير ، الكامل ، ج ١٠ ، ص ٢٥٨ .
(١٦) المصدر نفسه ، ج ١٠ ، ص ٢٥٩ .
(١٧) ابو الفداء ، المصدر السابق ، ج ١ ، ص ١٢٣
(١٨) ابن الاثير ، الكامل ، ج ١٠ ، ص ٢٥٨
(١٩) حسن حبش ، الحرب الصليبية الاولى ، ص ٤٨
(٢٠) ابن الاثير ، الكامل ، ج ١٠ ، ص ٤٩١
(٢١) المعرة : مدينة كبيرة قديمة مشهورة من اعمال حمص بين حلب وحماه .
(٢٢) ارتاح : اسم حصن منيع من اعمال حلب .
(٢٣) ويسمى لذلك نهر حماه . وقد سمي بالعاصي لان غالب الانهر تسقى الارض بغير دواليب ونواعير . ماعدا نهر حماه لايسقى الا بنواعير تنزع

الماء منه . ويسمى ايضا النهر المكوب لحرية من الجنوب الى الشمال واسمه القديم نهر الاورنت (الاورنط) انظر : ابي العباس احمد بن علي القلقشندى ، صبح الاعشى فى صناعة الانشا ، جـ ٤ ، ص ٨٠ .

(٢٤) الجسر الحديد : يقع فى الشمال الشرقي من انطاكية على مسافة نصف يوم سيرا على الاقدام بين حارم وانطاكية .

(٢٥) المؤرخ المجهول ، اعمال الفرنجة وحجاج بيت المقدس ، ترجمة د. حسن حبشي ، عن اللاتينية وسنشير اليه بـ « اعمال الفرنجة فقط » .

(٢٦) رونسيمان ، تاريخ الحروب الصليبية ، جـ ١ ، ص ٣٠٥ .

(٢٧) انطاكية : بناها الملك انطيفونيا على نهر اورنطس وسماها على اسمه انطيوفيا . وقد وصفها المؤرخ المجهول (ص ١٠٣) بانها مدينة رائعة عظيمة . اذ يوجد داخل اسوارها اربعة جبال ضخمة ويقوم على اعظمها ارتفاعا حصن حصين . وعلى السفح تمتد المدينة وهي محاطة بسورين وفيه (٤٥٠) برجا .

(٢٨) Oldenbourg., The Crusades, P. 106.

(٢٩) ابن الاثير ، الكامل ، جـ ١٠ ، ص ٢٧٤

(٣٠) اعمال الفرنجة ، ص ٥٠

(٣١) ابن العديم ، المصدر السابق ، جـ ٢ ، ص ١٣٢

(٣٢) اعمال الفرنجة ، ص ٥٥

(٣٣) المصدر نفسه ، ص ٥٥

(٣٤) Mayer, H. E., The Crusades, P. 71

(٣٥) Ibid., P. 71

(٣٦) اعمال الفرنجة ، ص ٥٦

(٣٧) جوزيف نسيم يوسف ، العرب والروم واللاتين ، ص ٢٠٩

(٣٨) اختلفت المصادر العربية فى رسم اسم فيروز هذا فهو عند ابن الاثير فى الكامل جـ ١٠ ص ٢٧٤ « روزبة » وعند ابن القلانس ص ١٣٦ « فيروز » وعند ابن العديم وعند ابن العديم « فيروز » . ولم يذكر ابن الاثير ولا ابن العديم جنسه وذكر ابن القلانس انـه « ارمنىٌ » اما المؤرخ المجهول فيذكر انه « تركى » وذكر الدويهى فى تاريخ الازمنة ص ٨ « قيل انه كان نصرانيا » .

(٣٩) ابن العديم ، المصدر السابق ، ص ٤٩٨

(٤٠) ابن الاثير ، الكامل ، ص ٢٧٤

(٤١) ابن العديم ، المصدر السابق ، ص ١٣٣

(٤٢) الدويهي ، تاريخ الازمنه ، ص ٨

(٤٣) اعمال الفرنجة ، ص ٦٦

(٤٤) ابن العديم ، المصدر السابق ، جـ ٢ ، ص ١٣٣

(٤٥) الدويهى ، المصدر السابق ، ص ٨

(٤٦) ابن العديم ، المصدر السابق ، جـ ٢ ، ص ١٣٤

(٤٧) ابن كثير ، البداية والنهاية ، جـ ١٢ ، ص ١٥٥ .

(٤٨) ارمناز ، قرية من ناحية انطاكية بالشام . انظر الحموى : معجم البلدان جـ ١ ص ١٥٧ .

(٤٩) ابن القلانسى ، المصدر السابق ، ص ١٣٥

(٥٠) ابن العديم ، المصدر السابق ، ص ١٣٥

(٥١) عم : قرية بين حلب وانطاكية . انظر : الحموى ، المصدر السابق . جـ ١ ص ١٥٧

(٥٢) انب : حصن من اعمال عزاز من نواحي حلب . انظر : الحموى :المصدر السابق ، جـ ١ ، ص ١٤٠

(٥٣) ابن العديم ، المصدر السابق ، ص ١٣٥

(٥٤) Atiya, Crusade, Commorce and Culture, P. 61.

(٥٥) شيزر : قلعة تشتمل على كوره بالشام قرب المعره ، بينها وبين حماه يوم : انظر : الحموى ، المصدر السابق ، جـ ٣ ، ص ٣٨٣ .

(٥٦) البارة ، بليدة وكوره من نواحى حلب وبها حصن . انظر الحموى ، المصدر السابق ، جـ ١ ، ص ٣٢٠ .

(٥٧) رونسيمان ، المصدر السابق ، جـ ١ ، ص ٣١٣ .

(٥٨) بحيرة العمق او بحيرة عذبه المياه بينها وبين انطاكيه ثلاثة اميال فى موقع يقال له « العمق » انظر : الحموى ، المصدر السابق ، جـ ١ ، ص ٣٥١

(٥٩) ابن خلدون : العبر ، جـ ٥ ، ص ٤٦٤

(٦٠) حارم : حصن حصين وكوره تجاه انطاكية : انظر : الحموى ، المصدر السابق حـ ٢ ، ص ٢٠٥

(٦١) ابن القلانس ، المصدر السابق ، ص ١٣٥

(٦٢) Krey, The first Crusade, P. 164.

(٦٣) ابن الاثير ، الكامل ، ص ٢٧٤

(٦٤) رونسيمان : المصدر السابق ، ص ٣٠٥

(٦٥) The Encyclopadia of Islam ,,Art "Kurbouka," P. 1129.

(٦٦) اعمال الفرنجة ، ص ٧١

(٦٧) ابن الاثير ، الكامل ، حـ ١٠ ، ص ٢٧٦

(٦٨) الدويهى ، المصدر السابق ، ص ٨

(٦٩) Brundage, op. cit., p. 57

(٧٠) ابن العديم ، المصدر السابق ، ص ١٣٦

(٧١) ابن الاثير ، الكامل ، ص ٢٧٦

(٧٢) Brundage, op. Cit., P. 57

(٧٣) Sctton, A history of Crusades, P. 320.

(٧٤) ابن الاثير ، الكامل ، حـ ١٠ ، ص ٢٧٧ وكذلك ابـن العبرى ، تاريـخ مختصر الدول ، ص ١٩٦

(٧٥) Stton, or Cit. 320

(٧٦) ابن الاثير ، الكامل ، ص ٢٧٧

(٧٧) Kerr, The Crusades, P. 25.

(٧٨) Krey, op. Cit., p. 163.

(٧٩) Brundage, op. cit., p. 61

(٨٠) Archer, The Crusades, P. 74.

(٨١) ابن الاثير ، الكامل ، حـ ١٠ ، ص ٢٧٧

(٨٢) المصدر نفسه ، حـ ١٠ ، ص ٢٧٧

(٨٣) Archer, op. cit., p.75

(٨٤) ابن الاثير ، الكامل ، حـ ١٠ ، ص ٢٧٧

(٨٥) Camp, The Crusades: Iron men and Saints. P. 167.

(٨٦) ابن الاثير ، الكامل ، حـ ١٠ ، ص ٢٧٧

(٨٧) Mills, The history of the Cruasde for the recovery and possession of the Holy P. 213

(٨٨) ويذكر الدويهى فى تاريخ الازمنة ان الهزيمة وقعت فى ١٨ حزيران سنة ١٠٩٨

(٨٩) ابن العديم ، المصدر السابق ، حـ ٢ ، ص ١٣٦ .

(٩٠) الرها : مدينة بالجزيرة بين الموصل والشام .

(٩١) Krey, op. Cit., P. 103.

(٩٢) رونسيمان ، المصدر السابق ، ص ٣٢٨

(٩٣) اعمال الفرنجة ، ص ٧٢

(٩٤) لربما ان احمد بن مروان كان على صلة بالصليبيين ، خاصة وانهم قد اعطوه الامان واستخدموه فيما بعد ، اذ دخل فى خدمتهم .

(٩٥) Mayer, op. cit., P. 55

(٩٦) Brundage, op. Cit., P. 57

(٩٧) ابن العبرى ، المصدر السابق ، ص ١٩٦

(٩٨) Keed, op Cit., P. 25.

(٩٩) ابن العديم ، المصدر السابق ، ص ١٣٦

(١٠٠) Seteon, op. Cit., P. 322.

(١٠١) Comp. op. Cit., P. 163

(١٠٢) سعيد عبد الفتاح عاشور ، الحركة الصليبية ، حـ ١ ، ص ٢٠٩

(١٠٣) اشار بعض الامراء ومنهم وثاب بن محمود على كربوغا بوجوب ضرب الصليبيين اولا فاول فرد عليهم كربوغا بان « امهلوهم حتى يتكامل خروجهم فنقتلهم » انظر : ابن الاثير ، الكامل ، حـ ١ ، ص ٢٧٧ وكذلك ابن العديم ، المصدر السابق ، ص ١٣٦ .

(١٠٤) رونسيمان ، المصدر السابق ، حـ ، ص ٣٥٠

(١٠٥) Archer. op. Cit., p. 75

(١٠٦) ابن الاثير ، الكامل ، حـ ، ص ٢٧٧

(١٠٧) ابو الفداء ، المصدر السابق ، حـ ١ ، ص ١٢٥

(١٠٨) he Encyclopedia of Islam vul, II, P. 29

(١٠٩) Setion, op. Cit., 322,

(١١٠) رونسيمان ، المصدر السابق ، حـ ، ص ٣٥٠ .

(١١١) ابو شامه ، الروضتين فى اخبار الدولتين ، حـ ١ ، ص ٢٧ .

(١١٢) ابن خلدون ، العبر ، حـ ٥ ، ص ٦١

(١١٣) خوى : بلد مشهور من اعمال اذربيجان .

(١١٤) ابن الاثير ، الكامل ، حـ ١٠ ، ص ٣٤١

(١١٥) العمرى ، منهل الأولياءومشرب الاصفياء من سادات الموصل الحدباء، ورقة ٢٩ .

المصـــادر والمراجع

ابن الاثير الجزرى ، ابو الحسن علي بن ابى الكرم الملقب عز الدين (ت ٦٣٠ هـ — ١٢٣٤)

التاريخ الباهر فى الدولة الاتابكية فى الموصل ، تحقيق الدكتور أحمد طليمات ، (القاهرة ، ١٩٦٣)

الكامل فى التاريخ ، حـ ١٠ ، (طبعة بيروت ١٩٦٦) .

ابن خلدون ، عبد الرحمن ، **العبر وديوان المبتدأ والخبر فى اخبار العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوى السلطان الاكبر** ، المجلد الخامس (بيروت لا . ت) .

ابن العبرى ، غريغورس ابو الفرج الملطي (ت ١٢٨٦)

تاريخ مختصر الدول ، (بيروت ، ١٩٥٨)

ابن العديم ، كمال الدين ابو القاسم عمر بن احمد بن هبة الله (ت ٦٦٠ هـ / ١٢٦٢م)

زبدة الحلب فى تاريخ حلب ، تحقيق د . سامى الدهان ، حـ ٢ ، (دمشق ، ١٩٥٤) .

ابن الفوطى (ت ٧٢٣ هـ) ، **تلخيص مجمع الآداب فى معجم الالقاب** ، حـ ٤ ، حققه د . مصطفى جواد ، (دمشق ، ١٩٦٧) .

ابن القلانس (ت ٥٥٥ هـ ، ١١٦٠ م) ابو يعلى حمزة بن اسد بن علي بن محمد : **ذيل تاريخ دمشق** ، (بيروت ، ١٩٠٨)

ابن كثير الفرشي (ت ٧٧٤ هـ / ١٣٧٣ م) عماد الدين ابو الفداء بن كثير : **البداية والنهاية فى التاريخ** ، حـ ١٢ ، (القاهرة ، ١٣٥٨ هـ)

ابو شامه (ت ٦٦٥ هـ / ١٢٦٧) عبد الرحمن بن اسماعيل بن عثمان : **الروضتين فى خبر الدولتين** : حـ ١ ، (القاهرة ، ١٢٨٧ هـ) .

ابو الفداء (ت ٧٣٢ هـ / ١٢٣١ م) عماد الدين ابو الفداء اسماعيل : **المختصر فى اخبار البشر** ، حـ ١ ، (بيروت ، لا . ت) .

الحموى ، ياقــوت (ت ٦٢٦ هـ) ، **معجــم البلدان** ، جـ ١ ، جـ ٢ ، (بيروت ١٩٥٥) .

الديهى (ت ١٧٠٤ م) ، البطريك اسطفانوس الدويهى :
تاريخ الازمنة : نشرته مجلة المشرق ، السنة ٤٤ ، بيروت ١٩٥١ .

الذهبي : (ت ٧٤٨ هـ ـ ١٣٤٧ م) الحافظ الذهبي
العبر فى خبر من غبر ، جـ ٣ ، تحقيق فؤاد سيد ، (الكويت ، ١٩٦١) .

العمرى ، (ت ١٢٣٢ هـ) ياسين بن خير الله الخطيب ،
منهل الاولياء ومشرب الاصفياء فى سادات الموصل الحدباء ، مخطوطة فى المتحف العراقي ببغداد تحت رقم ١٥٦٤ .

القلقشندى (ت ٨٢١ هـ ١٤١٨ م) ، ابي العباس احمد بن علي :
صبح الاعشى فى صناعة الانشا ، جـ ٤ ، (القاهرة ، ١٩٦٣) .

المؤرخ المجهول (كان حيا سنة ١٠٩٥ م)
اعمال الفرنجـة وحجاج بيت القـدس ، ترجمـة د . حسـن حبش ، (القاهرة ، ١٩٥٨) .

رونسيمان ، ستيفى ، **تاريخ الحروب الصليبية** ، ترجمة د . السيد الباز العريني ، جـ ١ ، (بيروت ، ١٩٦٧) .

عاشور ، سعيد عبد الفتاح ، **الحركة الصليبية ، صفحة مشرقة من تاريخ الجهاد العربى فى العصور الوسطى** ، جـ ١ ، (القاهرة ، ١٩٦٣) .

يوسف ، جوزيف نسيم ، العرب والروم واللاتين في الحرب الصليبية الاولى (القاهرة ، ١٩٦٣)

Atiya, A.S., **Cr sade, Commerce and Culture,** (Bloomington, 1962).

Archer, T.A., **The Crusades, The story of Nation** (London, s1894).

Barker, E., The **Crusades, The Crusades,** (London, 1949).

Brundage, J.A., **The Crusades,** (Wiscon-Sin, 1962).

Krey, A.C., **The first Crusade,** (Princeton, 1958).

Kerr, J.C., **The Crusades,** (London, 1760).

Lamp, H., **The Crusades,** Iron men and saints, (London, 1935).

Mills, C., **The history of the Crusades for the Recovery and possession of the Holy land,** Vol, L, (London, 1820).

Mary, H.E. **The Crusades,** Tr, by John gillinghem, (Oxford, 1972).

Oldenbonrg.z., **The Crusades,** Tr by F.A. Carter, (New York, 1965).

Setton, K.M. (ed) **A History of the Crusades,** (Philadelphia, 1955).

The Encyclopadia of Islam, Vol, II, Art (Kurbuka) London, 1921.

اللقاء الحضاري في الأندلس

دكتور عبد العزيز الأهواني
مصر

كل من يدرس تاريخ الحضارة في العصر الوسيط يعرف ويسلم بأن الاندلس كانت موطنا للقاء طويل بين حضارتين حضارةاسلامية عربية مشرقية من جانب ، وحضارة مسيحية لاتينية اوربية من جانب آخر • ويسلمون ان هذا اللقاء كانت له آثاره التي يمكن رصدها في حياة اسبانيا المسيحية حتى العصر الحاضر وفى حياة اوربا الغربية فى آخر القرون الوسطى وفى عصر النهضة • وقد كتب الباحثون الاسبان فى تأثر أسبانيا بالحضارة الاسلامية كتبا وابحاثا عديدة، لعل اشهرها لقرب العهد بهولما أثاره من نقاش ومعارضة ماكتبه العالم الاسبانى Américo Castro (١) فى هذا السبيل • وكذلك كتب الباحثون الاوربيون عن تأثير الحضارة الاسلامية في الغرب الاوربى وسجلوا ماترجم الى اللاتينية من مؤلفات عربية ومادخل عن طريق اسبانيا العربية الى ذلك الغرب من آثار فى فروع العلم المختلفة وفي نظم الحياة المادية والاجتماعية والفنية • ويعتبر كتاب السيدة الالمانية Sigrid Hunpse (شمس الله على الغرب) (٢) من الكتب الحديثة في هذا المجال ويمتاز بالشمول وان لم يلتزم فيه المنهج الاكاديمى الدقيق • وآخر ماصدر محاضرات لمنتجمرى وات عن الموضوع •

ولكن القضية التي لم تكد تطرق هو قضية التأثير العكسى ، أى تأثير الحضارة المسيحية اللاتينية فى الاندلس العربية •

افرد ابن خلدون فصلا قصيرا في مقدمته بعنوان « فصل فى ان المغلوب مولع ابدا بالاقتداء بالغالب فيشعاره وزيهونحلته وسائر احواله وعوائده» وكان ابن خلدون قد زار غرناطة وعاش فيها فتره قبل تأليف المقدمة . فاتخذ من الاندلس مثالا تطبيقيا لهذا المبدأ الذي ذكره فقال : « حتى انه اذا كانت امة تجاور اخرى ولها الغلب عليها فيسرى اليهم من هذا التشبيه والاقتداء حظ كبير كما هو فى الاندلس لهذا العنصر مع امم الجلالقة فانك تجدهم يتشبهون بهم في ملابسهم وشاراتهم والكثير من عوائدهم واحوالهم حتى فى رسم التماثيل في الجدران والمصانع والبيوت ، حتى لقد يستشعر من ذلك الناظر بعين الحكمه انه من علامات الاستيلاء والامر لله » ص ١٤٠ طبعة بولاق ١٣٢٠ هـ .

ولايهمنا في هذا المجال بحث اسباب الاقتداء والتشبه وتفسير ابن خلدون لهما ، وانمايهمنا ماسجله ابن خلدون من مشاهدته لتأثير المجتمع الاسبانى المسيحى في المجتمع الاسلامى الاندلسى ، ثم لنسأل هل اقتصر على الجانب المادي والاجتماعى من الحياة ام شمل جوانب أخرى عقلية وروحية؟

ذلك هو الموضوع الذى لم يجد بعد مايستحقه من عناية المؤرخين والباحثين حقا . لقد كانت الحضارة العربية في الاندلس اكثر ازدهارا وتقدما من الحضارة اللاتينية فيكثير من الجوانب، وذلك يفضي بطبيعة الحال الى ان يكون العطاء من الطرف الاكثر تفوقا وان يكون الاستقبال ممن هو دونه .

ومع ذلك فان الظروف التاريخية للحضارة العربية فى الاندلس كانت تتيح اتصالا وثيقا لابد ان تكون له بعض النتائج في الحضارة الاندلسية ذاتها . منها أن المنطقة الاسلامية من اسبانيا كانت تشتمل على جماعات ضخمة من المسيحيين يعيشون داخل المجتمع الاسلامى حيث يمارسون شعائرهم الدينية ، ويحتفلون باعيادهم ومواسمهم ، ويحتفظون بتقاليدهم الشعبية ، ويقيمون علاقاتهم الاجتماعية حسب اعرافهم القديمة ــ ومنها ان

اللغات الاعجمية ظلت حية داخل المنطقة العربية ، وان كثيرا من العرب ومن المسلمين المستعربين كانوا يعرفون الاعجمية ويتكلمون بها فىحياتهم اليومية بجانب اللهجات العامية العربية • ومنها ان الاندلس العربية كان يعيش فيها عدد من علماء المسيحية الذين يعرفون اللاتينية ويتدارسونها ويعتبرون أنفسهم حملة لهذه الثقافة اللاتينية • ولم يكن الجدال الدينى لينقطع بين العلماء من اهل الملتين • الى ظروف اخرى لعل اهمها ان الحدود بين المنطقتين العربية واللاتينية لم تكن ثابتة ، وانما ظلت متأرجحة ، بحيث يفاجأ كثير من سكان الدولتين الاسلامية والمسيحية بتغير تبعيتهم السياسية نتيجة الحروب والتوسع او التقلص فى حدود الدولتين • ومن هذه الظروف ايضا اعتماد اهل الدولتين الاسلامية والمسيحية على مناصرة اخوانهم فى الدين ممن هم خارج حدود اسبانيا ، فاعتمد المسلمون على المغاربة واعتمد المسيحيون على دول العالم المسيحى في اوربا الغربية فكان يتدفق على كلا الجانبين انصارهما من الجنوب والشمال طلبا للجهاد او التماسا للمغانم •

وقد كان لهذا كله آثاره الواضحة فى الحياة السياسية في الاندلس ، وفي انواع الفتن والثورات التى قامت • وفى النظم الادارية وفى الحياة الاقتصادية •

ومع ذلك فان المؤرخين السياسيين لاسبانيا خلال العصر الوسيط لايكادون يبرزون في وضوح اثار هذه الظروف وابعاد هذا اللقاء او الصراع فى كتاباتهم التاريخية والاقتصادية ، فضلا عن الاجتماعية والثقافية ، وهم — اميل الى ان يعالجوا قضايا التاريخ السياسى فى كل منطقة على حدة ، منفصلا عن مشاكل المنطقة الثانية ، ويتناولوا الغزوات والمعارك الحربية بين الطرفين فى اطار العلاقات الخارجية بين الدول اكثر من تناولهم لها باعتبارها جزءا من التكوين الداخلى للمجتمعين المتحاربين • وكذلك نجد العناية بالجانب الاقتصادي من حيث تأثره المباشر بهذا اللقاء الحضارى ، ضيق النطاق محدود الابعاد •

واذا عدنا الى القضية الاولى وهى تأثر الاندلس الاسلامية حضاريا بأسبانيا المسيحية وجدنا ان مجال الدراسة كان ولا يزال شديد الضيق • ولا أعرف لاحد جهدا كبيرا في هذا السبيل الا جهد المستشرق الاسبانى سيمونت • .Simonet في الجانب اللغوى • فانه فى كتابه او معجمه عن الالفاظ اللاتينية الاصل الذى استخدمها المستعربون (٣) يقدم احصاء لتلك الالفاظ كماوردت فى المؤلفات العربية • وقد اضيف الى هذا الجهد جهد آخر للمستشرق الهولندى دوزى فى تكملته للهجات العربية ، كما اضاف كاتب هذه السطور الى القائمة ما استخدمه من كتاب ابن هشام اللخمى عن لحن العامة • كانت هنالك اضافة اخرى صدرت عن اكتشاف الخرجات الاعجمية وعن دراسة ديوان ابن قرمان واسهم فيها كثيرون وعلى رأسهم المستشرق الاسبانى جارثيا جومث ، كما كان لكاتب هذه السطور جهد في ذلك •

فاذا تجاوزنا الجانب اللغوى ، أو جانب المفردات اللغوية بعبارة ادق فان دراسة اساليب التعبير اللغوى لم تدخل فى نطاق هذه الجهود — الى جوانب اخرى وجدنا جهد الاستاذ جارثيا جومث فى مجال الاوزان الخاصة بالموشحات والازجال ومحاولته اثبات ان هذه الاوزان تأثرت باوزان اسبانية قديمة ، وانها تسير على غير النمط العربى الكمى ، بل على عدد المقاطع ومواضع النبر •

وليس من شك فى أن هنالك صعوبات موضوعية وعقبات تحويل دون اكتشاف تأثير الحضارة الاسبانية فى الحضارة العربية ، اهمها في نظرنا ضياع كثير من النصوص وخاصة النصوص النثرية التى تتصل بالاداب شبه العامية من قصص واساطير ، وخلو المكتبة الاندلسية من مؤلفات تصف الحياة اليومية للناس وتتحدث عن عاداتهم وتقاليدهم وانماط معيشتهم • فمن المعروف ان المثقفين القدامى كانوا يحتقرون هذه الانواع الادبية غير الكلاسيكية • فلما قرأنا ديوان ابن قزمان وجدنا فيه ما يدل

مثلا على احتفال الاندلسيين برأس السنة الميلادية (ينير) ، وما يدل على الاحتفال بزمن العصير بما يشبه ما يعرف فى اوربا باسم Vendimia

وسبب آخر اقرب لان يكون سببا نفسيا لدى الباحثين العرب المحدثين فانهم ــ فيما يبدو ــ يعتقدون ان القول بتأثر الحضارة الاسلامية العربية بالحضارة المسيحية اللاتينية مما ينقص من قدر ثقافتنا القومية، وهم اميل لان يجعلوا تطورها وما يستحدث فيها صادر من داخلها أو من ذاتها، لا من تأثير اجنبى وافد عليها من الخارج • ولا أرى داعيا لهذا التحرج ولا أجد ان الاخذ عن الاجنبى ينتقص من شأن الاخذين مادامت الحضارة الآخذة لا تفقد شخصيتها ولا تقع في التقليد الاعمى •

وبناء على هذا أرى انه مما يفيدنا علميا لاستكشاف تطورنا الحضارى ورصد دقائقه فى الاندلس وغيرها من مواطن اللقاء الحضارى أن يكون الدارس متنبها الى احتمال هذا التأثر وهو يقرأ ما بين يديه من نصوص •

وقد حاولت شيئا من هذا اثناء قراءتى للادب الاندلسي ، وخرجت بأشياء قليلة اضعها بين أيدى الدارسين لعلها تفتح بعض النوافذ في هذا الجدار الاصم القائم بين الحضارتين اللتين عاشتا معا في أسبانيا خلال قرون طويلة ، لا سيما فيما يتصل بتأثر الحضارة العربية ، نظرا لان تأثيرها اكثر معرفة ووضوحا •

أولا ــ الترجمة عن اللاتينية :

(أ) معروف ان حركة الترجمة الى اللغة العربية قديما كانت فى المشرق من اليونانية فى المرتبة الاولى ، ثم من الفارسية والهندية • ولا نكاد نعرف شيئا ترجم عن اللاتينية • وقد استفادت الحضارة الاندلسية من هذه الترجمات المشرقية • ولكنها التفتت بحكم المجاورة والمعايشة الى اللغة اللاتينية •

ومن الثابت ان كتابا للمؤرخ اللاتينى (هروشيين) Paulus Orosius من أهل القرن الخامس الميلادى قد ترجم الى العربية في عهد عبد الرحمن الناصر او الحكم المستنصر وهو الكتاب الذى عنوانه فى اللاتينية Historoarum aduersus paganos. (٤) وتوجد الترجمة العربية لهذا الكتاب محفوظة في مكتبة جامعة كولومبيا في نيويورك (٥) وقد استفاد ابن خلدون والمقريزى من هذه الترجمة واشار الى الكتاب ابن جلجل (٦) .

وفي الترجمة العربية لهذا الكتاب اضافات تكمل تاريخ القوط الى دخول طارق بن زياد عليهم ، وقد نقلت هذه الاضافات عن مؤرخين لاتينيين .

(ب) وحين يتحدث العذرى (احمد بن عمر بن انس المعروف بأين الدلامى ت ٤٧٨هـ) عن مدينة طالقة Italica القريبة من اشبلية ويذكر حكامها قبل الفتح الاسلامى نجد مثل هذه العبارة « ويذكر فى بعض الكتب المؤرخة للاخبار القديمة ان أشبان بن طيطش ... الخ » (٧) وحين يذكر الملك القوطى ششفوط Sisabuto (٦١٢ ــ ٦٢١ حكمه) يقول « وكان بصيرا بالكلام عارفا بالكتاب . وكان عصره عصر علوم . وأهله اهل تهمم وفي ايامه كان اشيذر العالم يعلم الكتاب » .

والشيذر الذى يشير اليه هو san Isioloro اسقف اشبلية المشهور صاحب المؤلفات المعروفة (توفى ٦٣٦) بما يدل على ان المسلمين في اسبانيا عرفوا كتب هذا العالم لا سيما ما يتصل بالتاريخ . وفي الحق ان مراجعة ما كتبه العذرى عن ملوك القوط على ما أورده اسقف اشبلية عنهم يوحى بأن العذرى كانت بين يديه نصوص للقديس ايزيدور .

(هـ) ومما ترجم أيضا الى العربية من كتب لاتينية تلك المجموعة التى تشتمل على قرارات المجامع الكنسية الكاثوليكية • وهى المجموعة التى تحمل فى العربية هذا العنوان « جميع نواميس الكنيسة والقانون المقدس » وهى من محفوظات المكتبة الاهلية بمدريد (رقم ٤٨٧٩) وقد ترجمت هذه المجموعة في عهد الطوائف •

حقا ان هذه الترجمة الاخيرة قصد بأن ينتفع بها رجال الدين المسيحى ممن تعربوا فى اسبانيا ، ولكن الصراع الدينى في الاندلس والحواربين الملتين كان يدعو المسلمين الى الاطلاع على النصوص المسيحية •وقدكان بين يدى ابن حزم نصوص مسيحية ، هى غالبا مما ترجم عن اللاتينية فى الاندلس ، يستغلها فى كتابه (العضل) •

وكذلك توجد اشارات فى نصوص عربية الى اللسان اللاطينى والى كتب الاعاجم ورواة العجم مما يدعو الى مزيد من التفتيش والبحث والتعقب لتوضيح هذا الجانب من الثقافة العربية وما اقتبسته عن اللاتينية او عن الاسبانية •

ثانيا ــ على ان قضية التأثر بالثقافة المسيحية او الاسبانية لا ينبغى ان يقتصر فيها الى بحث مترجم من اللاتينية او اللغات الرومانسية الى العربية • ولعل هذا ان يكون أقل الجوانب تأثيرا ، وانما ينبغى ان يشمل الامر الثقافة الحية او الثقافة الشعبية التى تسربت مشافهة الى الثقافة الاندلسية ــ فاذا وضعنا هذا في الاعتبار ونظرنا الى بعض ماورد في التراث الاندلسى وجدنا الكثير :

(أ) هذه الالفاظ الاعجمية التى استخدمها العرب والتى سجلتها كتب لحن العامة ، لها أو لبعضها دلالات بعيدة • مثل كلمة ــ ذنتيلة ــ التى ذكرها ابن هشام اللخمى حيث يقول :

« ويقولون للطعام الذى يصنع عند نبات الاسنان للاطفال الذتتيلة باللام والصواب الذتتينة بالنون ، وهواسم اعجمى . وحكى الزبيدى فى كتاب طبقات النحو واللغويين قال : اخبرنى بعض الشيوخ انه نبت سن لبعض ولد الامير عبد الرحمن بن الحكم رحمه الله ، فاحدث فيه ما يحدث الناس عند نبات اسنان الصبيان . فقال الامير للوزراء : هذا الذى يسميه الناس بالاعجمية الذنتينة هل روى عن العرب فيه شيء ... الخ » (٨) .

ومثل الفاظ ببطيرو فيجه و مرنده و كنبوش وهى فى الاسبانية Cambuj - Merienda - Faja - to abadero يضاف الى ذلك لفظ (ينير = يناير) عند ابن قزمان للدلاله على عيد رأس السنة الميلادية وكلها تدل على نفوذ المرأة المسيحية في المجتمع الاسلامى وعلى تقاليد اسبانية انتقلت الى مسلمى الاندلس .

(ب) وحين نتجاوز الالفاظ الى الاخبار والقصص سنجد في كتب التاريخ الاندلسي امثال قصة البيت المقفل فى طليطلة وكيف اصر لنديق آخر ملوك القوط على فتحه فكان نذيرا بدخول العرب الى اسبانيا . وقصة بنت يوليان صاحب سبته مع ذلك الملك وكيف غيرت التاريخ . وكلها قصص اخذت بغير شك من التراث الشعبى المسيحى . وسيجد من يبحث نظائر لهذا فى كتب التراث الاندلسى ، وخاصة فى كتب الجغرافيا وما ورد فيها من عجائب البلاد والاثار القديمة والحقائق السحرية لبعض العيون والاشجار والازهار وفيما اورده العذرى ، وفيما نقله القزوينى عن الاندلسيين قدر صالح من هذا . وكذلك سيجد الباحث فى الكتب التى تتحدث عن صوفية الاندلس وكرامات بعض اوليائه ما يستشف ماوراءها من أساطير اسبانية الاصل (٩) .

(ج) والشعر العربى ، لانه التراث الاصيل عند العرب ، يفترض انه الحصن الممتنع على التأثير الاجنبى ، والشعر الاندلسي بغير شك كان

يسير في فلك الشعر العربي • ومع ذلك فاننا نلمح احيانا في هذا الشعر ما يجعلنا نتوقف ونفكر فى قضية التأثر بالثقافة الاسبانية القديمة ، وان اختلفت الطرائق •

فقول الشاعر الاندلسي ابى عبد الله محمد بن مسعود (١٠)

حيران من دهشة كأنـــي قلبـــق خانه الغديـــر

وذكر ابن عبد ربه للدب وتحطيمه خلايا العسل ، وان ارتد ذلك الى امثال عامية فهو لا ينفى ان هذه الامثال فى بعض الاحيان ثمرة لقاء حضارى مرتبط بلغات عامية تعايشت وتبادلت التأثير •

هذا التراث الشعبى المشترك بين الثقافتين هو في نظرنا وفي نظر بعض الباحثين هو المصدر الذى انبثقت عنه الموشحات الاندلسية • ولا تزال الخرجة العامية او الاعجمية فى موشحـات الاندلسيين تحمل مـن المعاني والاخيلة والاساليب ما يجعلها نمطا مختلفا عن الشـعر العـربى التقليدى (١١) • ويكفى ان يكون اكثر الغزل في الخـرجات على لسان الفتاة تتغزل فى الفتى وتشكو حبها لامها لندرك مدى مخالفة هذه الخرجات من الغزل فى القصيدة العربية ومدى قربه من الاشعار البرتغالية القديمة التى تعرف باسم (Cantigas de Omigo) مما يدل على تراث محلـي مشترك •

ثالثا ــ أما من حيث الفنون ، فقد أوردنا نص ابن خلدون عن التماثيل او الصور في بيوت الاندلسيين ، وهنالك نصوص كثيرة تذكر التماثيل في حمامات المدائن الاندلسية والصور على الابسطة ،فضلا عما وصل الينا من ادوات مصنوعة من العاج •

ولدينا فى الموسيقى نص صريح للتيناشى عن نوعين من الغناء عاشا فى الاندلس نوع اعجمى ونوع عربى • (وذلـك في كتابه المخطوط ، متعـة الاسماع في علم السماع (١٢) وان ابن باجه وافق بينهما •

وفي تجويد القرآن يقول الطرطوشي استنكارا لما يفعله المجودون حين يبلغ القراء فيه ذكـر المسيح « فمثلوا اصواتهم فيـه باصـوات النصارى والرهبان والاساقفة في الكنائس » (١٢) •

ان كل ماقصدته بهذه الاشارات السريعة هو التنبيه الى ان الدارسين للحضارة العربية في الاندلس ينبغى لكى يستكشفوا الصورة الدقيقة لتلك الحضارة العظيمـة ان يعيد بعضهم قراءة التراث العربى الاندلسى لعلهم يجدون فيه ما يزيديا معرفة باثار هذا اللقاء الحضارى الخصب الذى حدث على تلك الارض الغنية التى كانت حلقة اتصال بين عالمين وحضارتين •

المصـــادر والمراجع

(١) صدر الكتاب بالاسبانية فى بيونس ايرس بالارجنتين سنة ١٩٤٨ بعنوان :
Espana en su Historia.
ثم صدرت بعد ذلك طبعات مجددة بالانجليزية والاسبانية .
Cristionos, Morosy Iudios
حسنى عبد الوهاب (هامش ٢ ص ٢٥٩) .

(٢) ترجم الى الفرنسية بعنوان : باريس سنة ١٩٦٣
Le Soleic D'Allh Brille sur.

ثم ترجم اللغة العربية .

(٣) Fn. J. Simonet, Slesorio de Voces Ibericas y latnes usadas pntre los Mozàrales. Nadrid I888

(٤) B. Sànchez Alonso, Historia de la historiografia espanola
Atadrid 1976 ـ الجزء الاول ص ٦١ . ولد هورشيوس فى طركونه اوبرانة حوالى سنة ٣٩٠ .

(٥) انظر دراسة المستشرق الايطالي Y. Leui Della Viola عن المخطوط في مجلة Al-Anolalus (سنة ١٩٥٤) ص ٢٥٧ وما بعدها volxix Face 2 ـ ويشير الكاتب الى أن نسخة غير كاملة من ترجمة هروشبيش توجد فى مسجد عقبة بالقيروان بناء على مكاتبة من حسن

(٦) انظر طبقات الاطباء لابن جلجل ـ تحقيق فؤاد سيد ص ٢ (القاهرة المعهد الفرنسي ١٩٥٥) .
ـ نصوص عن الاندلس ـ تحقيق عبد العزيز الاهوانى ـ مدريد ١٩٦٥ .

(٧) نصوص عن الاندلس ـ تحقيق عبد العزيز الاهواني ـ مدريد ١٩٦٥ .

(٨) انظر : الفاظ مغربية من كتاب ابن هشام اللخمي فى لحن العامة ، مجلة معهد المخطوطات سنة ١٩٥٧ ـ المجلد الثالث ـ عبد العزيز الاهوانى .

(٩) انظر على سبيل المثال ما نقله الدميري فى حياة الحيوان ج ١ ص ٢٩١ عن كتاب النصائح لابن ظفر عن راهبين اسلما ، وما رواه ج ٢ ص ١١٢ عن ابن بشكوال عن طائر فى بلاد الروم يحفظ دعاء .

(١٠) الذخيرة ١ ــ ٢ ص ٧٨ .

(١١) ناقشنا هذه القضية بشىء من تفصيل فى كتابنا (الزجل فى الاندلس ــ القاهرة ١٩٥٧) .

(١٢) المخطوط حسبما ذكر جارثيا جومث فى مكتبة ابن عاشور بتونس. وهذا الكتاب جزء من تأليف ضخم للتبفاشى بعنوان « فصـــل الخطاب فى مدارك الحواس الخمس لاولى الالباب » والمؤلف احمد ابن يوسف التبفاشى من اهل القرن السابع (ديوان ابن قزمان ج ٣ ص ٣٥ . وقد نشر النص الخاص بالموسيقى فى مجلة (الفكر) التونسية بتحقيق حسن حسنى عبد الوهاب عدد يونيو ١٩٥٩ .

بناء الإنسان العربي الجديد

دكتور بروفسور كارل بتراچك
Prof. Dr. Karel Petracek
Prague Czechoslovakia
الاستاذ بجامعة براغ

لا شك أن مفهوم الانسان في التعاليم الانثروبولوجية الاسلامية مبنى على علاقته مع الله • اذ بينما كانت نقطة ارتكاز نظرة الجاهلية الى العالم هي الانسان ذاته نرى ان الاسلام ينطلق من وجهة نظر اخرى ، فعلاقة الله التبادلية مع الانسان ، تشمل مستويات عديدة ، منها المستوى الانطولوجي ، الاتصالي الاخلاقي ، وال Hierarchy كما فى علاقة السيد بالعبد •

واذا تطرقنا الى المستوى الانطولوجي بالذات نرى ان هنـاك علاقة الخالق بالمخلوق ، وهى علاقة ذات شكل واحد اى ان الله هـو المصدر الاول والاخير للوجود الانسانى ، وهذا مؤكد فى القرآن الذى يربط على جوانب الحياة الانسانية بمشيئة الله •

ان الاسلام الحديث ايضا يتخذ نفس الموقف من هـذه المسألة ، اذ لم يستغن قط على شكل علاقة الخالق بالمخلوق، وهذا ما يلاحظ بشكل جيد من خلال المناظرة الدائرة حاليا مع الداروينية (محمود شلتوت ١٩٦٦ وآخرون) •

ان علاقة الخالق بالمخلوق لا تقتصر على الله والانسان فقط ، بل تشمل الكون بكامله • وكل ما هو على الارض ـ هو خالق كل شيء

(٦ر١٠٢) • أى أن الله خلق حتى البيئة والظروف الخارجيــة التي تحيط بالانسان ، وبذلك الغى امكانية تأثير الظروف على الانسان وعلى تطوره • الخالق •

اذن برمج وجود الانسان وظروفه ، اى انه لا وجود لاى علاقة سببية بين الانسان والظروف لان العلاقة الوحيدة هى بين الانسان والله ، وبين الله والظروف • يشهد على ذلك التفسير المعروف للتسبب عنـد الاشعرى وتلاميذه خاصة الباقلاني (انظر P. Antes, 1970 واخرون) •

غير انه بالرغم من ذلك ، نرى ان لمفهوم الظروف وجود فى الاسلام ، فقبل كل شيء يكون الرسول محمد بنشاطه واعماله عصرا نبويا جديدا ، ويحيط الانسان بظروف جديدة ، وينعكس ذلك (فى غير ما ينعكس) بحقيقة كون الرسول عربيا وكون الوحي قد نزل عليه باللغة العربية • وكذلك هو الحال فى التشريع الاسلامى الذى اخذ الكثير من الشرع المحلي (العرف ، والعادة) محترفا بذلك بتأثير الظروف •

والى جانب ذلك فان ممثلوا الاسلام الحديث يقبلون بدون تردد تأثير الظروف مثلا على تطور العلم (محمد الباهي ١٩٦٥ ، ٣٩٠ ، ٤٥٨ ، ٤٦٣) • وعلى العلاقة بالدين الذى لا يتغير بحد ذاته (٤٥٧) • وفي بعض الاحوال الى حد حين تؤثر على تطور الانسان فى المدار الذى انتهى فيه الوحي وبدأ الانسان بالسير وحده حسب امكانياته الشخصية حتى وصل الى الاختلاف الممكن ظهوره مع الدين والوحى (محمد الغزالي) ان التغيير فى الظروف الاجتماعية يمكن ان يغير كذلك الرأى حول تعيين بعض ممثلي الشريعة الاسلامية (ابراهيم اللبان ١٩٦٤ ، ٢٥٦) • وبالمثل يقبل محمود شلتوت فى اعماله تفسير الكثير من الظواهر بدون الرجوع الى الاسلام ــ عندما لا ينوه عنها مباشرة في القرآن او السنة ــ ويسمح

فى مثل هذه الحالات ان يرجع الى العقل الانسانى ، وان يكون لزمن الظروف اعتبار • بينما يحتفظ الاسلام فى كل الاحوال بشمول مفهومه للزمن •

وفي المقابل نرى أن الكثير من المحدثين الذين لا ينطلقـون مـن وجهات النظر الاسلامية يؤكدون بشدة على اهمية الظروف لحياة وتطور الانسان ولحل الكثير من المسائل الاجتماعية ومسائل اخرى (انظر العروى ١٩٦٧ ، زكي نجيب محمود ١٩٦٨ ، واخرون من اللذين يكتبون عن الاشتراكية العربية من امثال عصمت سيف الدولة ١٩٦٥) انظر
K. Petracek, 1969/a, 1968/b.

ان هؤلاء المحدثين يأخذون مواقف معروفة فى تيارات العلم والفلسفة الاوروبية التى تجهل من حقيقة تفاعل الانسان مع البيئة احـد العوامل المهمة لتطور الانسان والحياة برمتها • ويكون الدور الرئيسي فى هذا التفاعل للعمل ، الذى يترتب عليه تغير الظروف الطبيعية بالاضافة الى تغير الانسان ذاته • ان بناء فكرة الانسان على العمل وعلى الانســان نفسه هى مقولة معروفة في تيارات الفكر الماركسي F. Engles وكل الفكر الماركسي المعاصر •

هذا وقد اعطى الباحثون الغربيون اهمية كبرى للعلاقة بين الاسلام والعمل ، فهناك فرضيات ماكس ويبر Max Weber التي انتقدهـا الاسلامى Mexime Rodinson (١٩٦٦) ، ولدينا ايضا تحليل روذنتال F. Rosenthal (١٩٧٠) لمفهوم العلم والمعرفة وعلاقته بمفهوم العمل (او الممارسة) •

وبالرغم من ان الاسلام التقليدى مثلا (الغزالي فى كتابه ميزان العمل) يقيم العمل ايجابيا لا يظهر ابدا اى تأسيس انطولوجى للانسان فى العمل • وهذا بالطبع عائد الى الانثروبولوجية الاسلامية التي سبق الكلام عنها •

ان تقييم العمل فى الاسلام الحديث يبدأ في مؤلف رفاعة الطهطاوى الذى يرى فى العمل اصل كل القيم (انظر انور عبد الملك ١٩٦٥) • واداة لتحسين احوال المجتمع البشرى ، ومصدر للثروة التى لا يتم توزيعها بشكل عادل (رفاعة السعيد ١٩٦٩) وهكذا نرى لاول مرة فى تاريخ الفكر العربى تقييم (على طريقة الاشتراكيين الاوروبيين) للعلاقة بين العمل والقيم ورأس المال ، فينتقد الاستغلال برأسمالي • ويطالب بتدخل الدولة لحماية العمال امام استغلال الملاكين او الرأسماليين (لويس عوض ١٩٦٩) •

وهناك تقييم آخر انساق فى تيارين مختلفين ، احدهما تيار الفكر الاسلامى الحديث ممثلا بجمال الدين الافغانى ، محمد عبده ، رشيد رضا ••• واخرون والاخر تيار يمثل الليبرالية الحديثة المتصلة بتطـور الفكر العلماني والمجتمع الحديث • الا ان ما يهمنا هنا ليس تتبع هذا التطور وانما ما وصل اليه فى الوقت الحاضر ، وسنعتمد بشكل خاص على المراجع المصرية •

نستطيع ان نقسم تيارات الفكر الحديث الى ثلاثة اقسام وذلك نسبة الى الملامح التي يعطوها للانسان العربى المعاصر (انظر K. Petracek ١٩٧٣) فهناك الانسان الاسلامى والانسان القومى العربى الاشـتراكى والانسان الطبقى • ان النموذج الاول موجود فى مخطوطات مفكرى الاسلام اما الثاني فعند كتاب الاشتراكية العربية والثالث هو خـاص بالماركسيين (في اوروبا كما فى العالم العربى) •

ولعله من المستحسن ان اقدم باختصار التحليل الذى قمت به فى مكان آخر (K. Petracek ١٩٧٣) عن مواقف هذه النماذج من ظاهرة العمل •

شخصية الانسان الاسلامي والعمل

ان الفئر الاسلامي المعاصر (O. Carre ١٩٧٠ ، جمال الدين العياد ١٩٦٧ ، عبد المنعم خلاف ، محمد الغزالي ١٩٦٣ ، ١٩٦٠ محمد الباهى ١٩٦٥) يؤكد على قيمة العمل ويرفع منها في نماذج الانسان الاسلامى المعاصر معتمدا فى ذلك على نصوص وامثلة من القرآن والسنة ويشير أيضا فى هذا المجال الى تجارب اوروبا الناجحة والى روح العصر ، ويطالب بتقييم جديد للعمل والوقت الذى هو احد ابعاد العمل • ان العمل هنا يرتبط بشكل رئيسي بالاخلاق ومن حين الى آخر بالمعرفة وتصبح لـه قيم ميتافيزيكية اذ ينادي به كقيمة لها وزنها في هذا العالم وفى العالم الاخر ايضا • ويتطرق موضوع العمل فى ناحية اخرى الى المسألة الانطولوجية فهو ـ اى العمل من مميزات الانسان كمخلوق اجتماعي ، ونتيجة لطبيعة عقله وغريزته ، يسبب له السرور ويزيده بالنفع • الا ان الانسان لا يملك القدرة على الخلق لان هذه القدرة هي لله وحدة ، وعليه فان انطولوجية الانسان ليست فى العمل ، ان اساس الانسان يكمن فى الله والدين الاسلامى لا يتخطى حدود هذه الفرضية •

شخصية الانسان الطبقي والعمل

ان هذا النموذج يمثل المفكرين الماركسيين في العالم العربى وهم مخلصين للمفهوم الماركسي الذى هو باختصار ـ الانسان ذو قيمة نوعية فى عملية تحويل العالم المادى والانتاج هنا هو حياة ذات نشاط نوعى ، ومن خلال هذا النشاط تظهر الطبيعة كما لو كانت من صفة ونتيجة لنشاطه (الانسان) •

ونظر الى الاتفاق العام لمفكر هذا التيار في العالم العربى نرى ان نرجع الى أعمال بعضهم فقط (فؤاد مرسي ١٩٦٧ ، راشد البراوى ١٩٦٣)• اذا كان التاريخ من صنع الانسان ونتيجة للعمل والتعاقب الزمني ، ولان الطبيعة تسخر خلال ذلك بشكل متزايد لخدمة الانسان ، يظهر الدليل

على ان الانسان خلق نفسه ، وهذا ما جاء على لسان فؤاد مرسي معبرا عن اهمية وفعالية العمل فى الوجود الانسانى • ان انصار الفكر الاسلامي لا يمكن ان يقبلوا بهذا الموقف •

ان النشاط الانساني هو ايضا عامل مهم لتغير الاحوال المتأخرة فى العالم العربي • وهكذا يدخل العمل الى الهيكل البنائي للمجتمع • والجدير بالذكر ايضا ان العلاقة بين النظرية والممارسة لا تزال احدى المسائل الراهنة فى مختلف اعمال الفئات الماركسية فى العالم العربى (B. Tibi ١٩٦٩) •

شخصية الانسان القومي العربي الاشتراكي والعمل

ان كمية الكتب التي تتناول موضوع الاشتراكية العربية لا تحصر لذلك سنقتصر عنها على بعض المراجع • ـ

ففي المواثيق الرسمية (مصر ١٩٦٢ ، السودان ١٩٧٠ ، العراق ١٩٧١) نجد ان العمل يقيم دائما ايجابيا ، وفى بعض الاحوال يوصف كالطريق الوحيد للوصول الى اهداف المجتمع •

وتقف الدوائر ذات الاتجاهات اليسارية (من حول مجلة الكاتب انظر Hanna Gardner ١٩٦٩) كموقف عصمت سيف الدولة المتأثر بـ Sarter, Bergson (٩٦٥ و ٩٦٨) معطية للعمل قيم ايجابية • فالمؤلف عصمت سيف الدولة يربط بين الحرية والعمل ، ويرى ان ميزة الانسان هو في انه يغير الظروف التي تحيطه • وهو ـ اى الانسان ـ يقوم بذلك من خلال تعرفه على القوانين الطبيعية واستعماله لها لخدمة مصالحه الخاصة • العمل هو اذن تعريف نوعي للانسان اى ان له قيمة انطولوجية • وينسب راشد البراوى (انظر S. Wild ١٩٦٩) للعمل قيم انسانية واقتصادية • اما عبد الحميد مرسي وعدلي سليمان (١٩٦٢) فيتكلمان عن الجانب الاخلاقي للعمل ، ونجد ذكر اهمية

العمل فى الاعمال المخصصة للدعاة (احمد جمال الدين كاشف) وكذلك في المطبوعات الاقتصادية ذات الاتجاه الاشتراكى (علي البارودى ١٩٦٧ ، جلال احمد امين ١٩٦٦ ، موسوعة الهلال الاشتراكية ١٩٦٨) وفيما عدا ذلك فى مطبوعات الاعداد السياسي (رشدى ابراهيم حسان ١٩٦٣) وحتى فى الصحف اليومية مثلا فى الاهرام ١٩/٥/١٩٦٧ ص ٧ يوجد مقال عن شخصية مصر واهمية العمل •

وهكذا نجد ان نموذج الانسان القومي العربى الاشتراكى يقيم العمل ايجابيا فى مستويات النصوص التي قدمناها ، وكما هو الحال فى نموذج الانسان الطبقى (الماركسي) يكون للعمل قيمة انطولوجية بشكل ان الانسان يبني نفسه من خلال بقائه لتاريخه وتؤكد صفات العمل الاجتماعية والاقتصادية ويربط بينه وبين الاشتراكية •

وغالبا ما يقيم العمل اخلاقيا ونفسيا ، وتكرر الاشارة الى موقف الاسلام الايجابى من العمل •

وفى ليبيا ايضا نجد ان للعمل قيم ايجابية فى جميع الاتجاهات (الاقتصادية ، الاجتماعية ، النفسية ، والاخلاقية) وينظر اليه كاثبات للوجود الانساني • وهو ــ العمل ــ يفسر من وجهة نظر اسلامية ، ولكن المجال هنا لا يتسع لتقديم الامثلة •

ان مثل هذه المواقف هى بدون شك موجودة في انحاء اخرى من العالم العربي • وفى الختام يمكننا ان نلخص العلاقة بين ما ذكرناه عن انتيارات الفكرية (والنماذج التى تمثلها) بالشكل التالى ــ بالنسبة لتقييم العمل تختلف نماذج الانسان الطبقى ، والانسان القومى العربى الاشتراكى مع النموذج الاسلامي في المستوى الانطولوجي ، اما فى المستويات الاخرى فتلتقى جميع النماذج على تقييم العمل تقييما عاليا (اخلاقيا واجتماعيا) •

وينفرد النموذج الطبقي والنموذج القومي العربى الاشتراكى فى رؤيتهم للعمل كأساس للوجود الانساني ، والانسان عندهم يخلق نفسه بنفسه ، بينما لا يمكن ان يقبل مثل هذا الرأى فى الاسلام الذى يبقى محتفظا بالعلاقة التقليدية بين الانسان والله كما سبق ان اشرنا .

ان هذا التركيب للفكر العربي كما نظرنا اليه من خلال علاقته بالعمل هو بالطبع نتيجة التطور التاريخى والتحرك الاجتماعى والفكرى فى العصر الحديث ، ولا شك ان هناك مصالح اجتماعية وطبقية فى خلفية هذه الظاهرة ، ومن المؤكد ايضا أن أحد تلك النماذج ذو عمل اوربى — ونقصد النموذج الطبقى فى الفكر الاوروبى الاشتراكى (الماركسي) الذى يرى فى العمل اساس الوجود الانسانى ، وهذا ما استحال وجوده في النموذج الاصلي لفكر المجتمع العربى (الفكر الاسلامى) . واذ نجد الآن مثل هذه الاراء عند النموذج العربي القومي الاشتراكي فيسعنا بالتالي ان نحكم على ان هذه الظاهرة تعنى تحرك الفكر العربى من ذاتيته الاسلامية الى فكر أوروبى الشكل ولا يكون على الاقتباس الفكرى هنا اى مأخذ ،اذانه يستعمل لحل مشاكل عربية خالصة .

ان تقيم العمل الجديد كما اورده الفكر العلماني العربي فى شكل نموذج الانسان القومى العربى الاشتراكى هو في محله .

ان الانسان العربى الجديد ينطلق من التقييم الجديد للعمل حيث يخلق نفسه بنفسه من خلال الصراع مع الطبيعة وبذلك يستطيع ان يقف الى جانب آلهته ليقول — انا الحق .

ان الانسان العربى الجديد ينطلق من التقييم الجديد للعمل حيث يخلق للعمل كما تقره حدود ميتافيزيكية معينة من الفكر العربى القديم وبالاضافة الى ذلك يمكنه ان يمتد أيضا على مايقدمه الفكر الثورى الاوروبى .

الحياة الاقتصادية والاجتماعية
في
سجلماسة عاصمة بني مدرار

دكتور الحبيب الجنحاني
كلية الآداب ــ الجامعة التونسية

(أ) الفلاحـــة :

يكاد ينحصر النشاط الفلاحي في سجلماسة وضواحيها في ميدانين :

أولا : الزراعة في بساتين الواحــة •

ثانيا : تربية الماشية •

يذكر الجغرافيون العرب البساتين الجميلة بواحة سجلماسة المقسمة الى احواض ترويها مياه الوادى بفرعيه الشرقي والغربى ، وهى التى تمــد سكان المدينة بأنــواع الخضر والثمار ، وقــد اشتهر منها العنب ، وزبيبها المعرش ، يقول البكري : « وهي كثيرة النخل والاعناب • وجميع الفواكه ، وزبيب عنبها المعرش الذى لا تناله الشمس منــه زبب فى الشمس » (١) • ويزرعون القطن ، والكمون ، والكرويا والحناء التى يصدرونها الى سائر بلاد المغرب (٢) ، وأشهر انتاج الواحة هو أنواع تمورها طبعا ، وقد بلغت فى سجلما سة ستة عشر صنفا ، قال ياقــوت متحدثا عن رستاق النخيــل بضواحى سجلماسة : « وفيه ستة عشر صنفا من التمر ما بين عجوة ودقــل وأكثر أقوات سلجماسة من التمر وغلتهم قليلة (٣) • وتمثل انواع التمور هذه أبرز صادراتها الفلاحية الى جانب الحناء والماشية •

ان الاراضى المحيطة بالواحة هى اراضى صحراوية لا تسمح بزراعة الحبوب مثل سهول وادى شلف بالقرب من تاهرت ، ولذ فاننا نجد السلجماسيين يزرعون الحبوب السقوية في البساتين المقامة على الوادى ، ويشبه ابن حوقل زراعتهم السقوية بزراعة المصريين على ضفتى النيل قائلا : « •• فيزرع بمائه حسب زروع مصر فى الفلاحة ، وربما زرعوا سنة عن بذر وحصدوا ما راع من زرعه ، وتواترت السنون بالمياه ، فكلما اغدقت تلك الارض سنة فى عقب اخرى حصدوه الى سبع سنين بسنبل لا يشبه سنبل الحنطة ولا الشعير بحب صلب المكسر ، ولذيذ المطعم ، وخلقه ما بين القمح والشعير ، ولها نخيل وبساتين حسنة وأجنة ، ولهم رطب اخضر من السلق فى غاية الحلاوه » (٤) • ويسمى البكرى هذا القمح بالصينى ، ويسع مد النبى (صلعم) من خمسة وسبعين الف حبه •

اما معلوماتنا عن نوع الملكية العقارية في امارة سجلماسة اندر من الكبريت الأحمر ، وهي لا تختلف فيها عن نظام الملكية العقارية الذي نعرفه فى مناطق اسلامية في نفس العصر ، ولا سيما ما نعرفه عن ملكية الاراضى ببلاد الشام والعراق • ولكن يبدو ان هنالك تفرقة بين ملكية بساتين الواحة، وهى ملكية خاصة واضحة ، وبين ملكية المناطق خارج الواحة ، وهى تفرقة تفرقها طبيعة الارض فى منطقة صحراوية من جهة ، ونظام المراعى فى بيئة قبلية تعتمد تربية الماشية دعامة اساسية فى حياتها الاقتصادية ، هنالك اشارة سريعة اوردها ابن حوقل سمحت لنا بطرح هذه النقطة ، فهو يخبرنا : « انهم يبيحون البلاد للمراعى والزرع والمياه لورود الابل والماشية (٥) ، فالميدان الثانى للنشاط الفلاحى في اماره سجلماسة هو اذن تربية الماشية ، وقد ساهم الانتجاع الى واحتها بالمواشي فى اختيار مكان تأسيسها ، ان صحت الرواية التي تذكر ان ابا القاسم سمكو كان صاحب ماشية ينتجع بها الى براح سجلماسة قبل تاسيس المدينة •

(ب) الحـرف :

ان المركز التجاري الذى اصبحت تحتله سجلماسة ابتداء من نهايـة القرن الثاني الهجرى ، وما رافقه من تطور ديمغرافى ، وتقدم عمرانى قـد ساعد كل ذلك على نشوء انواع من الحرف وازدهارها،وابرز هذه الصناعات اليدوية صناعة النسيج المعتمدة على قطن الواحة ، وعلى الصوف المتوفر بمنطقة تافللت ، ولاسيما صوف حصن برارة في الطـريق بـين فارس وسجلماسة ، ويحدثنا عنه البكري قائلا : « وهو بلد يحسن فيه الغنم ... وصوفها من اجود الاصواف ، ويعمل منه بسجلماسة ثياب يبلغ الثـوب منها ازيد من عشرين مثقالا » • (٦) وقد اشتهر اللباس السجلماسى فى المشرق ، والمغرب ، والاندلس وهو يشبه الدرجيني فى ثوبه ولونه ، ولكنه يفوقه جودة (٧) •

وذاع صيت السجلماسيات بمهارتهن في صناعة النسيج : « ولنسائهم يد صناع فى غزل الصوف ، فهن يعملن منه كل حسن عجيب بديع من الازر تفوق القصب الذى بمصر يبلغ ثمن الازار خمسة وثلاثين دينارا ، واكثـر كأرفع ما يكون من القصب الذى بمصر ، ويعملون منه غفارات يبلغ ثمنها مثل ذلك ، ويصبغونها بانواع الاصباغ (٨) •

والى جانب انواع الحرف المتعلقة بالبناء اشتهرت ايضا صناعة الاوانى الخشبية بسجلماسة ، وهى من شجر يعرف باسم الموضع الذى بنيت فيه أي التامجاثت«، ويصفه البكري قائلا : وهو شجر يعظم ورقه هدب كورق الطرفاء ، ومنه آنية سجلماسة ودرعة ، وما والاهما » (٩) •

ولا شك ان هنالك بعض الصناعات المتصلة بوفرة الذهب المجلـوب الى سجلماسة من بلاد السودان ، وهي باب تبرها ، وبما يستخرج من معادن درعه التى وظف عليها ابو المنتصر اليسع بن ابى القاسم الخصس ، وقـد راينا وجود معدن للفضة بجبل مجاور لسجلماسة •

(ج) التجـارة :

سجلماسة هى اولا وقبل كل شىء مدينة تجارية ، ويعود الفضل في ازدهارها ، وتقدمها المعمارى ، ومظاهر الترف فى حياتها الاجتماعية ،وهجرة الناس اليها من البصرة على شط العرب الى الاندلس ، وبلاد السودان الى نشاطها التجاري ، ومركزها الحساس فى مفترق مسالك تجارية شهيرة في تاريخ التجارة المغربية في العصر الاسلامى الوسيط ، ولعلنا لا نبالغ اذا قلنا ان سجلماسة كانت مركزا تجاريا عالميا عصرئذ ، فالتجارة — اذن — هـى مصدر الثروة الكبيرة التى تجمعت بالمدينة ، ولاسيما الثروة الذهبية التى كانت بايدى سكانها ، وخاصة فئات التجار بينهم ، ويقول عنهم ياقـوت : « واهل هذه المدينة من اغنى الناس واكثرهم مالا ، لانها على طريق من يريد غانة التى هى معدن الذهب ، ولاهلها جراة على دخولها » (١٠) .

ويعرب البكرى عن استغرابه من ان الذهب عند سكان المدينة جزاف عدد بلا وزن ، والكراث يتبايعونه وزنا لاعددا (١١) . ويروي ابن حوقل قصة طريفة عاشها بمدينة اودغست تصور مدى الثراء الذى بلغته فئه التجار بسجلماسة ، فبعد ان تحدث عمن سكنها من تجار البصرة والكوفة وبغداد ، وعن الحركة التجارية الدوءبة بها قال عن اهل سجلماسة : « .. وسائـر ارباب المدن دونهم فى اليسار وسعة الحال ، وتتقارب بالعصبية اوصافهم ، وتتشاكل احوالهم ولقد رايت باوغست صكافية ذكر حـق لبعضهم على رجل من تجارا اودغست ، وهو من اهل سجلماسة مائتين واربعين الف دينار وما رايت ، ولا سمعت بالمشرق لهذه الحكاية شبها ولا نظيرا ، ولقد حكيتها بالعراق وفارس وخرسان فاستطرفت » (١٢) .

وقد كانت التجار ، مصدر القوة المالية وبالتالى السياسية والعسكرية للامامة المدرارية الصفرية ، فنجد مبلغ المكوس التى وظفها اميرها المعتز على القوافل الخارجة والوردة و على مايباع بها ويشترى يصل مع العشـر والخراج اربعمائة الف دينار ، وهذا المبلغ جباية المدينة وعملها فحسب ،

ويقوم ابن حوقل بمقارنه فيذكرنا بمبلغ جباية المغرب كله من اوله الى آخره فيقول : « انها بلغت من ثمانمائة الف دينار الى مازاد على ذلك بيسير ، وربما نقص الكثير ، ويحدد جغرافيا منطقة سجلماسة وعملها التى جمع منها هذا المبلغ فتكون خمسة ايام في ثلاثة (١٣) .

اما علاقاتها التجارية فقد كانت متنوعة تنوع المسالك التى تربط بينها وبين المراكز التجارية نحو الشمال الشرقى : من سجلماسة الى وجده ، والى تلمسان ، عن طريق قفصه ، ثم الى مدن الساحل التونسى من جهة ، او الى طرابلس عن طريق نفزاوة ، ثم برقة ، فمصر ، فالمشرق الاسلامى ، وغربا نحو اغمات وريكه ثم الى مدن ساحلية تقع على البحر المحيط مثل نول لمسطه وشمالا نحو فاس،ثم الى مدن المرافىء على البحر الابيض المتوسط .

وقد راينا ان سجلماسة لم تكن تمثل خاتمة المطاف بالنسبة للقوافل ، فهى تتجه اليها باعتبارها مركزا تجاريا نشطا مع بلاد السودان ، فهى اذن باب لمعدن التبر ، او ميناء صحرواى تتجمع فيه بضاعتان ثمينتان من بضائع العصر : الذهب والرقيق . ان جميع القوافل التجارية القادمة من المراكز التجارية المذكورة ، والمتجهة نحو بلاد السودان او العائدة منها تمر بسجلماسة ، فهى ــ كما ذكر سلفا ــ مركز حساس من مراكز التجارة العالمية عهدئذ .

يصف لنا البكري المسلك بين وحدة سجلماسة فيقول : « وعلى مدينة وحدة طريق المارة ، والصادرة من بلاد المشرق الى سجلماسة وغيرها من بلاد المغرب والطريق منها الى سجلماسة تخرج من وجدة الى صاع وهى قرية ذات نهر وثمار ومزارع ، ومنها الى تاملت ، ومنها الى جبل بنى برنسيسيان ، ومنه الى قير ، ومنه الى الاحساء (١٤). ومنها الى لامسلى ، ومنه الى دار الامير ، ومن دار الامير الى سجلماسة (١٥).

ومن تلمسان فى اتجاه الجنوب الغربى نحو سجلماسة تمر القوافل بقلعة ابن الجاهل ، وهى قلعة منيعة كثيرة الثمار والانهار ، ويتصل بها جبل

تارنى ، وهو وما يليه جبال معمورة الى مدينة تبزيل ، وهى أول الصحراء، ومنها يسافر الى مدينة سجلماسة ، والى وارجلان (١٦) •

ومن فاس فى اتجاه الجنرب نحو باب الصحراء : سجلماسة فتمر القوافل بمدينة صفروى مرحلة ، ثم الى الاصنام مرحلة ، ومنها الى موضع يسمى المزى مرحلة ، ثم تاسغمرت مرحلة ، ثم الى مكان يقال امغالك مرحلة كبيرة نحو الستين ميلا » ومنها تدخل في عمل سجلماسة بين أنهار وثمار ثلاث مراحل الى مدينة سجلماسة (١٧) ، ويصف البكرى مسلكا آخر بين فاس وسجلماسة نقلا عن محمد بن يوسف الوراق (٢٣٢ هـ ٣٦٢ هـ)•

ويمر الطريق من سجلماسة الى اغمات بموضع يسمى تيحمامين ، وفيه معدن للنحاس ، ثم منه الى وادى درعة ، ثم الى مكان اسمه اذامست، ومنه الى ورزازات فبلد هسكورة،ثم منطقة قبيلة هرزجة ، ثم اغمات(١٨)•

أما في اتجاه الجنوب فهنالك مسلك صحراوى نحو بلاد السودان طويل وصعب يقول عنه ابن حوقل : « وبين المغرب والبلدان التى قدمت ذكرها وبلد السودان مفاوز وبرارى منقطعة ، قليلة المياه ، متعذرة المراعى، لا تسلك الا فى الشتاء وسالكها فى حينه متصل السفر دائم الورود والصدر (١٩) ، وهو طريق تجارة الذهب مع اودغست وغانه بالخصوص •

ونود الاشارة الى البضائع التى كانت تحملها القوافل التجارية المتجهة الى سجلماسة ، أو المنطلقة منها ، وقد رأينا أن الضرائب الموظفة على صادرات ، وواردات المدينة ، وعلى ما يباع ويشترى من البضائع فى سوقها تمثل المورد المالى الرئيسى لخزينة الدولة المدرارية • اننا لا نملك قائمة كاملة بأنواع البضائع ، ولكن ما نقلته لنا كتب الجغرافيين العرب تعطى فكرة واضحة عن هذه البضائع •

ويلوح لنا أن اهم صادرات سجلماسة من المنتوجات الزراعية ، ومتنوجات الحرف اليدوية المختلفة كان نحو بلاد السودان ، وخاصة نحو مدينة اودغست ، وغانة ، وتكرور ، ومن هذه المنتوجات :

- القمح
- الثمار المجففة
- انواع التمور
- الزبيب
- المنسوجات
- النحاس المصنوع
- الخــــرز
- المــــلح

ويجلب من بلاد السودان : الذهب والرقيق ، والعنبر ، واشجـار الصمغ من جبل يشرف على مدينة اودغست ، ويصمغ بها الديباج ، ويصدر هذا الشجر عن طريق سجلماسة الى الاندلس (٢٠).

يتحدث الحميرى عن تكرور فيقول : « واليها يسافر أهل المغـرب الاقصى بالصوف والنحاس والخرز، ويخرجون منها بالتبر والخدم (٢١). ويحدثنا البكرى عن ثراء سكان اودغست قائلا : « وكانت لهم أموال عظيمة ورقيق كثير كان للرجل منهم الف خادم واكثر (٢٢) ، ومن المعروف أن العملة المتداولة فى اودغست هى التبر الخالص ولا يستعملون الفضـة الفضة ، فالقوافل التجارية القادمة من سجلماسة بأنواع البضائع المذكورة تعود ببضاعتين أساسيتين : الذهب والرقيق .

ويصدر الى أودغست القمح ، والثمار ، والزبيب ، كما يتجهز اليها بالنحاس المصنوع وبثياب مطبغة بالحمراء والزرقة مجنحة ، ويجلب منهـا

العنبر المخلوق الجيد لقرب البحر المحيط منهم والذهب الابريز الخالص خيوطا مفتولة ، وذهب اودغست اجود من ذهب الارض واصحة » (٢٣) وينقل لنا صاحب الاستقصا نصا عن الشريشي يصور لنا بدقة اهمية نوع التبادل التجارى بين سجلماسة وغانة ، فيقول : « وقال الفقيه الاديب ابو العباس احمدبن عبد المؤمن القيسى الشريشي في شرح المقامات الحريرية، ما نصه : غانه بلد من بلاد السودان ، واليها ينتهى التجار يعنى من المغرب ، والمدخل اليها من سجلماسة ، ومن سلجماسة اليها ذهابا ميسرة ثلاثة اشهر، ومن غانة الى سجلماسة ايابا مسييرة شهر ونصف ، وذون ذلك • وسبب ذلك ان الرفاق تتجهز اليها من سلجماسة بالامتعة والاثقال فتباع فى غانة بالتبر فمن سافر اليها بثلاثين جملا يرجع منها بثلاثة احمال ، أو بحملين : واحد لركوبه ، وثان للماء بسبب المفازة التى في طريقها ، حدثنى غير واحد من تجارها انهم يقطعون المفازة فى ستة عشر يوما لا يرون فيها ماء الا على ظهور الابل ، فأثمان احمال الثلاثين جملا يجتمع فيها من التبر ما يجعل فى مزود واحد فيطوون المراحل للخفة (٢٤)•

ولا نغفل في حديثنا عن نوع البضائع المتبادله بين المغرب الاقصى ، سرورا بسجلماسة ، وبين بلاد السودان عن الاشارة الى بضاعة ثمينة ونادرة في المناطق الافريقية جنوب الصحراء،وهي الملح وكان مصدر اللربح الوافرة، والحصول على كميات من الذهب ، (وربما بلغ الحمل الملح فى دواخل بلد السودان واقاصيه مابين مائتين الى ثلاثمانة دينار » (٢٥) •

اما العلاقات التجارية مع بلاد المشرق والاندلس فهي تشمل البضائع المتبادله بين التجارية فى ذلك العصر ، ويحتل الذهب والرقيق المكانة الاولى فى صادرات سجلماسة نحو الشمال والشرق ، وقد اشتهر الثياب السجلماسى بين المنتوجات الصناعية للمدينة ، ويبدو ان تطور صناعة النسيج بها جعلها تحتاج الى توريد القطن الاشبيلى الشهير بالرغم من اننا نجد القطن ضمن المنتوجات الزراعية للواحة ، يقول الحميرى متحدثا عن أشبيلية

« والقطن يجود بارضها ، ويعم بلاد الاندلس ، ويتجهز به التجار الى افريقية ، وسجلماسة ، وما والاها » (٢٦) .

ونجد ميناء تابحريت على شواطىء البحر الابيض المتوسط من الموانيء الشهيرة التى استعملت فى تصدير البضاعة الواردة من سجلماسة ، يقول عنها الحميرى : » وهي محط للسفن ، ومقصد لقوافل سجلماسة وغيرها » (٢٧) .

ويتساءل المرء في هذا الصدد عن نقطة ذات شأن فى حركة التبادل التجارى ، ونعنى هنا نوع العملة المتداولة ؟

فقد مرت بنا اشارة الى ان الشاكر لله تلقب بامير المؤمنين ، وضرب الدنانير والدراهم الشاكرية ، وتحدث بان حوقل عن دار الضرب في عهد المعتز .

وقد كانت عملة سجلماسة قوية وشهيرة تجاوز التعامل بها حدود الواحة واعمالها ، حيث اننا نجد الخليفة الاموى عبد الرحمن الناصر يدفع للتجار الذين تعهدوا بجلب الرخام من قرطاجنة وتونس الى مدينة الزهراء بقرطبة ، بعد ان شرع في بنائها سنة ٣٢٥هـ ،مقابل عملتهم الدينار السجلماسي. قال ابن عذارى : « وكان الناصر يصلهم على كل رخامة بثلاثة دنانير ، وعلى كل سارية بثمانية دنانير سجلماسية » (٢٨) ، وتحافظ العملة السجلماسية على شهرتها عدة قرون ، فبعد ان رأينا الخلافة الاموية فى قمة مجدها تستعمل الدينار السجلماسى ، نجد الاندلس في عهد السعيدين الرشيد الموحدى تتعامل بالدنانير السجلماسية المعروفة بالدنانير العشرية (٢٩) .

ان التعرف بدقة على هذا الدور الخطير الذى لعبته التجارة في هذه المدينة الاسلامية ، وما ادى اليه من تجمع لرأس المال ، وترف اجتماعى

تمثله فئات اجتماعية جديدة يعتمد نشاطها الاقتصادى اساسا على التجارة ، متحرره من السيطره الاقتصادية لهياكل الاقطاع الاسلامى يسمح لنا فى المستوى التنظيرى بطرح التساؤل التالى :

ألا تمثل فئات التجار هذه الملامح الجنينية للمجتمع الرأسمالى التجارى المبكر ؟

الحياة الاجتماعية :

ولا مناص من التعرض الى بعض مظاهر الحياة الاجتماعية فى نهاية هذه الدراسة ، بالرغم من ندرة المعلومات الواردة خلال وصف بعض الجغرافيين العرب والتى تكشف عن بعض جوانب الحياة الاجتماعية. واول ما يعترض سبيلنا فى هذا الصدد العناصر السكانية للمدينة ، فقد رأينا الفئات الطاغية بينهم تتألف من البربر ، وقد انحدروا اليها من البادية المجاورة للمدينة الجديدة ، ونقلوا اليها كثيرا من عاداتهم وطباعهم ، يحدثنا البكرى عن القبائل التى قسم عليها أبو منصور اليسع بن مدرار سنة ٢٠هـ احياء المدنية فيقول : « وهم يلتزمون النقاب فاذا حسر احدهم عن وجهه لهم يميزه احد من أهله » (٣٠) ، ولكن التقدم العمرانى السريع الذى عرفته المدنية خلال القرن الثالث الهجرى ، واستقرار فئات اجتماعية جديدة نزحت اليها من مدن شرقية شهيرة مثل البصرة ، والكوفة ، وبغداد أثر كل ذلك مع تعاقب الاجيال فى أخلاق سكانها الاولين ، وجعلهم يتطبعون بطباع أهل المدر ، بل بطباع سكان المدن الكبرى المزدهرة عصرئذ ، ويتحدث ابن حوقل عن مظهرهم وأخلاقهم بعد ان زار المدينة سنة ٣٤٠هـ فيقول : « ... وأهلها قوم سراة مياسير يباينون أهل المغرب فى المنظر والمخبر مع علم وستر وصيانة وجمال واستعمال للمرؤة وسماحة ورجاحة » (٣١) ، ثم يواصل وصفة للازدهار التجارى وخلق الاهالى قائلا : « ...

مع تجارة غير منقطعة منها الى بلد السودان ، وسائر البلدان ، وارباح متوافرة ، ورفاق متقاطرة ، وسيادة في الافعال ، وحسن كمال في الاخلاق والاعمال يخرجون برسومهم عن دقة أهل المغرب فى معاملتهم وعاداتهم الى عمل بالظاهر كثير ، وتقدم في افعال الخير شهير ، وحنو بعض على بعض من جهة المروءة والفتوة ، وان كانت بينهم الحنات والترات القديمة تواضعوها عند الحاجة ، واطرحوها رئاسة وسماحة ، وكرم سجية تختصهم ، وأدب نفوس وقف عليهم بكثرة أسفارهم ، وطول تغربهم عن ديارهم وتعزبهم من اوطانهم ، ودخلتها سنة أربعين فلم أر بالمغرب اكثر مشائخ في حسن سمت ، وممازحة للعلم وأهله الى سعة نفوس عالية ، وهمم سامقة سامية » (٣٢) •

ومن مظاهر الترف الاجتماعي انتشار الحمامات بها ، وقد وصفها البكرى بانها رديئة البناء ، غير محكمة العمل ، ولم يحدد لنا عددها ، ووفرة الرقيق ، وهو أمر طبيعى ، لانه كان يمثل البضاعة الاساسية الى جانب الذهب في العلاقات التجارية للمدينة مع بلاد السودان ، ولا سيما مع أودغست (أو اودغشت) (٣٣) ، وغانة •

واشتهر جوارى اودغست بمزايا كثيرة منها المهارة فى الطبخ • يقول الحميري : « ويجلب منها سودانيات طباخات محسنات تباع الواحدة منهن بمائة دينار كبار وأزيد لحسن عمل الاطعمة الطيبة ، ولاسيما اصناف الحلاوات مثل الجوزينيات واللوزينجات ، والقاهرات ، والكنافات ، والقطائف والمشهدات ، واصناف الحلاوات ، فلا يوجد أحذق بصنعتها منهن » (٣٤) •

وهكذا اصبح الفرق شاسعا بين حياة المدينة ، وقد أثرت الثروة التجارية فى مبانيها ، وفنها المعمارى ، وفى الحياة الاجتماعية لسكانها التى عرفت أنواعا من الترف ، وحياة القبائل الرحل في البوادى الصحراوية ، تلك الحياة التى يصفها بن حوقل بدقة ، بعد ذكره للمدن والمناطق المسكونة

فى أرض المغرب ، فيقول : « ... وما عداه وأوغل في براري سجلماسة ، وأودغست ، وتادمكة الى الجنوب ، ونواحى فزان ، ففيه مياه عليها قبائل من البربر المهملين الذين لا يعرفون الطعام ، ولا رأوا الحنطة ولا الشعير ، ولاشيئا من الحبوب ، والغالب عليهم الشقاء والاتشاح بالكساء ، وقوام حياتهم باللبن واللحم » (٣٥) .

ان نص ابن حوقل المذكور ـ وهو شاهدعيان ـ يكشف بوضوح مظاهر الترف والتقدم الاجتماعى الذى بلغته سجلماسة في القرنين الثالث والرابع ، ولاغرو فى ذلك اذا عرفنا اهمية الفئات التجارية فى المدينة ، وهي مدينة تجارية اولا وبالذات ، كما سنرى ولم يقتصر الجغرافي الشيعي على وصف مظاهر الثراء ، بل نقل لنا معلومات عن سمو الاخلاق وحسن سمت شيوخها ، وعن جمال سكانها .

ويبدو ان كثرة الفتن التي عاشتها المدينة ابتداء من نهاية القرن الرابع الهجري ، وتدهورها الاقتصادي ، وغارات القبائل الرحل عليها بعد ان فقدت قوتها العسكرية التي كانت تحميها أثرت كل هذه العوامل في مظاهر الحياة الاجتماعية التي يقدم لنا عنها الشريف الادريسي في النصف الاول من القرن السادس الهجري صورة قاتمة بالمقارنة الى اللوحة الوصفية التي نقلها لنا ابن حوقل قبلة بقرنين (٣٦) .

لمحنا قبل قليل الى استقرار فئات اجتماعية جديدة بالمدينة تتمثل فى التجار المسلمين الذين أتوا اليها من مدن اسلامية شهيرة في المشرق مثل البصرة والكوفة وبغداد ، وقد أمها أيضا تجار من مدن المغرب والاندلس ولكننا نجد الى جانب هذه الاقليات الاسلامية اهل الذمة ، ولاسيما اليهود، وقد اصبح لهم دور فعال فى الحياة التجارية ، ولاسيما فى تجارة الذهب خلال القرن الثالث الهجرى أدى الى سيطرتهم على الحياة الاقتصادية بالمدينة من جهة ، والى نقمة السكان عليهم ، وقد استغلوا دخول الجيش الفاطمى للمدينة بقيادة عبد الله الشيعي سنة ٢٩٥ هـ للانتقام منهم ، ومر تجارهم

بمحنة شديدة ، فقد أمر ابو عبد الله بقتل اغنيائهم ، واخذ اموالهم ، وفرض على جميع سكان المدينة من اليهود الذين يرغبون في الاقامة بها :

امتهان احدى الحرفتين : الكنافة أو البناء ، ويعلل صاحب الاستبصار ذلك قائلا : « والسبب في تسخير اهل سجلماسة لليهود فى هاتين الحرفتين الرذيلتين كونهم مجين فى سكنى بلدهم للاكتساب لما علموا ان التبر بها أمكن منه بغيرها من بلاد المغرب لكونها بالمعدنة ، فهم يعاملون التجار بـه ليخدعوهم بالسرقة وانواع الخدائع ، ولما علم منهم ابو عبد الله الداعي ماهم عليه من ذلك عند استخراج عبد الله من سجن اليسع بن مدرار بها ، وكان الذى نص عليه ، ونم به لليسع يهودى • وحكى عبيد الله لابن عبد اللـه ماجرى له معه قتل منهم الاغنياء ، واخذ اموالهم بالعذاب ، وامر من شـاء ان يقيم منهم بالبلد فى ان يتصرف في هاتين الخلتين ، فمن دخل في الكنافين من اصناف الناس سموهم المجرمين لاجترامهم على حرفة موقوفة على اليهود ، وقصروا البناء عليهم خاصة لانهم خائفون أبدا من أن يخون احدهم المسلم فيهلكه ، فهم ينصحونهم فى البناء ، ويلازمون الخدمة دون خروج لفرائض الصلوات ، ولا لغير ذلك من ملازم العبادات ، فتأتى خدمتهم موفرة سريعة ، وهم الآن قد مازجوا المسلمين وداخلوهم ، وهو العز الذي كانوا يرتقبونه في سالف الازمان ، وبعده الزلة الدانية القاصمة ان شاء الله لظهورهم المستأصلة لشأفتهم عما قريب » (٣٧) •

ان المحنه التى مربها يهود سجلماسة بعد استيلاء الفاطميين عليها لـم تدم طويلا حسب نص صاحب الاستبصار ، قد عادوا الى دورهم البارز فى الحياة الاقتصادية ، وقد استمر هذا الدور ، ويبدو أن الزلة الدانية التى انتظرها الجغرافي المراكشي لم تحدث ، لاننا نجد خازن المال بسجلماسة أيام الخليفة الموحدى السعيد هو ابن شلوخة اليهودى ، كما ان صمويل الفاسى جبـر

مراكش الذى اعتنق المسيحية ايام المرابطين ، وسمى Sommel Marrochitanus قد شغل منصبا ذا شأن في بيعة سجلماسة (٣٨) •

أما أهل الذمة من النصارى في سجلماسة فلم تنقل لنا المصادر عنهم شيئا ، ولا سيما ايام الدولة المدرارية ، والاشارة الوحيدة عن وجودهم بالمدينة ما ذكرناه من الفتنة التى أثارها انصار الخليفة الموحدى السعيد سنة ٦٤٢ هـ بين النصارى والمسلمين قرب باب التنصبة ليتمكنوا من الدخول اليها ، والقضاء على ابن زكريا الهزرجى الثائر على السلطة الموحدية •

ان ما نأمله من عثور الدارسين يوما على كتب طبقات علماء سجلماسة ، والمصنفات المذهبية والفقهية التي ألفها علماء دعوة الخراورج الصفريين بسجلماسة سيسمح بالمزيد من التعرف الدقيق والشامل للحياة الاجتماعية في هذه المدينة الاسلامية التي احتلت مكانة بارزه فى عصور ازدهار المغرب الاسلامى •

المصـــادر والمراجع

(١) المغرب ، الجزائر ١٨٥٧ ، ص ١٤٨ .

(٢) انظر : نزهة المشتاق ، ليدن ١٨٠٤ ، ص ٦٠ وما يليها .

(٣) معجم البلدان ، بيروت ١٩٦٣ ج ٣ ، ص ١٩٢ .

(٤) صورة الارض ، بيروت بدون تاريخ ، ص ٩٠ .

(٥) نفس المصدر ، ص ١٠٠ .

(٦) المغرب ، سبق ذكره ، ص ١٤٧ .

(٧) الدرجيني نسبة الى درجين ، وهى مدينة قديمة بقرب نقطة ، وهى آخر بلاد الجريد ، انظر : الاستبصار ، سبق ذكره ص ١٥٩ .

(٨) معجم البلدان ، سبق ذكره ، ج ٣ ، ص ١٩٢ .

(٩) المغرب ، سبق ذكره ، ص ١٥٥ .

(١٠) معجم البلدان ، سبق ذكره ، ج ٣ ص ١٩٢

(١١) المغرب ، سبق ذكره ، ص ١٥١

(١٢) صورة الارض ، سبق ذكره ، ص ٩٥ .

(١٣) نفس المصدر .

(١٤) موضع رملى فى بلدزناته يحفر فيه فينبعث الماء على ذراع ونحوه ، انظر البكرى ، المغرب ، سبق ذكره ، ص ١٤٦ .

(١٥) نفس المصدر ، ص ٨٨ انظر ايضا : الروض المعطار ، سبق ذكره ، ص ٦٠٨ .

(١٦) نفس المصدر ، ص ٧٧ .

(١٧) نفس المصدر ، ص ١٤٥ وما يليها .

(١٨) راجع نفس المصدر ، ص ١٥٢ وما يليها .

(١٩) صورة الارض ، سبق ذكره ، ص ١٠٠ .
يصف البكرى طريقا صحراويا بين تادمكت والقيروان عن طريق وارجلان ، ثم قسطيلية ، وطريقا صحراويا آخر بين تادمكت ،

وغدامس ، ثم جبل نفوسة فطرابلس ، انظر المغرب ، سبق ذكره ، ص ١٨٢ . ويبدو ان طريق تجارة الذهب والرقيق ولا سيما نحو اودغست وغانة كان يمر بصورة اساسية بسجلماسة فى العصر المدرارى ، فهو الطريق الذى تكاد تقتصر عليه معلومات الجغرافيين العرب فى القرنين الثالث والرابع .

(٢٠) راجع : ابكرى ، المغرب ، سبق ذكره ، ص ١٥٨ .

(٢١) الروض المعطار ، بيروت ١٩٧٥ ، ص ١٣٤ .

(٢٢) المغرب ، سبق ذكره ، ص ١٦٨ .

(٢٣) المصدر السابق ، ص ١٥٩ ، ولعل الصواب « من اجود ... » .

(٢٤) الاستقصا ، الدار البيضاء ١٩٥٤ ، ص ٩٩ وما يليها .

(٢٥) ابن حوقل ، صورة الارض ، سبق ذكره ، ص ٩٨ .
انظر : البكرى ايضا ، سبق ذكره ، ص ١٧١ .

(٢٦) ابروض المعطار ، سبق ذكره ، ص ٥٩ .

(٢٧) نفس المصدر ، ص ١٢٧ ، انظر البكري ايضا ، المغرب ، سبق ذكره ، ص ٨٧ .

(٢٨) البيان المغرب ، بيروت ١٩٤٨ ، ج ٢ ، ص ٢٣١ .

(٢٩) راجع : عبد العزيز بنعبد الله سبق ذكره ، ص ٢١ .

(٣٠) المغرب ، سبق ذكره ، ص ١٤٨ .

(٣١) صورة الارض ، سبق ذكره ، ص ٩٠

(٣٢) نفس المصدر ، ص ٩٦ ، وما يليها .

(٣٣) راجع عن « اودغست » البكرى ، المغرب ، سبق ذكره ، ص ١٥٦ وما بعدها ، الاستبصار ، سبق ذكر ، ص ٢١٥٦ وما يليها ، الروض المعطار ، سبق ذكره ، ص ٦٣ وما يليها ، دائرة المعارف الاسلامية ، الطبعة الفرنسية الجديدة ، ج ١ ، ص ٧٨٥ مع قائمة مراجع .

(٣٤) الروض المعطار ، سبق ذكره ، ص ٥٤ .

(٣٥) صورة الارض ، سبق ذكره ، ص ٨٤ .

(٣٦) انظر : نزهة المشتاق ، سبق ذكره ، ص ٦١ .

(٣٧) الاستبصار ، سبق ذكره ، ص ٢٠٢ ، ونجد نفس النص تقريبا فى « الروض المعطار » سبق ذكره ، ص ٣٠٦ .

(٣٨) وهو مؤلف كتاب "De deventin Messiaequem" وقد ترجم لاول مرة من العربية الى اللاتينية عام ١٣٣٩ م بباريس بقلم الدومينيكان Alfphonse Bonhomme، انظر : عبد العزيز بنعبد الله : « الموسوعة المغربية ، للاعلام البشرية والحضارية « معلمة الصحراء » ، الرباط ١٩٧٦ ، ص ١٢١ .

العصور الوسطى الاوروبية
حدودها الزمنية والنظريات التي قامت حول بدايتها

دكتور جوزيف نسيم يوسف
استاذ تاريخ العصور الوسطى

جاءت العصور الوسطى الاوروبية بعد العصر القديم لتقطع من تاريخ الانسانية حوالى عشرة قرون من الزمان . وهناك كثير من الآراء والافكار والنظريات التى قامت حول بداية تلك العصور ونهايتها . ولكنها تبدأ ، عادة، بالقرن الخامس وتنتهى بالقرن الخامس عشر أو السادس عشر الميلادى . تبدأ بسقوط روما وانهيار الامبراطورية الرومانية القديمة على ايدي الجرمان البرابرة سنة ٤٧٦ م وتنتهى بسقوط القسطنطينية في ايدى الاتراك العثمانيين سنة ١٤٥٣ م ، او بحركة الاصلاح الدينى فى الغرب التى تزعمها مارتن لوثر فى القرن السادس عشر .

ويقسم المؤرخون الغربيون الحدثون تلك العصور الى حقبتين متميزتين : العصور المظلمة وتقع بين عامى ٤٠٠ و ١٠٠٠ م ، والعصور الوسطى الحقيقية وتشغل القرون الخمسة او الستة التالية . والحقبة الثانية تنقسم بدورها الى فترتين لكل منهما خصائصها وسماتها وان كانتا متصلتين بطبيعة الحال : الفترة الاولى وتشغل الحقبة الوسيطة من التاريخ الوسيط ، وتقع فيما بين القرنين الحادى عشر والثالث عشر للميلاد . والثانية وتشغل القرنين او القرون الثلاثة التالية ، وهى التى تعرف بالعصور الوسطى المتأخرة . والجدير بالذكر ان هذا التقسيم لا يعنى على الاطلاق انه يوجد خط فاصل بين هذه الفترات ، اذ كانت متصلة وان تميزت كل

فترة منها بخصائص معينة • ثم انه لا يجوز القول بأنه يوجد تمييز محدد واضح بين التاريخ الوسيط من ناحية وبين كل من العصر القديم والعصر الحديث من ناحية اخرى ، اذ تداخلت عناصر الفكر فى بعضها فى مختلف عصور التاريخ (١) •

لقد بدأت العصور الوسطى فى اوروبا بالقرن الخامس عندما وقعت غارات المتبربرين على الدولة الرومانية القديمة، وكانت آنذاك شبحا متهالكا، ثم انهال اولئك القوم آخر الامر فى جوف هذه الدولة المحتضرة ، وقضوا عليها وعلى نظمها وحضارتها ليقيموا على انقاضها ممالك جديدة جرمانية لها انظمة وحضارة جديدة مغايرة (٢) •

كان هذا يعني ـ بكلمة مختصرة ـ نهاية عصر بأنظمته وقوانينه وتقاليده وحضارته ، وبداية عصر جديد له نظمه وقوانينه الخاصة به • فقد تحطم جهاز العمل الرومانى ، وانهار من اساسه ذلك الصرح الشامخ في السياسة والدين والاجتماع والاقتصاد والفلسفة الذى كان سائدا عند الرومان القدماء ، لتحل محله انظمة مغايرة وامم جديدة لها حضارتها وتفكيرها ومشاكلها الادبية والمادية والاجتماعية الخاصة بها (٣)

وقبل تناول موضوع التحديد الزمنى للعصور الوسطى الاوروبية ، والنظريات التى قامت حول بدايتها ، يحسن ان نمهد لذلك بكلمة سريعة عن تقسيم التاريخ نفسه الى حقب وعصور •

ان مسألة تقسيم التاريخ الى عصور وتحديد بداية ونهاية لكل عصر، مسألة صعبة معقدة ثار حولها الكثير من الجدل بين المؤرخين وواضعي النظريات، ولم يصلوا فيها الى نتيجة حاسمة قاطعة • ولقد اتضح بعد دراسات طويلة مضنية ان التاريخ ليس له بداية او نهاية ، وان تحديد البدايات والنهايات لمختلف العصور التاريخية انما هو محاولة اجتهادية تقليدية جرى عليها الكتاب والمؤرخون بقصد تسهيل دراسة التاريخ وتقريبه الى الافهام قدر الاستطاعة •

وعلى هذا يواجه الباحث الذى يتناول بالدراسة اى فترة تاريخية مشكلة التحديد الزمنى لها ، واين يضع ذلك الخط الواضح الذى يفصل بينها وبين الفترات السابقة عنها واللاحقة لها • وليس هذا بالامر الهين او اليسير ، لان التاريخ عبارة عن سلسلة متصلة الحلقات من الحقائق والاحداث المتراصة المترابطة التى لا يمكن تفتيتها او تجزئتها او فصلها عن بعضها ، وان كل فترة من فترات التاريخ ما هى الا عصر تغير وانتقال من السابق الى اللاحق • ومع ذلك فقد اتفق على تقسيم التاريخ الى ثلاثة عصور رئيسية هى : القديم والوسيط والحديث ، كما اتفق على تحديد كل عصر تحديدا زمنيا دقيقا • ولكن يجب ان نفهم جيدا ان هذا التحديد الجاف لايعنى بحال من الاحوال ان فترة ما تنتهى في يوم معين معلوم وان فترة اخرى تعقبها فى اليوم التالى تختلف عنها فى قوانينها وانظمتها من سياسية ودينية وثقافية واقتصادية واجتماعية وغيرها •

فعندما نقول ، مثلا ، ان العصور الوسطى تبدأ فى القرن الخامس وتنتهى فى القرن الخامس عشر للميلاد ، او انها تقع على وجه التحديد بين عامى ٤٧٦ م و ١٤٥٣ م فان ذلك لا يعنى بحال ان التاريخ القديم بحضارته وانظمته فى الدين والفلسفة والفكر والقانون والاقتصاد والاجتماع قد انتهى فجأة وبدون سابق انذار سنة ٤٧٦ م ، او أن العصور الوسطى بمثلها ومبادئها ونظمها وتقاليدها قد زالت نهائيا سنة ١٤٥٣ م • فلا يمكن ، فى الواقع ، تحديد يوم بالذات او سنة بعينها كنهاية للتاريخ القديم وبداية للعصر الوسيط او كنهاية للقرون الوسطى وبداية لعصر النهضة والعصر الحديث • فمما لا شك فيه أن عناصر التاريخ القديم قد استمرت بعد سنة ٤٧٦ م لتؤثر في العصر الوسيط ، وان لم تكن بنفس القوة التى كانت عليها قبل انهيار الامبراطورية الرومانية القديمة • كما ان عناصر التاريخ الوسيط قد استمرت ، هى الاخرى ، بعد سنة ١٤٥٣ م لتؤثر فى عصر النهضة وان لم تكن بنفس القوة التى كانت عليها قبل انتهاء العصور الوسطى •

ولا يضاح هذه المسألة نقول ان دراسة اى عصر تعنى القاء الضوء على النظم والحضارة السائدة فيه ، من اجتماعية واقتصادية وسياسية ودينية وعسكرية وفكرية وغيرها • وليس من الحكمة القول بأن كل هذه المظاهر التى يتميز بها عصر ما تنتهى فى يوم بالذات لتحل محلها بشكل فجائى وعلى الطريقة المسرحية ، خصائص اخرى جديدة مغايرة • وعلى هذا فان قيام العصور والحركات الهامة فى التاريخ ، وان قيام الدول والامبراطوريات وانهيارها ، وان الاحداث الخطيرة التى تؤثر تأثيرا بالغا فى سير مجرى التاريخ البشرى — كل هذه لا يمكن ان تكون فجائية او بنت يوم وليلة ، انما هى عبارة عن عمليات تطور بطيئة مستمرة تحتاج الى فترات من الوقت ممتدة متباعدة •

ولقد سار المؤرخون على هذا النهج فى ابحاثهم ودراساتهم • وكانوا يختارون حادثة معينة او واقعة لها دلالتها او تاريخا له أهميته ،ليكون نقطة البداية او النهاية لفترة ما • والامثلة على ذلك عديدة • اذ يعتبر بعض المؤرخين سنة ٤٧٦ م التى قضى فيها البرابرة بصفة نهائية على شبح الامبراطورية الرومانية القديمة كبداية للقرون الوسطى الاوروبية ونهاية للتاريخ القديم • بينما يرى البعض الآخر ان عصر النهضة يبدأ بالشاعر الايطالى المعروف دانتى اليجييرى وملحمته الشعرية الكوميديا الالهية فى القرن الرابع عشر للميلاد ، او بحركة الاصلاح الدينى فى القرن السادس عشر • ويجعل بعض الكتاب الثورة الفرنسية او نتائج مؤتمر فينا بداية للعصر الحديث ، وهكذا (٤) •

وفي ضوء هذه الحقيقة يمكن ان ندرس العصور الوسطى الاوروبية التى اقتطعت من تاريخ البشرية حوالى عشرة قرون من الزمان • فيجب ان نعرف كيف ومتى بدأت ؟ وكيف ومتى انتهت ؟ ويجب ان نضع ذلك الخط الواضح الذى يفصل بينها وبين الفترات السابقة عنها واللاحقة لها ، وان كان من المسلم به بداهة ان عصور التاريخ عبارة عن حلقات فى سلسلة واحدة تمتد منذ القدم وحتى يومنا هذا •

ولقد تعددت النظريات والافكار فى هذا الصدد ، واختلفت آراء المؤرخين المعنيين بالتاريخ الاوروبى انوسيط حول هذه المسألة اختلافا عجيبا بينا ، وعلى رأس هؤلاء جورج جوردون كولتون G. G. Coulton وسيدنى بينتر S. Painter ، وجون لامونت J. LaMonte ، وستيفن رانسيمان S. Runciman ونورما بينز N. Baynes ، و و • ب • كير W. P. Ker ، فضلا عن الكثيرين غيرهم • وسنحاول فيما يلى عرض اهم النظريات التى قامت حول بداية العصر الاوروبى الوسيط •

الواقع انه توجد حدود فاصلة عديدة بصلح كل منها ان يكون بداية لدراسة تاريخ اوروبا فى العصور الوسطى • ولكل حادثة او واقعة او تاريخ ، ظواهر وخصائص ومميزات جعلت هذا المؤرخ او ذاك يأخذ برأى أو باخر كبداية لتلك العصور • وفيما يلى أهم النظريات التى أثيرت حول هذا الموضوع •

النظرية الأولى :

وضع بعض المؤرخين سنة ٢٨٤ م كنهاية لتاريخ الدولة الرومانية القديمة وبداية للعصور الوسطى الاوروبية ، وهى السنة التى تولى فيها الامبراطور الرومانى دقلديانوس Diocletian (٢٨٤ — ٣٠٥ م) عرش الامبراطورية • وهناك اكثر من سبب دعا لهذا الاعتبار • منها ان الامبراطور الرومانى اوغسطس Augustus (٣٠ ق • م — ١٤ م) كان قد وضع اساس القاعدة بأن الامبراطور هو اول رومانى حـر في روما • ولكن دقلديانوس نحا نحوا مغايرا • اذ اعتنق مبادىء الملكيــة الشرقية التى تجعل من الملوك اشخاصا فوق القانون وفوق الشــعب بل وتجعلهم فوق مستوى البشر • فهم اقرب للالهة منهم الى الناس • فالملك فى نظره نصف اله يجب انيؤدى له الشعب فروض الطاعة والعبادة والولاء • وهذا يعنى ان الاسس التى قام عليها التاريخ القديم بدأت تنهار لتحل محلها مثل وافكار وقيم جديدة •

ثم ان حكم دقلديانوس يرتبط بتلك الفظائع التى ارتكبها ضد المسيحية التى ظهرت في اخريات التاريخ القديم باعتبارها منافسا خطيرا لعبادة الامبراطور التى كانت سائدة وقتذاك ، وباعتبارها تهديدا لوحدة الامبراطورية ودولة داخل الدولة ومن الدواعي الاخرى التى دعت الى اختيار بداية حكم دقلديانوس كبداية للتاريخ الوسيط انه يعتبر حدا فاصلا بين زمنين منفصلين تقريبا • فقد كان هذا الرجل اول من فكر ، ولو نظريا ، فى امر تقسيم الامبراطورية الرومانية الى قسمين : احدهما شرقي والاخر غربي ذلك التقسيم الذى لم يأخذ شكله النهائى الطبيعي الا في عهد قسطنطين الكبير في اوائل القرن الرابع للميلاد • ومع ذلك يجب ان نفهم ان وجود حاكم فى الشرق وآخر في الغرب في عهد خلفاء دقلديانوس لم يضعف من وحدة الامبراطورية الرومانية بمعناها المعروف وقتذاك • بل كان هذا ، فى واقع الامر ، عبارة عن انفصال ظاهرى فقط • فقد كانت نفس القوانين والانظمة الحكومية ، بل ونفس التقاليد الرومانية معترفا بها آنئذ من كلا الحاكمين وفي كلا القسمين (٥) •

النظرية الثانية :

ويحدد بعض المؤرخين سنة ٣٢٣ م كبداية للعصور الوسطى ، وهى السنة التي اعتلى فيها الامبراطور قسطنطين الكبير Constantine I. TheGreat **(٣٠٥ — ٣٣٧ م) عرش الامبراطورية بعد قضائه على خصومه ومنافسيه في الشرق والغرب • ومن اهم الاسباب فى الاخذ بهذه النظرية ما يلي :**

اولا — التغييرات الاجتماعية والدينية الهائلة التي حدثت فى عهده كنتيجة لاعتراف قسطنطين بالديانة المسيحية كديانة رسمية للدولة بموجب مرسوم ميلان الشهير سنة ٣١٣ م — الذى اجاز رسميا اعتناق الدين الجديد واصبحت الكنيسة المسيحية هى كنيسة الدولة والامبراطور هو الرئيس الدينى الاعلى لها • وكانت هذه الخطوة انقلابا عظيم الشأن ترك آثاره

البالغة فى مجريات الامور والاحوال طيلة العصور الوسطى الاوربية .
مجريات الامور والاحوال طيلة العصور الوسطى الاوربية .

ثانيا ــ اقدام قسطنطين على خطوة لا تقل عن سابقتها شأنا ، وهي تأسيس مدينة القسطنطينية على الضفة الاسيوية للبسفور عند اتصاله ببحر مرمره، لتفى بمطالب العصر وحاجياته بعد أن فقدت روما أهميتها الكبيرة التى كانت تتمتع بها . ولذلك آثار بالغة الاهمية في مجرى التاريخ البشرى وقتئذ لان نقل الامبراطورية من الغرب الى الشرق ، وترك القياصرة الاقدمين روما الى القسطنطينية عند طرف أوروبا الاقصى ، كان معناه تأسيس دولة جديدة استمرت بعد سقوط الامبراطورية الرومانية القديمة اكثر من عشرة قرون ، ونعنى بذلك الامبراطورية الرمانية الشرقية او الدولة البيزنطية التي كان مقرها القسطنطينية او روما الجديدة تمييزا لها عن روما الغرب . ومن النتائج التى ترتبت أيضا على نقل كرسي الامبراطورية الى الشرق هو ترك روما وهجرها فأمسى الكرسي الامبراطورى في روما القديمة خاليا ، وبدأ الرومان ينظرون في زعامتهم الى البابا وكان وقتئذ اسقف روما . وهذا يفسر قوة البابوية فيما بعد وتطلعها الى زعامة العالم المسيحي دينيا ودنيويا ، ومحاولتها الاستيلاء على كل ما كان للامبراطور من حقوق وامتيازات في التاريخ القديم . كما ادى هذا دخولها فى كفاح عنيف مع القوى العلمانية فى الغرب الاوروبي بعد احياء الامبراطورية الغربية فى عصر شارلمان في القرن التاسع وتجديدها فى عهد اوتو الكبير في القرن العاشر الميلادى . وغني عن الذكر الاثار الوخيمة التي ترتبت على الكفاح المريرين عاهلى المسيحية الغربية حول المسائل الدنيوية .

ثالثا ــ يلاحظ ان السياسة الادارية والمالية التى استسنها قسطنطين، وكذلك تشريعاته وقوانينه واصلاحاته العسكرية ، قد ساعدت على تدعيم الامبراطورية الشرقية ، بينما انحدرت الامبراطورية الغربية امام سيل الجرمان البرابرة المتدفقين من الشمال والشرق (٦) .

النظرية الثالثة :

ويحدد فريق آخر من المؤرخين ، وعلى رأسة ستيفن رانسيمان ، سنة ٣٣٠م بالذات كبداية للتاريخ الاوروبى الوسيط بوجه عام. اذ ان قسطنطين الكبير بدأ فى تشييد مدينته فى نوفمبر سنة ٣٢٤م ، وتم تأسيسها بعدخمس سنوات ونصف عندما دشنها تحت اسم «روما الجديدة» أو «روما الثانية» فى ١١ مايو سنة ٣٣٠ م ، تمييزا لها عن روما الغرب . ومع ذلك فضل المؤرخون ، القدامى والمحدثون ، ان يسموها « القسطنطينية » نسبة الى مؤسسها (٧) .

النظرية الرابعة :

وثمة فريق آخر من المؤرخين يحدد سنة ٣٦١م كبداية للقرون الوسطى وهى سنة اعتلاء الامبراطور جوليان المرتد Julian, the Apostate (٣٦١ — ٣٦٣ م) عرش الامبراطورية الرومانية الشرقية، ومحاولته الفاشلة القضاء على الديانة الجديدة وهى المسيحية ، واعادة الوثنية من جديد كدين رسمى للحكومة . ويدل اخفاقة على ان تطورا خطيرا قد طرأ على العالم الاوروبى ، وعلى ان الديانة الجديدة كانت قد تأصلت جذورها فى كيان هذا العالم بشكل لايسمح لاحد حتى ولو كان الامبرطور نفسه ان يعود به الى الماضى الوثنى . وغير خاف ان تأصل الدين الجديد فى اوروبا ترك آثاره البالغة على مجريات الامور والاحوال فيها لمدة تزيد عن الف عام . وبكلمة اخرى تمثل هذه الفترة الصراع الرهيب بين الوثنية والمسيحية ، وبكلمة اوضح في التعبير ، بين نظامين مختلفين تماما عن بعضهما : اولهما يمثل القديم بكل مفاهيمه وافكاره ، والاخر يمثل الوسيط بكل اوضاعه وفلسفته(٨).

النظرية الخامسة :

ويحدد البعض سنة٣٧٦ م كنهاية للتاريخ القديم وبداية للعصر الوسيط على اساس انها كانت السنة التي تحول فيها احد العناصر الجرمانية ، وهو عنصر القوط الغربيين Visigoths من الوثنية الى المسيحية على يد

اسقف اريوس اسمه اولفيلاس Ulfilas • وترجع أهمية هذا التاريخ في نظر المؤرخين الى اهتمامهم الزائد بموضوع الجرمان البرابرة وما كان لهم بعدئذ من القوة والجبروت في غزواتهم التى اكتسحوا بها روما ، ويمكن الاخذ بهذا التاريخ كنقطة تحول لمجرى التاريخ العام • فاعتناق القوط الغربيين المسيحية ، جعل اباطرة الدولة الرومانية الشرقية يسمحون لهم بعبور نهر الدانوب والاستقرار بصفة مؤقتة فى جوف الامبراطورية • وكان هذا من البدايات التى تدل على غزوات البرابرة في أوروبا فيما بعد وما ترتب عليها من آثار (٩) •

النظرية السادسة :

ويضع بعض المؤرخين المعنيين بهذا الموضوع سنة ٣٧٨ م كمدخل للتاريخ الاوروبي الوسيط ، وذلك لوقوع معركة من المعارك الهامة الحاسمة في التاريخ الاوروبي بين القوط الغربيين وبين جيوش الامبراطور البيزنطى فالنس Valens (٣٦٤ ــ ٣٧٨ م) بجوار مدينة ادرنة • وقد سميت الموقعة باسم تلك المدينة ، وفيها الحق القوط الغربيون هزيمة ساحقة بالجيش البيزنطى كانت لها مضاعفاتها واثارها الخطيرة • وقد اعتبرت هذه المعركة لفترة طويلة احدى المعارك الفاصلة في التاريخ (١٠) • ويرى احد المؤرخين الحديثين ، وهو سولومون كاتز S. Katz ، ان سنة ٣٧٨ م تعتبر البداية الحقيقية للغزوات الجرمانية فى أوروبا ، وبالتالى حدا فاصلا بين العالمين القديم والوسيط (١١) •

النظرية السابعة :

بينما تضع فئة أخرى من المؤرخين سنة ٣٩٥ م كنقطة التحول الى التاريخ الاوروبي الوسيط ، على اساس ان الامبراطور ثيودوسيوس الكبير Theodosius I, the Great (٣٧٩ ــ ٣٩٥ م) قسم في هذه السنة التى اختتم بها حكمه ، الامبراطورية الرومانية التى كانت لا تزال تحت حكم شخص واحد ، الى قسمين منفصلين مستقلين تماما عن بعضهما ،

وليس كما سبق في عهد دقلديانوس لان تقسيمة هو واتباعه للامبراطورية كان تقسيما صوريا فحسب • اذ كانت الامبراطورية تحت حكم ثيودوسيوس لا تزال وحدة واحدة في مجموعها على الرغم من انقسامها انقساما فرعيا الى فرعين • ولكن ثيودوسيوس قسمها الى قسمين : احدهما غربى والاخر شرقى • وقد اعطى الجزء الشرقي لابنه اركاديوس Arcadius ، والجزء الغربي لابنه الاخر المسمى هونوريوس Honorius • واصبح كل منهما مستقلا عن الاخر ، واسس لنفسه دولة واسرة قائمة بذاتها • وهذا يعنى – بكلمة مختصرة – بداية دولة جديدة فى الشرق في الوقت الذى كانت فيه دولة الغرب في طريقها الى التدهور والانهيار امام جحافل الجرمان البرابرة (١٢) •

النظرية الثامنة :

فكرة اخرى قال بعض المؤرخين ، هى ان سنة ٤١٠ م تعتبر بداية العصور الوسطي ، على اساس القوط الغربيين تحت قيادة ملكهم الشهير المسمى الاريك Alaric يكتسحون مقدونية وما وراءها من الاراضي اليونانية في سنة ٤٠٠ م • الا أن القائد الرومانى المدعو ستيليكو Stilichol قام بحركة دفاعية ضد هذا العنصر من البرابرة وهزمهم شر هزيمة سنة ٤١٠ م • فاضطر هؤلاء ان يبحثوا لهم عن موضع اخر يلتمسون فيه سبل الرزق والاقامة ، فاتجهوا غربا الى ايطاليا • وكان دخول القوط الغربيين ايطاليا له اهميته الكبرى في التاريخ ، بحيث جعل بعض المؤرخين يعتمدون على هذه الحقيقة في بداية التاريخ الاوروبى الوسيط • وذلك انه في سنة ٤١٠ م تمكن هؤلاء البرابرة من اكتساح ايطاليا بما فيها روما نفسها ، وهذا يعنى نهاية عصر وبداية عصر اخر فى تاريخ أوروبا (١٣) •

النظرية التاسعة :

ويرى غالبية المؤرخين ان سنة ٤٧٦ م هى اصلح وانسب بداية لتاريخ القرون الوسطى الاوروبية ، لان هذه السنة تعتبر اخر العهد بالامبراطورية الرومانية القديمة في الغرب • فاستيلاء البرابرة على روما نهائيا وقضاؤهم

على شبح الامبراطورية الرومانية الغربية في شخص آخر اباطرتها الضعاف وهو رومولوس اوجستولوس Romulus Augustulues في تلك السنة عندما ارسل القائد الجرماني أدواكر Odoacer شارات تلك الامبراطورية من روما الى الجالس على عرش القسطنطينية في الشرق ، وهو وقتذاك الامبراطور زينو Zeno (٤٧٤ ـ ٤٩١ م) ـ كان يعني انتهاء الانفصال الظاهرى الذى حدد خطوطه دقلديانوس ومن جاء بعده من الاباطرة ، ثم عززه قسطنطين الكبير في بدايات القرن الرابع واكده ثيود وسيوس الكبير فى اواخر ذلك القرن • وهكذا اصبح الانفصال في بدايات القرن الرابع واكده ثيود وسيوس الكبير في اواخر ذلك القرن • وهكذا اصبح الانفصال حقيقة واقعة • والنتيجة ان حقوق الحاكم الغربي انتقلت الى الجالس على عرش القسطنطينية في الشرق • وبذلك تنتهي الامبراطورية الرومانية القديمة بحضارتها ونظامها العتيق ، وبنهايتها تبدأ العصور الوسطى بأفكارها وفلسفتها (١٤) •

النظرية العاشرة :

وترى مجموعة اخرى من المؤرخين ان عهد الامبراطور جستنيان الاول Justinian I (٥٢٧ ـ ٥٦٥ م) هو الذى يميز نهاية التاريخ القديم وبداية العصر الوسيط في اوروبا •

ذلك أن حكمه اتسم بسمة هامة اضفت عليه طابع الوحدة ، ونعنى بذلك محاولاته لاسترداد املاكه الضائعة التى استولى عليها الجرمان فى غرب اوروبا ، وهى ايطاليا التى كانت تحت سيطرة القوط الشرقيين ، واسبانيا التى كانت في قبضة القوط الغربيين ، وشمال افريقية التى كانت في ايدى الوندال Vandals ، وجهوده في هذا المضمار لاعادة الامبراطورية الى ما كانت عليه ايام اسلافه الرومان القدماء • وبمعنى اخر اكثر وضوحا تعتبر هذه الفئة من المؤرخين ان جستنيان ، عند تقيم محاولته

هذه ، يعتبر اخر اباطرة الرومان وبداية عهد جديد • ويكفي ان المعاصرين له اعتبروا ، بعد نجاحه فى حملاته في ايطاليا واسبانيا وشمال افريقية ، انه أحيا الامبراطورية من جديد ، وان اثبت الواقع بعد موته خلاف ذلك(١٥)

النظرية الحادية عشرة :

وهنـاك فئة أخـرى من المؤرخين تجعـل مدخـل التاريخ الاوربى الوسيط ما بعد عهد جستنيان الاول ، اى ما بعد سنة ٥٦٥ م • اذ وضح للعيان منذ اواخر ذلك العهد انه لم يعد هناك امل على الاطلاق في احياء الدولة الرومانيةالتى قضى البرابرة عليهاوعلى معالمها وحضارتها ، وانشئوا دولا وممالك جديدة على انقاضها لها نظم وحضارة جديدة مغايرة • لقد اثبتت الاحداث ان الامل تلاشى في استرجاع ممتلكات تلك الدولـة في الغرب الاوروبى • واصبح من واجب الدولة الرومانية في الشرق التحول عن الطريق القديم الى طريق جديدة ترتبط بالوضع الجغرافي للجزء المتبقى من الدولة الرومانية • ولم يكن امامها الا أن تسلك هذا السبيل ، بمعنى انه كان يجب على تلك الدولة ان تتجه اتجاها شرقيا بيزنطيا طبقا لمقتضيات الظروف والاحوال الجديدة • ويكفى للتدليل على صحة هذا الرأى ، ان الاباطرة الذين جاءوا بعد جستنيان قد تركوا الغرب وممالكه الجرمانية تتكون تكوينا جديدا وتنمو على اساس يخالف الاساس الكى قامت عليه دولة الرومان القدماء • وقد حاول الامبراطور جستين الثانى Justin II (٥٦٥ ــ ٥٧٨ م) الذى خلف جستنيان اعادة الكرة ، لكنه فشل فشلا ذريعا ، وكانت النتيجة ان ذهب عقله (١) •

النظرية الثانية عشرة :

يذهب عـدد آخـر مـن الكتـاب • وعلـى رأسـهم جـون لامونت ، ان العصور الوسطي تبدأ في ليلة عيد الميلاد فى روما سنة ٨٠٠ عندما تم تتويج شارلمان او شارل العظيم Charles, the Great (٧٦٨ ــ ٨١٤ م) امبراطورا على الغرب على يد احد بابوات روما هـو البابا ليو الثالث Leo III (٧٩٥ ــ ٨١٦ م) ، وعندمـا تم احياء

الامبراطورية القديمة ، التى كانت قد انهارت في اخريات القرن الخامس ، تحت اسمجديد هو «الامبراطورية الرومانيةالغربيةالمقدسة» ، لتتلائم مع مقتضيات الظروف والاوضاع الجديدة المغايرة ، بعد قضـاء الجرمان والمسيحية على الوثنية والدولة الرومانية القديمة •

لقد كانت هذه هي الدولة الرومانية الجرمانية المسيحية الناشئة في الغرب • وحجة الفئة التى تأخذ بهذا الرأى ان شارلمان كان ــ فى الواقع ــ آخر اباطرة الرومان بالمعنى الرومانى القديم، وان فشل مشروعه لاحياءدولة القياصرة القدماء بضم الجزء الشرقى الى أملاكه،لهو برهان واضحعلىأن ظروف العالم الأوروبي قد تغيرت تغيرا تاما لا يمكن العودة بها الـى الوراء (١٦) •ويرى المؤرخ نورمان بينزان هذه النظرية ، وانكانتتشبع رغبة مؤرخ النظريات السياسية او الباحث في تاريخ اوروبا الغربية ، الا انه ليس لهـا قيمة كبيرة بالنسبة للباحث المدقق في تاريخ الدولة الرومانيـة الشرقية (١٧) •

ومن عرضنا لهذه النظريات ، يتضح لنا انه في مثل هذه الموضوعات يدلى الكتاب والمؤرخون وواضعو النظريات السياسية كل بدلوه • فيحدد كل باحث التاريخ الذى يراه انسب من غيره من وجهة نظره ، مدعما اياه بالحجج والاسانيد • ولكل رأى ، بطبيعة الحال ، اعتباره ، وهناك ، الى جانب ما ذكرنا ، نظريات اخرى اقل اهمية لها من يؤيدونها ويأخذون بها وهناك من يقفون منها موقف المعارضة وعدم التأييد •

ولكن، مهما يكن الخلاف بين المؤرخين والدارسين على تحديد النقطة التى ينتهى اليها التاريخ القديم ويبدأ منها العصر الوسيط فى اوروبا ، الا اننا نخلص مما سبق انه كانت هناك عوامل كثيرة متشابكة معقدة متداخلة في بعضها ، بعضها مباشر والبعض الآخر غير مباشر ، والبعض جوهرى

والآخر ثانوى ، هيأت الجو لقيام العصور الوسطى • ولم تكن مثل هذه العوامل وليدة الساعة ، وانما استغرقت سنين ذات عدد قبل ان تبدأ تلك العصــور نفسها • ونستنتج ايضا ان اقرب الفروض الى الصحة والواقع، والى الاحوال السياسية والاجتماعية والاقتصادية والدينية والفكرية التى قامت في اوربا آنذاك ، ان العصور الوسطى في اوروبا تبدأ بلا نزاع فى القرن الخامس الميلادى • كما انها انتهت حوالي القرن الخامس عشر للميلاد لأسباب اخرى مغايرة سنعرض لها في دراسة تالية • ولذلك تكون تلـك العصور قد اقتطعت من تاريخ الانسانية حوالي عشرة قرون تميزت بنوع من المدنية والحضارة الوسيطة المتوسطة الشأن التى قامت كجسر بين المدنية الرومانية الزاهرة وبين الحضارة العملاقة التى ترتبط بالتـــاريخ الحديث •

والأخذ بالرأى : ان العصور الوســطى الاوروبية تبدأ فى القرن الخامس ، مبنى في الواقع ، على الاتجاهات التاريخية التى نشأت فى أوروبا حينذاك • اذ شاهد الانسان الذى عاش في القرن الخامس من التغييرات الهامة والاحداث الخطيرة فى مجرى التاريخ البشرى ما يبين بصفة حاسمة تغييرا جذريا في طبيعة اوروبا يدعو الى الاعتقاد بأن العالم القديم قـد انتهى وان عصرا جديدا قد حل • لقد شاهد رجل القرن الخامس انتهاء الدولة الرومانية بحضارتها ونظمها وبداية البربرية في التاريخ الأوروبي ، كما شاهد زوال الوثنية وعبادة الاباطرة وتأصل المسيحية على حد قول احد المؤرخين الغربيين المحدثين وهو ادوارد جيبون (١٨) •

لقد كانت الدولة الرومانية القديمة ، بحضارتها وقوتها وعظمتهـا المعروفة تنهار بسرعة مذهلة في ذلك الوقت ، كما بدأت العناصر المتبربرة تتدفق داخل حدودها لتؤسس ممالك لها على انقاضها لها نظمها وتقاليدها

الخاصة بها • بينما أخذت الديانة المسيحية في الظهور والانتشار والاستقرار في اوروبا وفي روما نفسها على انقاض الوثنية وعبادة الأباطرة • وهكذا يتداعى النظام القديم من اساسه في السياسة والدين والاجتماع والاقتصاد والفكر والحرب ، وتقوم على انقاضه أمم جديدة ذات حكومات مغايرة لما كان معروفا عند الرومان القدماء • ولقد كان لهذه الامم وحداتها الاجتماعية وحضارتها وانظمتها الخارجية وتفكيرها الخاص بها ، كما كان مشاكلها الأدبية والمادية والاجتماعية التى تختلف عما كان حادثا عند الرومان • كل هذا يؤكد ، بما لا يدع مجالا للشك ، ان التاريخ القديم قد انتهى ، وحل محله عصر آخر فى اوروبا •

ويلاحظ ان هذه التغييرات التى تحدثنا عنها لم تكن فجائية ، وانما كانت عبارة عن عمليات تطور بطيئة مستمرة في فترات غير قصيرة من الزمن • اذ لايمكن الاخذ بفكرة التحديد الرياضي للانتقال بين التاريخ القديم والعصر الوسيط في سنة معينة او يوم بذاته يكون ما قبله قديم وما بعده وسيط ، كما لو يسدل الستار على الماضي في ساعة معينة ويكشف عن الجديد بعدئذ على الطريقة المسرحية • فتحديد السنين والتواريخ — حسبما اسلفنا — مسألة اعتبارية بحتة المقصود بها تسهيل فهم التاريخ وتقريبه الى الأذهان قدر المستطاع •

المراجع والمصادر

(١) Cf. Coulton, G. G., The Medieval Scene, Cambridge, 1961, 1-2 ; Ker, W. P., The Dark Ages, London, 1955, 1f.

Cantor, N. F. (ed.,) The Medieval World : 300-1300, New York, 1963, I.

انظر ايضا كونتون (ج . ج .) : عالم العصور الوسطى فى النظم والحضارة ــ ترجمة وتعليق الدكتور جوزيف نسيم يوسف ــ ط . ثانية (الاسكندرية ١٩٦٧) ، ص ٥ و ٣٥ ــ ٣٦ . هذا ، ويذكر المؤرخ نورمان كانتور ان فريقا من المؤرخين يميل الى تقسيم الفترة الممتدة بين عامى ٣٠٠ و ١٣٠٠ م الى مرحلتين متميزتين هما : العصور الوسطى المبكرة وتمتد من بداية القرن الرابع الميلادى حتى اواسط لقرن الحادى عشر . وخلال تلك الفترة من الزمن بدات تظهر حضارة جديدة هى خليط من الديانة المسيحية وبقايا التراث اليونانى والرومانى وحضارة الجرمان وانظمتهم . وعلى هذا تعتبر تلك القرون السبعة أو الثمانية التى تميز العصور الوسطى المبكرة ، بمثابة فترة الطفولة او مرحلة الصبا للعالم الاوروبى . وهى تتميز بالقلاقل والاضطرابات والكوارث التى حلت بالغرب بسبب غزوات العناصر الجرمانية المتبربرة التى كانت دون لعالم لرومانى مدنية وحضارة . واما المرحلة الثانية فهى التى تعرف باسم العصور الوسطى الحقيقية . انظر عن ذلك :

(٢) Cf. Painter, S., A History of the Middle Ages : 284-1500, London, 1966, 26 ff.; Le Goff, J., La Civilisation de l'Oceident Médiéval, Paris, 1965, 27 ff.

(٣) Runciman, S., Byzantine Civilisation, London, 1948, 13 ff.; Painter, p. cit., 10 ff.

(٤) حول تقسيم التاريخ الى حقب وعصور وتحديد بداية ونهاية كل حقبة وعصر ، انظر :

Gwatkin, H.M. & Whitney, J.P. (eds.), The Cambridge Medieval History, Vol. I, Cambridge, 1936, 1-2 ; Davis, H. W. C., Medieval Europe, London 1941, 5-9.

(٥) Baynes, N. H., The Byzantine Empire, London, 1939, 1-2; Runciman, op. cit,. 20 - 24 ; Lamonte, J., The World of the Middle Ages, New York, 1949, 8-9.

(٦) Runciman, op-cit., 24 - 28 ; Cantor, op. cit., i ff.

(٧) Runciman, op. cit., 14 ; Previté - Orton, C.W., The Shorter Cambridge Medieval History, Vol. II, Cambridge, 1952, 10 ff,; Lamonte, op. cit., 5.

(٨) Cf. Ostrogorsky, G., History of the Byzantine State, trans, by J. Hussey, Oxford, 1956, 45 - 46.

(٩) LaMonte, op. cit., 42 ; Painter, op. cit., 21.

(١٠) LaMonte, op. cit., 42.

(١١) Katz, S., The Decline of Rome and the Rise of Medieval Europe, New York, 1960, 88 - 89.

(١٢) Katz, op. cit.,90; Hussey, J.M., The Byzantine World. London,1957,14

(١٣) Katz. op. cit., 91-92.

(١٤) Katz, op. cit., 93 ; Baynes, op. cit., 8.

هذا ، ويعارض المؤرخ جون لامونت هذه النظرية قائلا : « عندما خلع ادواكر فى سنة ٤٧٦م الشاب رومولوس اوجستولوس عن العرش ، ووحد رسميا شطرى الامبراطورية الغربى والشرقى ، قد اتخذ خطوة اعتبرها المؤرخون لاجيال طويلة بمثابة نهاية الامبراطورية الرومانية . ولا شك انه لم يحدث شىء من هذا القبيل . وواقع الأمر ان عام ٤٧٦م تاريخ لا يستحق الذكر على الاطلاق ، لان مسالة اعادة توحيد شطرى الامبراطورية لم تكن امرا غير عادى . فمنذ ايام دقلديانوس كان القسمان يتحدان وينفصلان عن بعضهما بصورة تلقائية ، بحيث لم يكن هناك جديد فى الموضوع » . انظر .

LaMonte, op. cit., 41.

(١٥) Baynes, op. cit., 8 ; LaMonte, op. cit., 51 ff.

(١٦) Katz, op. cit., 115 ; LaMonte, op. cit., 67-68.
LaMonte, op. cit., 41-42.

(١٧) Baynes, op. cit., 8.

(١٨) أنظر رأى جيبون وتعليق المؤرخ كولتون عليه فى : كولستون : عالم العصور الوسطى فى النظم والحضارة (الترجمة العربية) ، ص ٧ و٤٦ و ٥٠ . انظر ايضا راى كل من ديفز ولامونت :

Davis, op. cit., 7 ; LaMonte, op. cit., 38.

مكة المكرمة
مركز الدعوة العباسية

الدكتور على عبد الرحمن ابا حسين
مدير مركز المحفوظات ـ البحرين

اعتبر المؤرخون ان (الحميمة) و (الكوفة) و (خراسان) مراكز الدعوة العباسية سواء فى دور السر والكتمان حتى دور الظهور واعلان شخصية الخليفة العباسي على منبر الكوفة سنة ١٣٢ هـ •

ولدى بحثي المتواصل اهتديت الى أن هناك مركزا مدبرا ورئيسا تتصل به هاتيك المراكز الثلاثة وفيها يختفي الامام تحت ستار من التعبد في البلد المقدس مكة المشرفة وهناك ملتقى الدعاة والنقباء ومن مكة يوجه الامراء واليها ترسل الاموال من سائر الامصار للامام القابع هناك بعيدا عن انظار الأمويين •

ان هذا المركز هـو مكة المكرمـة حيث ولد العباس جد الخلفـاء العباسيين واليه تسببت الدولة العباسية فقد كانت له المكانة التى ورثها عن أبيه عبد المطلب وجده هاشم وفي المكان المناسب من الديار المقدسـة من أرض الحجاز كان الفكر السياسى يحرك الدعاة ويهيىء الرأى العام لنجاح دعوة سرية تمخضت عن الدعوة العباسية وكان موعدهم فى موسم الحج مع كبيرهم الامام فيعطونه ويأخذون منه وهم يقدمون له ما لديهم من غرس غرسوه في نفوس الناس في المراكز الاخرى وفي الامصار الاسلامية الدانية والقاصية •

لقد كان للعباس عم النبي (ص) منزلة كبيرة فى مكة قبل الاسلام اذ كان بيده (السقاية) وهي احدى الوظائف التي توزعتها بطون قريش • وظلت سقاية الحجيج بيد العباس بن عبد المطلب ولم تزل بيده في الجاهلية وصدر الاسلام اذ اقرها رسول الله (ص) بيده لما دخل النبي عليه السلام مكة يوم افتتح في السنة الثامنة للهجرة •

ولما توفي العباس ولي السقاية بعده ابنه عبد الله واستمرت في عقبه الى أن آلت الخلافة لبني العباس فعهدوا بها الى آل الزبير لانشغال بني العباس في الحكم (١)• وعهد للعباس وظيفة أخرى هى (عمارة المسجد الحرام) ومهمته فيها ان لا يدع احدا يسب احدا في المسجد الحرام في مكة المشرفة ولا يقول فيه هجرا (٢) •

هاتان الوظيفتان كانتا بيد العباس بن عبد المطلب مما يدل على مكانته بين قومه ، فسقاية الحجاج في بلد تفتقر الى الماء وهو غاية فى الاهمية • ثم عمارة البيت الحرام يحتاج الى سلطة تحافظ على الامن فيه فلا يدع احدا يعتدى على أحد • وكانت العرب قبل الاسلام وبعده تجل الكعبة وتقدسها وللمسجد الحرام في نفوسهم مكانة محترمة حيث يسود الامن فيه فلا يجوز أن يقول المرء كل ما من شأنه ان يعيب الآخر كان ذلك في بيئة تسود فيها العصبية القبلية وما ينجم عنها من قطيعة وهجر وذم • وقد عهد للعباس بن عبدالمطلب بهذه المهمة وهى مهمة حفظه النظام والأمن • مع ماكان للعباس من مكانة مالية فهو من كبار اصحاب المصارف اذ قال عنه النبي (ص) فى خطبة الوداع (كل ربا في الجاهنية موضوع واول ربا أبدأ به ربا عمى العباس بن عبد المطلب (٣) والعباس مكان يقع في زاوية زمزم على يسار من دخل يسمى (موضع العباس) ويبعد هذا الموقع عن (الحجر الاسود) خمسة وتسعون ذراعا (٤) •

وذكر الدارقطنى في الموقف ان أول من كسا الكعبة الديباج هى والدة العباس (تتيله) بنت حيان • كانت اضلت العباس صغيرا ــ وقيل ضرار شقيق العباس ــ فنذرت ان وجدته ان تكسو الكعبة الديباج (٥) • وهذا ان دل على أمر فأنما يدل على مكانتها بين قومها وثروتها بحيث استطاعت ان تكسو الكعبة الديباج ولم يكسها في التاريخ امرأة بل كساها الخلفاء والسلاطين •

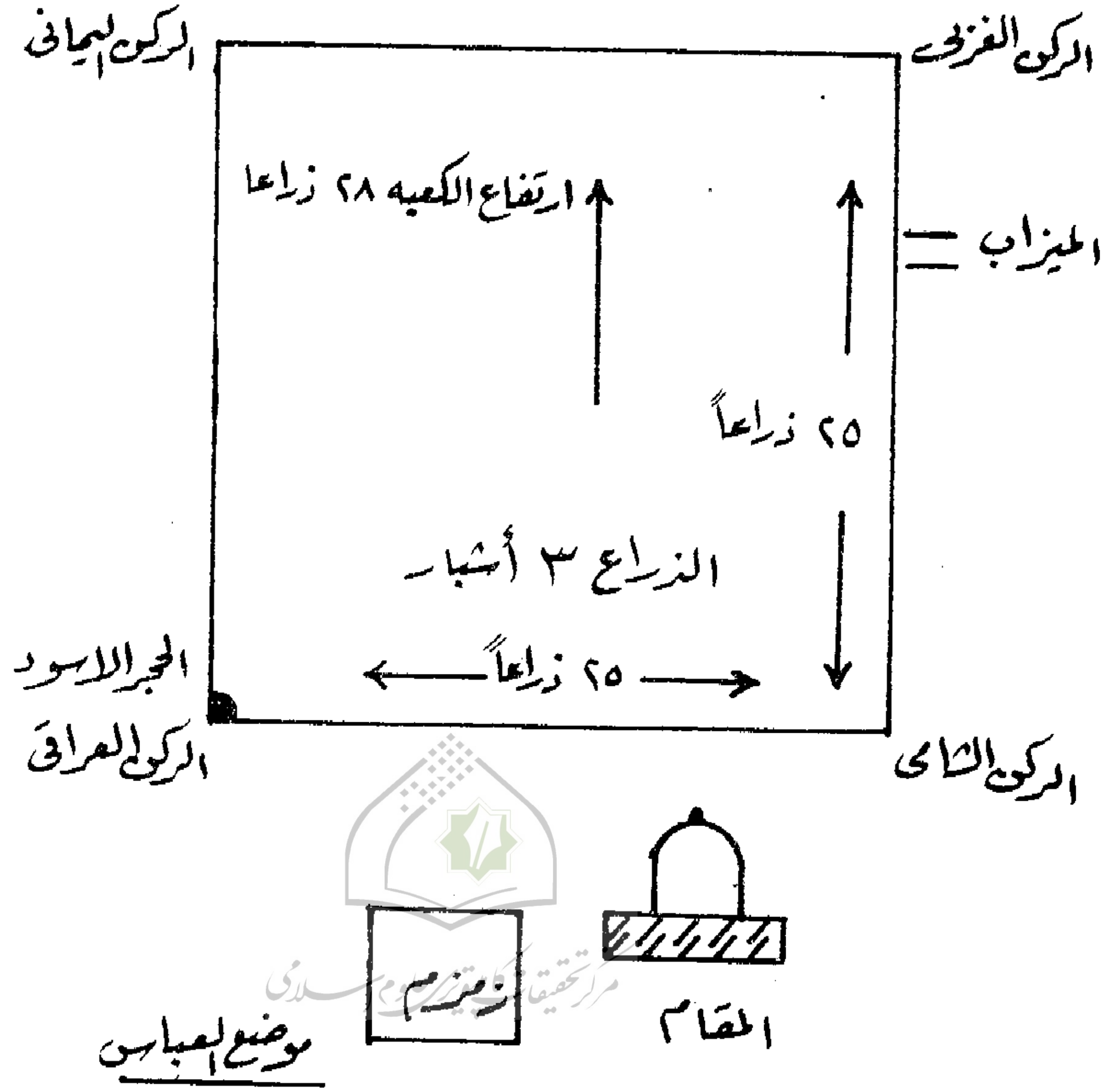
وللعباس بن عبد المطلب (دار) فى مكة تقع في المسعى بين الصفا والمروة جنب الدار التي بيد جعفر بن سليمان بن علي بن عبد الله بن العباس • ودار العباس هي الدار المنقوشة التي عندها العلم الذى يسعى منه من جاء من المرورة الى الصفا بأصلها ويزعمون انها كانت لهاشم بن عبد مناف • وفي دار العباس هذه حجران عظيمان يقال لهما : اساف ونايله: وهما صنمان كانا يعبدان في الجاهلية وهما ركن الدار (٦) •

ودار العباس تقابل باب العباس وهو من ابواب الحرم المكي الشريف وكان يسمى باب الجنائز (٧) ويقع باب العباس عند علم المسعى من خارج وفيه ثلاث مداخل ودعى بباب الجنائز لان الجنائز يصلى عليها فيه (٨) وباب العباس أو باب النعوش أو باب الجنائز يقع قرب الصفا (٩) •

وتوفى العباس بن عبد المطلب في سنة ٣٢ هـ عن عشرة ذكور سوى الاناث • ومن اولاده عبد الله بن عباس رضي الله عنه •

واصبحت دار العباس رباطا يسمى (رباط العباس) على ما ذكره الاسدى بتاريخه في القرن الحادى عشر الهجرى (١٠) •

مخطط تقريبى للكعبة المشرفة وما حولها (١١) •



تلك مكانة العباس بن عبد المطلب اورثها لابنه (عبد الله بن عباس) رضي الله عنه ابن مكة البار ولد فيها قبل الهجرة النبوية بثلاث سنين ايام قاطع المشركون من أهل مكة مسلمي بني هاشم وبني عبد المطلب وغيرهم (١٢) وشب في حجر النبى (ص) وترعرع فى مكة وكانت له مكانته العلمية بحكم صلة القرابة وكثرة اتصاله بالرسول (ص) • ولما انتقل عليه الصلاة والسلام الى الرفيق الاعلى كان لعبد الله بن عباس ثلاث عشرة سنة وقيل كان في الخامسة عشرة (١٣) •

لقد اهتم عبد الله بن عباس بجمع الحديث والتفسير ثم اخذ يجلس للعلم فى الحرم المكى الشريف وازدحم رجال الحديث والتفسير خاصة

فى موسم الحج بمجلسه • واتخذ من موضع ابيه العباس مكانا له على يسار الداخل الى الحرم في زاوية زمزم التى تلى الصفا والوادى • وهاجر ابن عباس الى المدينة في العهد الأموى ، ثم عاد الى مكة • وهو الذىأشار على الحسين بن علي رضي الله عنه ان لا يخرج الى الكوفة في ايام يزيد ابن معاوية بن أبى سفيان سنة ٦١ هـ وبقى ابن عباس بمكة ينشر معارفه وعلومه وحلقت حوله حلقـات واسعة في المسجد المكى الشريف (١٤)• ثم انتقل الى الطائف وفيها توفي سنة ٦٨ هـ وقيل فى سنة ٦٩ هـ (١٥) وخلف عبد الله بن عباس مـن الاولاد (علي) و (العباس) و (عبيد الله) و (الفضل) و (عبد الرحمن) ومن الاناث (لبابة) و (اسماء) (١٦) •

ورغم اهتمام ابن عباس بنشر العلم والمعرفة الا انه تمسك بوظيفـة (السقاية) : سقاية الحاج في المسجد الحرام التي ورثها عن ابيه فقـد احتفظ بها وجعلها في ذريته •

وجلس علي بن عبد الله بن عباس مجلس ابيه فكان اذا قدم مكة حاجا أو معتمرا عطلت قريش مجالسها فى المسجد الحرام وهجرت مواضع حلقها ولزمت مجلس على بن عبد الله بن العباس اعظاما واجلالا وتبجيلا فأن قعد قعدوا وان نهض نهضوا وان مشى مشوا جميعا حوله وكان لا يرى لقريش في المسجد الحرام مجلس يجتمع فيه حتى يخرجعلي بن عبدالله من الحرم المكى • حدث عنه أولاده (محمد) و (داود) و (عيسى) و (سليمان) و (صالح) واسند عامة حديثه عن عبد الله بن عباس (١٧)•

كيف لا يكون لعلي بن عبد الله بن عباس مكانة وهو الذى نهل العلم النبوى عن ابيه الذى لازم الرسول (ص) ففي علمه اصالة وليس بينه وبين رسول الله الا والده عبد الله بن عباس وهو قريب عهد بالنبوة عاصر صحابة الرسول وآل بيته رضوان الله عنهم اجمعين فلا غرو اذا ما لازمـ المكيون ومجاورو المسجد الحرام مجلس ابن عباس وعلى بن عبـد الله

ابن عباس وهما قد تخصصا في حفظ حديث الرسول (ص) وتفسير أي القرآن المجيد • واصبحت لعلي مكانة في نفوس اهل مكة تلك المكانة العلمية التي تمتع بها والده والمنزلة الاجتماعية التي اتصف بها جده العباس ابن عبد المطلب فأصبحت قريش تعظمه وتجله مع ما كان يتحلى به من صفات فتنقاد اليه الناس كل هذا مهد للزعامة السياسية في المستقبل لابنائه واحفاده وان لم نعلم عنه نشاطا سياسيا بقدر ما علمنا نشاطه العلمي وشخصيته المرموقة والمحترمة بين اهل مكة فقد ذكر عطاء بن أبي رباح — تلميذ ابن عباس — فضل عبد الله بن عباس كما ذكر علي بن عبدالله بن عباس وابنه محمد وشخصية ابن عباس وابنه علي وكيف أجاب رجلا من هذيل جاء يسأله فأثنى عليه الرجل واشار الى الشبه بجده عبد المطلب بجماله وهيبته وطول قامته (١٨) وتوفي علي ابن عبد الله بن عباس في سنة ١١٨ هـ في (البلقاء) من بلاد الشام كان معتقلا هناك اعتقله الخليفة الأموي هشام بن عبد الملك (١٩) • وسكت المؤرخون عن سبب اعتقاله • فهل ان الخليفة الأموي اوجس في نفسه خيفة منه لما يتمتع به من مكانة في نفوس المكيين وتعاظم نفوذه فأراد ابعاده عن مكة وهي الترمومتر السياسي للعالم الاسلامي اذ يؤمها الحجاج والمعتمرون ورجال السياسة والقيادة والطامعون في الخلافة فكان الخليفة الأموي يريد ان يضعه تحت نظارته • أو أن الخليفة وجد عنده نشاطا سياسيا فأعتقله وربما ان بعض بني العباس قد استقروا في الحميمة بعد ان اقطعهم معاوية فيها فسالموه (٢٠) • لقد توفي علي بن عبد الله بن العباس وخلف ابناءه الذين سيكون لهم شأن عظيم في عالم السياسة وسينهضون بالدعوة العباسية ومنهم : —

سليمان بن علي بن عبد الله بن عباس وهو أول من بنى القبة التي على زمزم في موضع مجلس جده ابن عباس وذلك في خلافة سليمان بن عبد الملك وكان والي مكة يومئذ خالد القسري (٢١) • وهنا دلالة على أن بني العباس كانت لهم مكانة في مكة منذ ظهور الاسلام فأنهم يقومون

بعمران في المسجد الحرام في أيام عنفوان الدولة الاموية في الشام • والدارس للتاريخ العباسي يجد ان عمران المسجد المكى لم يتم الا على ايدى الخلفاء والوزراء والامراء والسلاطين فكيف يقوم سليمان بن علي بن عبد الله بن عباس فى عمران بالمسجد الحرام وخلافة الامويين لازالت قائمة وليس له من الحكم شيء فى عهدهم ؟ ان دل هذا الامر فأنما يدل على مركزه وزياده ثروته وتمهيده للحصول على تأييد الرأى العام الاسلامي متخذا من مكة المكان المناسب وفيها ملتقى المسلمين من كل فج عميق • كما انه اراد الحفاظ على مكانة جده العباس فبنى قبة تبقي اثرا قائما يذكر اهل مكة ووفود بيت الله الحرام بسكانة العباسيين • واستقر بنو العباس أو بعضهم في مكة قبل ظهور الدولة العباسية وكانت لهم (دور) ذكرها مؤرخوا البلد الحرام ومن دور العباسيين فى مكة : ـ

دار العباس بن عبد المطلب التي عندها العلم الذى يسعي منه من جاء من المروة الى الصفا (٢٢) •

ودار عبد الله بن عبيد الله بن العباس وتقع على جبل الراحة والذى يشرف على شعب الصفى أو صفى السباب فوق شعب عامر (٢٣) •

ودار عيسى بن علي بن عبد الله بن العباس قرب المروة •

ودار لبابة ابنة على بن عبد الله بن العباس التى عند القواسين بفم شعب الخوز كانت لحنظلة بن ابى سفيان وكانت اذا قدمت العير من السراة والطايف وغير ذلك تحمل الحنطة والحبوب والسمن والعسل تحط امام هذه الدار في رحبة تقع امامها فتباع فيها (٢٤) • وبنت لبابة بنت على بن عبد الله بن عباس مسجدا على باب شعب على رضى الله عنه وسمى المسجد (مسجد الكبش) وقيل ان مسجد الكبش يقع على يسار الذاهب الى عرفات وفى شمالى جمرة العقبة (٢٥) •

ودار محمد بن داود بن على بن على بن عبد الله بن العباس وهي الدار التي صارت لجعفر بن سليمان بن علي بن عبد الله بن العباس وتقع بالحتمة وكان موضع بيت الازلام مما يلي دار ادريس في مبطح السيل بأسفل مكة (٢٦) ويشرف على جبل الصيرة الذى عند الميل على يمين الذاهب • الى مني • ولمحمد بن داود بن علي دار اخرى على الطارمة عند الغزالين (٢٧)لجعفر ابن سليمان دار في زقاق العطارين (٢٨) •

ودار لمحمد بن سليمان بن علي بن عبد اللهبن العباس بفم شعب الخوز على طريق منى وطريق العراق ويشرف على حايط مورش وكان فى شعب الخوز المسمى (النوية) يشرف على جبل حراء ويحتمل ان يكون قرب المعابدة(٢٩)اذاجاوزت المقبرة على يمين الذاهب الى منى(٣٠)وسكنت زينب بنت سليمان بن على بن عبد الله بن العباس فى مكة وأمرت بحفر بئر عكرمة بأصل الخندمة (٣١) وجدير بالذكر ان هذه البئر التي امرت زينب بحفرها تذكرنا بتاريخ الامويين ايام فتح الرسول (ص) مكةفىالسنة الثامنة للهجرة وعن هذه البئر قال الشاعر :ـ

انك لو شهدت يوم الخندمه ـ اذ فر صفوان وفر عكرمه

وصفوان من بني امية وقد فر مع عكرمة بن ابي جهل •

اما العباس بن محمد بن علي بن عبد الله بن العباس فأن داره (بالمروة) على الصيارفة وتسمى الدار البيضاء ابتناها معاوية بن أبى سفيان وبابها من ناحية المروة ووجهها شارع على الطريق العظمى • وكانت فيها طريق الى جبل الديلمي • فلم تزل حتى اقطعها العباس العباس بن محمد بن علي (اخو السفاح والمنصور) فسد ذلك الطريق وسميت (البيضاء) لانها بنيت بالجص ثم طليت به فكانت كلها بيضاء(٣٢) وهنا نتساءل كيف أصبحت دار معاوية بن ابى سفيان الخليفة الاموى التى بناها على المروة للعباس بن محمد بن على العباسى ؟ ثم كيف استطاع العباس ان يسد الطريق المؤدى

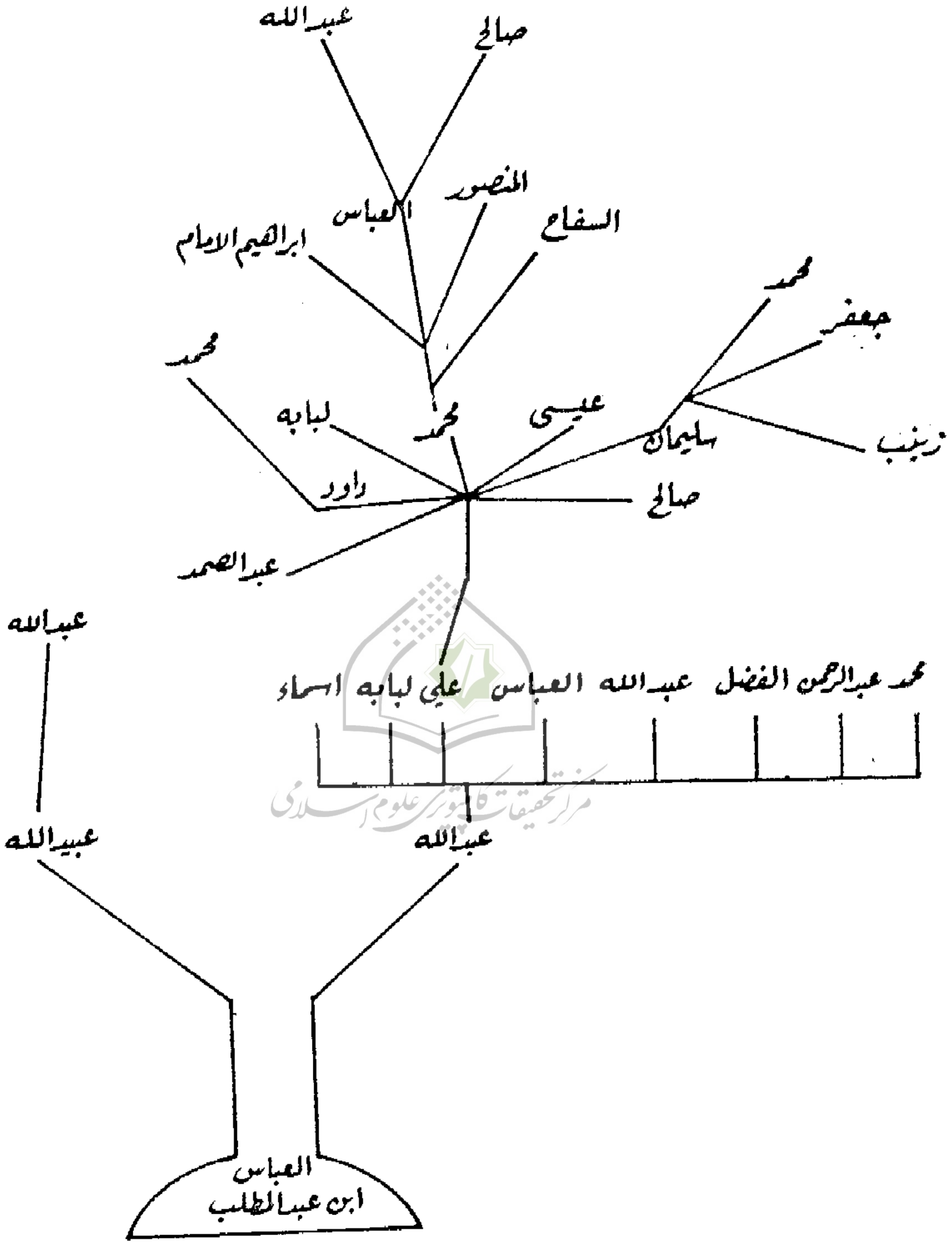
الى جبل الديلمي ؟ لا بد وان له من المال والجاه والسلطان بمكة بحيث استطاع هذا الرجل العباسي ان يشترى تلك الدار وهي دار خليفة أموي وله من النفوذ بحيث استطاع ان يسد الطريق. ولعل الدار التي بمكة على الصيارفة حيال المسجد الحرام وهي دار العباس بن محمد بناها وامر قومه ان لا يرفعوا دورهم على الكعبة وان يجعلوا اعلاها دون الكعبة المشرفة لتكون دونها ، اعظاما للكعبة واورد الازرقي : قال جدي فلم يبق بمكة دار لسلطان ولا غيره حول المسجد الحرام تشرف على الكعبة الا هدمت أو ـ خربت الا هذه الدار فانها بقيت الى الآن (٣٣) .

ونلاحظ مكانة العباس بن محمد تلك المكانة الاجتماعية بين اهل مكة قبل نجاح الدعوة العباسية ومكانته عند ولاة مكة فهو يأمر وينهى وامره نافذ فقد هدمت كل الدور التى كانت اكثر ارتفاعا من الكعبة الا دار العباس التى على الصيارفة وكان له قوم يأمرهم وهم يأتمرون بأمره حتى لقد أمرهم ان لا يرفعوا دورهم على الكعبة وقد فعلوا ما اراد . أما داره ـ فانها بقيت الى ايام الازرقي الذي عاش في القرن الثالث الهجري ثم ادخلت في توسعة الحرم مع دار الازرقي ودور اخرى (٣٤) .

وبنى عبد الله بن العباس بن علي بن عبد الله بن العباس ـ (مسجد الراية) وهو من المساجد التي صلى فيه الرسول (ص) ويبعد عن جدار باب بني شيبة ـ وهو من ابواب الحرم الشريف ـ نحو سبعمائة ذراع واربعة وعشرين ذراعا بذراع الحديد وبذراع اليد أكثر من الف ذراع وخمسين ذراعا (٣٥) . لقد بنى عبد الله بن العباس بن محمد المسجد الذى ركز فيه رسول الله (ص) رايته حين فتح مكة وهذا مما له كبير الاثر في نفوس المسلمين عامة وسكان مكة اذ يعمروا مساجد الله وفى ذلك تأييد لهم من الرأى العام اذا ما نادى المنادي بدعوة عباسية .

ودار صالح بن العباس بن محمد بن على بن عبد الله بن العباس

وتدعى الخالصة وتقع في طريق منى • وقيل ان داره تقع عند دار خالصة مولاة الخيزران (٣٦) •



شكل يوضح بعض اصحاب الدور بمكة من البيت العباسي
ابان الدعوة العباسية

وابتاع صالح بن العباس قصر جعفر بن يحيى البرمكي فابتنى عليه وزاد فيه ويقع هذا القصر بأصل جبـل (سقر) او (ستار) كما يـدعى في الجاهلية ثم صار هذا القصر للمنتصر بالله الخليفة العباسى (٣٧) .

ودار ربطة بنت ابي العباس السفاح وهي دار ابي سفيان والتي فتح معاوية فيها بابا من دار ابيه ابي سفيان على بيت ام المؤمنين السيدة خديجة رضي الله عنها (٣٨) .

هذه بعض دور العباسيين فى مكة ابان الدعوة العباسية وكانت بعض دورهم وقصورهم قريبا من المسجد الحرام ونستدل على عظمتها انها كانت ملكا لخليفة كمعاوية او اتخذها خليفة له دارا كما فعل المنتصر العباسي .ثم انهم قاموا بحفر الآبار وبناء المساجد واتخذوا في أحياء مكة المهمة دورهم وفى طريق منى . وساهمت المرأة العباسية مع الرجل فى المشاريع العمرانية فى مكة المشرفة وهذا له كبير الاثر في بلد مقدس يرتاده المسلمون فى كل زمان ومن كل مكـان .

وسكن ابو عبد الله محمد بن علي بن عبد الله بن العباس مكة وهـو والد كل من ابراهيم الامام وعبد الله السفاح وعبد الله ابو جعفر المنصور وتوفي فيها سنة ١٢٥ هـ وهو من دهاة بني العباس وساستهم يكاتبونـه ويلقبونه بالامام (٣٩) .

وتظاهر النقباء والدعاة بالتجارة واتخذوا طريق الكوفة ـ خراسان التجاري لايهام الامويين انهم تجار وكان الاتصال بالحميمة غير مسموح الا عن طريق المشرف فى الكوفة . وهكذا لم ينكشف امـر الحميمة الا في آخر مراحل الحركة العباسية (٤٠) .

وتبدو القيادة السياسية عند محمد بن علي بن عبد الله بـن العباس كاول شخصية عباسية في التاريخ السياسي لدعوة بني العباس اذ كان داهية

من دهاة زمانه وكان قومه يلقبونه (الامام) • والامامة نيابة عن النبوة فى حراسة الدين وسياسة الدنيا (٤١) وهو لقب من القاب الخليفة •

ولا يعلم شخصية الامام الا المقربين • وقد اتخذ من مكة المركز الذي يتصل به بالنقباء والدعاة الذين يفدون الى مكة للحج والعمرة او التجارة وكان هناك مشرف على الدعوة فى الكوفة يأتمر بأمر الامام القابع فى مكـة ومثل ذلك فى الحميمة وبذلك ظلت الدعوة العباسية تحت ستار الدين تارة والتجارة اخرى فأن انكشف امر الامام فى الحميمة فلـم نعلم انـه عرفت شخصيته فى مكة رغم اتصالاته المستمرة بالامصار الاخرى •

ثم ترك محمد بن علي بن عبد الله بن العباس مكة وصار في الحميمة واستطاع ان يستغل تنازل ابي هاشم عن الامامة • وابو هاشم هو عبد الله ابن محمد بن الحنفية بن أمير المؤمنين الامام علي بن ابي طالب كرم الله وجهه حينما مر به في سنة ٩٨هـ وأوصى لمحمد بن علي العباسي بقيادة الحركـة السرية الهاشمية هذا ما اذاعه العباسيون واكدوه فقالـوا : ان ابـا هاشم العلوي أوصى لمحمد بن علي العباسي بالامامة اثر دعوة ابي هاشم من الشام ـ متوجها الى الحجاز بعد زيارته للخليفة الاموي سليمان بن عبد الله وقد تمرض ابو هاشم اما بسبب السم الذى دسه الخليفة الاموى أو بسبب مرض طبيعي وانه عرج على ابن عمه العباسي وبذلك حول محمد بن علي المنطقة الهاشمية الى منطقةعباسيةصرفة(٤٢)واختار محمد بن على العباسى خراسان مركزا تنطلق منه الثورة العباسية ضد الامويين بعد ان مهد لها وهو يوصي الدعاة بقوله : « اما مكة والمدينة فغلب عليهما ابي بكر وعمر رضي الله عنهما ـ ويعني انهما شهدا عهد ابي بكر الصديق وعمر بن الخطاب رضي الله عنهما وهو اصلح العهود وبعد عهد رسول الله(ص)فلا يرضى اهلها بسواه•أو قد يعني ان مكة والمدينة قرشية ويريد ان يعتمد على الموالي فيستعين بهم حين يقول « : وعليكم بخراسان » واوصى من بعـده لابنه ابراهيم الملقب بالامـام •

وفصل ابن قتيبة ذلك التنازل وهو يقول : اما ابو هاشم عبد الله بن محمد بن الحنفية بن علي بن ابي طالب رضي الله عنهم وبوصيته منه بعد أن اجتمع العلويون في المدينة ومكة الى محمد بن الحنفية وبا يعته على طلب الخلافة ان امكنه ذلك وعرضوا عليه قبض زكاتهم لينفقوها يوم الوثوب على فرصته فيما يحتاج من النفقة على مجاهدته فقبلها وولى على شيعة كل بلد رجلا منهم وأمره باستدعاء من قبل منهم في سر وتوصية اليهم الا يبوحوا بمكتومهم الا لمن يوثق به حتى يرى القيام موضعا • فأقام محمد بن الحنفية امام العلويين قابضا لزكاتهم حتى مات فلما حضرته الوفاة ولى ابنه عبد الله وهو المدعو (ابو هاشم) من بعده وامره بطلب الخلافة ان وجد الى ذلك سبيلا واعلم العلويين بتوليته اياه فاقام عبد الله على امرهم حتى بلغ سليمان بن عبدالملك ــ الخليفة الاموى أن العلويين بايعوا عبدالله ابن محمد بن الحنفية بعد ابيه فبعث اليه وقد أعد له فى افواه الطريق رجالا ومعهم أشربة مسمومة وأمرهم اذا خرج من عنده أن يعرضوا عليه الشراب فلما دخل على سليمان اجلسه الى جانبه وسأله وقال له : بلغني أن قومك بايعوك فانكر ذلك • ثم خرج من عنده فى وقت شديد الحر فقدم له البعض شربة لبن فشرب منه ثم مضى فوجد ان السم فيه واتجه من العراق الى الحميمة وبها جماعة آل عباس ونزل على محمد بن على بن عبد الله بن عباس واخبره الخبر وقال له اليك الامر والطلب للخلافة بعدى فولاه واشهد له من العلويين رجالا وأدلى اليه باسرار الدعوة التي اودعها اياه ابوه محمد بن الحنيفة واعلم ابو هاشم ابن عمه محمد بن علي بن عبد الله العباس اعلمه اسماء الدعاة من العلويين وسلمه كتبا يرسلها الى دعاته فى الكوفة كما اوصاه ان تكون الامامة من بعده لابنه • ثم مات فاقام محمد بن علي بن عبد الله ابن العباس ووصف الاتباع والاصحاب وصفهم له(٤٣)اما قول السنجاري « ان سبب قيام بني العباس ان العلويين كانوا يعتقدون بأمامة محمد بن الحنفية بعد أخيه الحسن بن على رضى الله عنهما ونقلوه بعده الى ابى هاشم الذى أوصى حين حضرته الوفاة الى ولده ابراهيم الامام » (٤٤) •

هذا القول يخالف ما أورده المؤرخون الذين اجمعوا على ان التنازل والوصية كانت لمحمد بن علي العباسي وليس لابراهيم الامام ابن محمد ابن محمد بن على العباسى • وجدير بالذكر ان تتساءل لماذا سكن محمد بن علي العباسي الحميمة من بلاد الشام ؟ •

هل لأن والده اعتقل فى بلقاء الشام واراد ان يكون قريبا منه • أم ليتخذ من الحميمة موقعا مناسبا لبث الدعوة العباسية وهي على ممر القوافل التجارية والحجاج فيمكنه الاتصال بهم أو بنقبائه ودعاته بيسر وامان بعيدا عن عيون الخليفة الامــوى •

ويجوز ان يكون جد العباسيين هذا قد استوطن الحميمة لأن الخليفة الاموى اراد منه ذلك لكي لا يكون فى مكة موطن اجداده العباسيين وحول انصاره واقربائه وبعض وجهاء بني العباس •• وخلاصة القول ان محمــد ابن علي بن عبد الله العباس قد استفاد من اتخاذ الحميمة مقرا للدعوة بعد أن كانت مكة هي المقر للعباسيين وستعود مكة ثانية تحتل مكانتها السياسية فى ايام ابنه ابراهيم الامام • وقد استفاد محمد بن علي العباسي من وجوده بالحميمة ذلك التنازل من امام العلويين بالامامة له من بعده وبذلك كسب جبهة علوية اضافها الى جبهتهم العباسية وضمهم تحت شعار الدعوة لآل بيت النبي (ص) •

وقدم الدعاة من خراسان للحج ومعهم (قحطبة بن شبيب) ومــروا بواسط فالتقوا بأبى مسلم الخراسانى ومنها نحو مكة على طريق البصرة فوصلوا مكة وقد وافاها الامام محمد بن علي بن عبد الله بن العباس حاجا فلقوه وسلموا عليه واخبروه بما غرسوا فى جميع خراسان من الغرس واخبروه دخولهم على اخوانهم المحبوسين بواسط في العراق ووصفوا له ابا مسلم وهذا ما يدل على أن الخلافة الاموية اخذت تحسب حسابا للدعوة والدعاة فحسبت بعضهم بواسط •

وأوصى محمد بن علي بن عبد الله بن العباس الدعاة بابنه ابراهيم اذا حدث له أمر فانصرفوا الى خراسان وبعد وفاته خلفه ابنه ابراهيم الامام فأرسل ابراهيم الى ابي مسلم الخراساني ان يسير يبلغ لدعاة في العراق — وخراسان بوفاة ابيه محمد الامام أو قيامه بالامر من بعده (٤٥) •

من هنا نلاحظ أن محمد بن على بن عبد الله ين العباس اتخذ من الحج وسيلة للاتصال بالدعاة فى البلد الامين وفي مكة تكون الاجتماعات السرية ويكون اللقاء بينهم وبين الامام وتعقد الاتفاقات لدعوة تريد قلب نظام الحكم فى الدولة الاموية • وكان محمد بن علي يجتمع بالدعاة ويطلع على اخبارهم حول ما سموه بالغرس أى غرس روح الثورة العباسية ضد الأمويين •

والى مكة كانت تنقل زكاتهم من خراسان ومن العراق وغيرها لتحفظ الى حين الوثوب أو ساعة الصفر التي يقررها الامام وقد جعل من مكة مركزا للدعوة ضد الأمويين •

وفى سنة ١٢٥ هـ توفى محمد بن على والد السفاح والمنصور مات وهو في المعتقل وكان من دعاة بني العباس يكاتبونه ويلقبونه بالامام مات في عهد هشام بن عبد الملك أو الوليد الثاني بن يزيد بن عبد الملك (٤٦) لقد اعتقل ابوه من قبله وتوفي هو الآخر في الاعتقال وسكت المؤرخون عن سبب اعتقال ابيه لانه لم يكن له نشاط سياسي ملحوظ بقدر ما كان له من مكانة علمية واجتماعية عند اهل مكة بصورة خاصة ولكنه كان يخفي وراء ذلك نشاطا سياسيا محتملا باقامته في مكة •

اما ابنه محمد بن عبد الله بن العباس فقد اسهب طائفة من المؤرخين في ذكر نشاطه السياسي وهو يستقبل الدعاة ويوصيهم وبوجههم الى الامصار متخذا من مواسم الحج خير زمان ومن مكة المكان المناسب لتحقيق اغراضه السياسية تحت ستار الدين •

ويبدو ان النصوص التاريخية تؤكد على اتخاذ مكة مركز الدعوة العباسية ففي عام ١٢٥هـ حج (شبيب ابن شيبة التيمي) وكان في حاشية المنصور وولده المهدي وبينما هو يستريح في المسجد الحرام اذ عرف رجلا عثر في المقام فساعده واصطحبه الى بيته واعلمه انه عبد الله بن محمد بن علي بن عبد الله بن عباس (ابو جعفر المنصور) وانه يسكن باعلى مكة وله رجال واعلمه بقوله : « ان انصار دولتنا وامراء جيوشنا فهم مواليهم وموالي القوم من انفسهم فاذا وضعت الحرب اوزارها صفحنا عن المسيء ووهبنا للرجل قومه » وسأل ابن شيبة عن ساعة الصفر بقوله : أترقب لظهور الامر وقتا ؟ فقال عبدالله (الله المقدر للوقت • وارسل معه كسوة مع مولى لعبد الله كان يتبعه الى منزله فأخذ ابن شيبة الكسوة (٤٧) •

هذا النص يدل على أن مكة المركز الاول للدعوة العباسية وفيها رجال من بني العباس في عهد بني امية وكان لهم انصار ورجال وامراء للجيوش وان لهم قوم وموالي كلهم ينتظرون ساعة الوثوب أو الثورة ووجهتهم نحو الامام القابع بمكة ولكن عبد الله بن محمد بن علي بن عبد الله بن العباس (المنصور) لم يفصح عن الساعة بل كان حذرا فلم يعلمه عن موعدها ، كما يدلنا على ان لعبد الله بن محمد بن علي بيت باعلى مكة فلم يعد بنو العباس يتخذون بيوتا لهم قرب المسجد الحرام فحسب بل وفي اعلاها بيوت لهم اتخذوها كمراكز سرية للدعوة واللقاء بالدعاة بعيدا عن انظار الأمويين وولاتهم في مكة •

وفي عام ١٢٦ هـ حج (سليمان بن كثير ولا هز بن قرط ومالك بن الهيثم وقحطبة بن شبيب) حجوا متنكرين حتى اتوا مكة وقد وافاهم الامام ابراهيم بن محمد بن علي بن عبد الله بن العباس فاخبروه بما اجتمع له الناس بخراسان وقد حملوا له ما بعثت له الشيعة عشرة الاف دينار ومائتا الف درهم ثم ولي امرهم ابا مسلم وقال لهم : « فاسمعوا له واطيعوا فانصرفوا (٤٨) • وهكذا انتقلت الامامة الى ابراهيم وقد جمعت له الاموال

واخذ يعين الامراء بعد ان علم أن اهل خراسان اجتمعوا له ، وهنا برزت شخصية ابي مسلم الخراساني •

وفى سنة ١٢٧ هـ اجتمعت جماعة من الدعاة الى بني العباس عند ابراهيم بن محمد الامام العباسى وكان معهم ابو مسلم الخراسانى فدفعوا له نفقات كثيرة واعطوه خمس اموالهم ولم ينتظم لهم أمر السنة لكثرة الشرور المنتشرة والفتن الواقعة بين الناس (٤٩) •

لقد اعطيت خمس الاموال لابراهيم الامام العباسى فهو ولي امرهم مع أموال كثيرة اخرى فان سليمان ابن كثير ولاهز بن قرظ وقحطبة توجهوا الى مكة في سنة ١٢٧ هـ فلقوا ابراهيم بن محمد الامام واوصلوا الى مولى له عشرين الف دينار ومائتى الف درهم ومسكا ومتاعا كثيرا وكان معهم ابو مسلم فأمر ابراهيم أبا مسلم على خراسان (٥٠) •

وهنا تبدو عبقرية ابراهيم الامام السياسية حين بعث من كل بلد اميرا من اهلها فأبو مسلم أمره على خراسان وأبا سلمة الخلال على الكوفة لميل العلويين له وميله اليهم وكان بعض الدعاة يطلبون من ابراهيم الامام أن يوجه من قبله واليا معهم الى بعض الامصار فهو والحالة هذه يقوم مقام الخليفة وأن مكة مركز الدعوة وفيها الامام الذى يولي الولاة ويبعثهم الى خراسان والكوفة والولاية من الوظائف أو المهام المعهودة للخليفة وان كان هناك خليفة أموى في بلاد الشام •

وفى مكة حدث اجتماع سرى ضم أقطاب بنى العباس والطالبيون فكونوا جمعية سرية واسندوا الرئاسة في أول تشكيلها الى محمد بن عبد الله بن الحسن بن الحسن بن علي بن أبى طالب رضى الله عنهم الملقب بمحمد النفس الزكية ثم تخلوا عنه ونقض العباسيون عهد هذه الجمعية السرية والتي انعقدت بمكة واسندوها لابي العباس السفاح (٥١) وذكر ابن خلدون أن المنصور العباسى ممن بايع محمد النفس الزكية في تلك الليلة والتي عقدوا لمحمد النفس الزكية بالخلافة (٥٢) •

وهكذا كانت البيعة الخاصة للخليفة الاول من آل بيت النبي (ص) حدث بعد اجتماع سري ليلا في مكة المكرمة وقيل ان اجتماع بني هاشم هذا كان بالابواء وهو مكان بين مكة والمدينة وضم ابراهيم الامام وأخويه عبد الله ابو العباس السفاح وعبد الله ابو جعفر المنصور وصالح ابن علي وعبد الله بن الحسن بن الحسن بن علي بن أبي طالب وابناه محمد وابراهيم ومحمد بن عمرو بن عثمان بن عفان فبايعوا محمد بن عبد الله بن الحسن الملقب بمحمد النفس الزكية فما كان منه الا ان بعث الحسن بن معاوية واليا على مكة وبعث القاسم بن اسحق واليا على اليمن (٥٣) .

وقيل حدث ذلك في خلافة المنصور ، أما الاجتماع الاول الذي ضم وجهاء بني هاشم من عباسيين وعلويين فقد حدث في مكة وليس بالابواء . وما ذكر عن ممارسة محمد النفس الزكية سلطة الخليفة فقد حدث في أيام المنصور . ومن الدلالات الواضحة على أهمية مكة في الدعوة العباسية أن ابراهيم الامام ارسل وهو بمكة الراية وتدعى (السحاب) واللواء ويدعى (الظل) ارسلهما الى ابي مسلم بخراسان . وكان ابو مسلم قد سار نحو الامام بمكة من خراسان ليظهر الحج واجتمع به فأمره ابراهيم الامام بالرجوع واظهار الدعوة ونشرها وامر ابو مسلم قحطبة بن شبيب أن يسير بما معه من الاموال والتحف الى ابراهيم فيوافيه في الموسم بمكة فرجع ابو مسلم الى خراسان وكانت الفرصة مناسبة لانشغال نصر بن سيار والي بني امية على خراسان بقتال الخوارج والذين يقودهم (الكرماني) و (شيبان بن سلمة الحروري)(٥٤).

ففي سنة ١٢٩ هـ بينما الناس بعرفة ما شعروا الا وقد طلعت عليهم اعلام وعمائم سود على رؤوس الرماح ففزع الناس حين رأوهم وسألوهم عن حالهم فأخبروهم بخلافهم على مروان وآل مروان فراسلهم عبد الواحد ابن سليمان بن عبد الملك بن مروان وهو يومئذ على مكة والمدينة وطلب

منهم الهدنة فقالوا نحن بحجنا احق وعليه أشج فصالحهم على آنهم جميعا آمنون بعضهم من بعض حتى ينفر الناس النفر الاول فوقفوا بعرفة على حده ودفع الناس عبد الواحد ونزل في منزل السلطان ونزل أبو حمزة الخارجى مقدم الفريق الاخر بقرن الثعالب . ويقال له (قرن المنازل) وهو ميقات أهل نجد قال ياقوت (تلقاء مكة على يوم وليلة) ، فلما كان النفر الاول نفر فيه عبد الواحد وخلى مكة فدخلها ابو حمزة الاباضى بغير قتال (٥٥).

ونرى أن الدعوة العباسية ظهرت في مكة وعقد لواءها وشعارها من هناك وكان موسم الحج بمكة هو الزمان الملائم في المكان الامين للاتصال بالامام في البلد الامين حيث تنقل الاموال اليه من كل مكان بقصد الحج حتى اذا ما دقت ساعة العمل ظهرت الرايات والعمائم السود العباسية هناك في مكة وقد حدث ذلك قبل اعلان الدعوة بثلاث سنين .

وفي سنة ١٢٩ هـ كتب ابراهيم الامام وكان بالحميمة الى ابى مسلم يسأل عن أخبار الناس فسار نحوه في النصف من جمادي الاخرة مع سبعين نفسا من النقباء فلما صار بالدانقان من ارض خراسان عرض له كامل (ابو كامل) فسأله عن مقصده فقال الحج ثم خلا به أبو مسلم فدعاه فأجابه ثم ان ابا مسلم بقى فى خراسان ووجه قحطبة الى الامام ابراهيم بما معه من الاموال والعروض وفي نيسابور عرض لهم صاحب المسلحة فسألهم فقالوا : اردنا الحج فبلغنا عن الطريق شيء خفناه (٥٦) .

وهكذا ينفذ ابو مسلم اوامر امامه شأن النقباء والدعاة وكان ابراهيم الامام على اتصال دائم بالناس في خراسان واتضح امر ابراهيم حين وجد الخليفة الاموي مروان بن محمد كتابا من ابراهيم الى أبي مسلم وفيه يأمره ابراهيم أن يناهض نصر بن سيار ولا يترك هناك في خراسان من يحسن العربية الا ويقتله فما كان من مروان الا أن أمر يقتل ابراهيم الامام فقتله شر قتلة (٥٧) .

وقيل أن ابراهيم الامام اشتهر فى موسم حج سنة ١٣١ هـ حين وقف فى ابهة عظيمة ونجائب كثيرة وحرمة وافرة فأنهى أمره الى مروان فأرسل عليه وقتله وكان مع ابراهيم حين حج اخواه ابو العباس وجعفر وولده وعمه ومواليه على ثلاثين نجيبا عليهم الثياب الفاخرة والرجال والاثقال فشهرة اهل البوادي والشام والحرمين معهما مع ما انتشر في الدنيا من ظهور امرهم وبلغ مروان خبر حجهم فكتب الى عامله بدمشق بتوجيه خيل له وكان مروان بأرض الشام ووجه العامل خيلا فهجموا على ابراهيم فأخذوه وحملوه الى سجن حران فأثقلوه وقيدوه حتى مات ولما احس ابراهيم بالطلب أوصى الى أخيه ابى العباس ونعى نفسه اليه وأمره بالسير من (مكة) الى الكوفة بأهل بيته فسار معه اخوه ابو جعفر وعمه وستة رجال حتى قدموا الكوفة مستخفين (٥٨) • وهنا نلحظ اتباع ابراهيم اولئك الذين قدموا معه على ثلاثين نجيبا وهم من الموالى فقط سوى اقرباء • من بنى العباس ممن كانت لهم مكانة اجتماعية واقتصادية علاوة على الاهمية السياسية وكان لهم الولاء في البوادي وفي مكة والمدينة وحتى في بلاد الشام • وقيل ان ابا مسلم يدعو الناس الى ابراهيم الامام ويسمونه الخليفة فلما علم مروان طلبه لانه على ان دعوة ابى مسلم له وانه يؤهل لهذا الامر (٥٩) •

وفي هذا الوقت خرج اخواه عبد الله ابو العباس السفاح وعبد الله ابو جعفر المنصور خرجا الى الكوفة على انفسهما ومعهما داود بن علي (٦٠)

والارجح انتقال ابراهيم الامام من مكة الى الحميمة كان بعد أن رأى اجتماع اقطاب بنى هاشم على رئاسة محمد النفس الزكية وتعيين — وال على مكة من قبله فلم يعد له مكانا هناك فرحل الى الحميمة حتى اذا ما انكشف أمره كان فى ذلك حتفه •

ولما علم ابو مسلم الخراساني بقتل ابراهيم الامام قدم من خراسان الى الكوفة فعزى السفاح والمنصور ثم قال لابي العباس مد يدك ابايعك فمد يده فبايعه ثم سار الى مكة ثم انصرف اليهما (٦١) .

لقد كان المنصور اكبر سنا من السفاح اذ ولد السفاح سنة ١٠٥ هـ أما ولادة المنصور ففي سنة ٩٥ هـ فمبايعة ابي مسلم للسفاح قد يكون لعهد ابراهيم له أو لما كان بين المنصور وابي مسلم الخراساني من وحشة فأراد ابو مسلم ان تكون الخلافة لاخيه السفاح .

وسار ابو مسلم الى مكة لكي يضلل عيون الخلافة الاموية انه قادم الى الحج فلا ترصد حركاته ونلحظه ان هناك بيعة وهي من شروط الامامة أو الخلافة رغم ان خلافة الامويين لا زالت قائمة وهذا يدل على نشاط الدعاة وتفانيهم في سبيل الدعوة الجديدة .

ودخل ابو مسلم (مرو) سنة ١٣٠ هـ وكان يدعو للرضا من آل بيت النبي (ص) ونص البيعة (ابايعكم على كتاب الله وسنة نبيه والطاعة للرضا من اهل بيت رسول الله وعليكم بذلك عهد وميثاقه والطلاق والعتاق والمشي الى بيت الله الحرام وعلى أن لا تسألوا رزقا ولا طعاما حتى يتبؤكم به ولاتكم (٦٢) .

في هذه البيعة تعاقد على الحكم بكتاب الله وسنة نبيه وطاعة من يرتضونه من آل بيت رسول الله (ص) دون أن يفصح عن شخص الخليفة. اما الدعاة والنقباء فهم يعرفون شخصية الامام وان كانوا يدعون للرضا من آل محمد فالدعوة غامضة بالنسبة للعلويين الذين يظنونها انها من اجلهم وكذلك الخراسانيون دعوا الى (صاحب الحق) واحسن العباسيون استخدام الفريقين في تعمية الامويين الامويون ان الدعوة والقائمين عليها من آل بيت علي رضي الله عنه . واختار العباسيون انصارا لهم من الفرس بدليل قول محمد الامام اذ يقول (وعليكم بخراسان) .

ومن نصيحة ابراهيم الامام الى ابي مسلم (ان استطعت ان لاتدع بخراسان لسانا عربيا فأفعل) • وتطرق ابراهيم كثيرا في اذكاء نار العصبية القبلية فى خراسان خشية تجمع اهل يمن فيها فأوصى ابا مسلم فى اهل يمن يريد فتنة ربيعة ومصر وهذه من مبادىء ابي مسلم التي اشاعها بين جنده بقوله (اكثروا ذكر الضغائن فانها تبعث على الاقدام) • (٦٣) •

ومما يجدر ذكره ان القائمين بالدعوة جلهم من العرب وان كان العنصر الفارسي له دوره فى اعلان الدعوة العباسية • واكد ابو مسلم على عدم مخالفة الخليفة المنتظر بأن جعل الايمان والمواثيق عليهم اذا هم خالفوه وزاد بعدم المطالبة بالمال حتى يقدمة اولي الامر لهم بينما اعلن ابراهيم الامام وهو يوصي الدعاة بأن ابا مسلم من اهل البيت العباسي بقوله (يا عبد الرحمن انك منا اهل البيت) • وقال له (عليك بهذا الحي من اليمين) وحذره من بقية الاحياء وقال له : (ان استطعت ان لا تدع بتلك البلاد عربيا فافعل) (٦٤) •

ولما تمكن ابو مسلم وقوي أمره ادعى انه من سليط بن عبد الله بن عباس وكان من أوليه هذا الزعم ان نصر الامويون سليط على اخيه فى اثبات حقه بالميراث لاسباب سياسية وقيل ان ابا مسلم ولد باصبهان ونشأ بالكوفة فاتصل بابراهيم الامام فغيراسمه وكناه بابي مسلم وامره على خراسان(٦٥) وابراهيم الامام هو الذى اكد ان ابا مسلم من اهل البيت العباسي وهذا ما تقتضية الدعوة وهي فى مهدها لكسب اكبر عدد ممكن من الرجل الاشد اذ والذين عرفوا بالدعاء والشجاعة والنفوذ وابو مسلم قد تميز بهذه الصفات المهم ان ابا مسلم هو الذي اظهر الدعوة العباسية من السر الى العلن وهو الذى استلم شعار العباسيين وهو السواد من ابراهيم الامام العباسى ارسله اليه من مكة مركز الدعوة العباسية وارسل معه اللواء وهو (الظل) — أو (السحاب) •

وكانت هناك عوامل كثيرة تداخلت مع بعضها البعض فأدت الى نجاح

الدعوة العباسية سواء في مكة المكرمة أو خراسان او الكوفة او غيرها فقد رسم بنو العباس ابان دعوتهم خططهم على اساس الاستعانة بكل القوى الممكنة لانجاح دعوتهم ومنها استغلالهم اخطاء الامويين والقضاء على مصادر القوة من افراد أو جماعات وعرفوا اهداف العلويين ومن تكتل معهم واهداف الفرس واخيرا قدروا السياسة لاقامة خلافتهم العباسية (٦٦) واكد العباسيون حركة تنازل ابي هاشم واذاعوه • وساعدهم انقسام البيت الاموى على نفسه واذكاء نار العصبية القبلية وللعامل الاقتصادى كبير الاثر في انتشار سخط الجماهير ضد الامويين ومنهم الموالي والخوارج الذين لعبوا دورا خطيرا في اسقاط الامويين وبصورة غير مباشرة في نجاح الدعوة العباسية • ومن الخوارج ابوحمزه بن عوف الازدى البصرى المختار وهو من الاباضية وهي فرقة فرق الخوارج • وكان يوافي مكه كل موسم يدعو الى خلاف مروان وانضم اليه عبد الله بن يحيى المعروف (بطالب الحق) سنة ١٢٨ هـ وهو من حضرموت وقال له انطلق معي فاني مطاع في قومي فأنطلق معه الى حضرموت وبايعة على الخلافة وبعثه عبد الله سنة ١٢٩ هـ مع (بلج بن عقبة الازدى) فى سبعمائة فقدموا مكة وحكموا بالموقف وعامل المدينة يومئذ عبد الواحد بن سليمان بن عبد الملك فطلبهم بالموادعة حتى ينقضي الموسم واقام الناس حجهم ونزل بمنى واحكم نفر من الصحابة مع الخارجي والموادعة ونفر عبد الواحد مع النفر الاول فمضى الى المدينة وزاد في عطاء اهاها ثم دخل حمزة المدينة سنة ١٣٠ هـ في شهر صفر بعد ان الحق عبد الواحد بالشام واحسن السيرة باهلها ثم ارسل مروان من يقتل ابا حمزة فقتله وانهزمت الخوارج واستخلف على مكة والمدينة وقتل طالب الحق وتوجه والى مروان الى مكة ليقيم الحج فلقيه قوم ونهبوهم وقتلوهم وركد ريح الخوارج من يومئذ الى أن ظهرت الدعوة العباسية وبويع المنصور بعد السفاح (٦٧) •

واضاف السعودى ان عبد الله بن يحيى المعروف بطالب الحق خوطب بأمير المؤمنين وكان اباضى المذهب من الخوارج فارسل مروان قائده

عبد الملك بن محمد بن عطية السعدى فقتل ابو حمزة واكثر من معه من الخوارج وذلك فى سنة ١٣٠ هـ ولحق القائد عبد الملك هذا مع جيش مروان الى اليمن ونزل صنعاء سنة ١٣٢ هـ (٦٨) .

لقد كانت مكة فى هذه الفترة التاريخية ـ وهى فترة انتقال كانت مضطربة شأن أى مدينة اخرى خاصة وقد جعلت الخوارج كل منها ومن المدينة واليمن وحضرموت مسرحا للحروب وادى ذلك الى توزيع جهود مروان آخر خلفاء الامويين في الوقت الذى يعلن فيه ابو مسلم الدعوة العباسية فى خراسان . والسفاح والمنصور واعوانهما يهيئون لظهور الخليفة واعلان اسمه تحت ظروف سياسية وحربية مضطربة تجاه الامويين .

حتى ابو حمزة الخارجي لما قدم الحجاز كان يظهر الحج في سنة ١٢٩ وهي السنة التى طلعت على الحاج واهل مكة اعلاه وعمائم سود على رؤوس الرماح وهم بعرفة وكان عدتهم نحو سبعمائة وقد راسلهم عبد الملك والى مكة والمدينة وطلب منهم الهدنة وتمت الهدنة ثم احتل ابو حمزة مكة بعد هروب واليها عبد الملك وحدثت معركة بين جيش الخوارج وجند مروان سنة ١٣١هـ (بقديد) قرب مكة فهزم مكة جيش مروان حرورية الخوارج (٦٩) .

هكذا واجه مروان الفتن من كل جانب ففى الشرق ابو مسلم الخراساني وقد اعلن الثورة واحتل خراسان . ومن الغرب كتائب من طبرية والاردن تهاجمه تحت قيادة نعيم بن ثابت الجذامي ومن الجنوب من ارض ـ اليمن رجفت اباضية الخوارج تدعو لزعيمها عبد الله بن يحى الكندى وخوطب بأمير المؤمنين واحتلت هذه القوات مكة والمدينة ودانت اليمن وحضرموت لها وسارت لقتال جيش مروان وتمكن مروان من رد هذه القوات الا جيش ابي مسلم (٧٠) .

كل هذه الفتن اوهنت قوى الامويين ومهدت لنجاح دعوة ـ

العباسيين ولكن مكة وما حولها كانت مسرحا لحروب الخوارج مع الجيوش الاموية التى بلغت نحو خمسة عشر الف مقاتل وقد فرق القائد الاموى الخيل على الخوارج من اسفل مكة ومن اعلاها فاقتتلوا الى نصف النهار فقتل والي مكة من قبل ابي حمزة الخارجي وهو ابرهة ابن الصياح الحميرى عند بئر ميمون في مكة وقتل حمزة وخلق كثير من جيش الخوارج وعادت مكة الى الحظيرة الاموية (٧١) •

خلاصة القول : ان ظهور الخوارج في اواخر ايام الدولة الاموية وعلى راسهم ابو حمزة وغيره من قادتهم كان قد اشغل الدولة الاموية فى سني احتضارها • كما انضم الى الخوارج كل ساخط على الامويين وبعض القبائل من يمن وحضر فحاربت الامويين نحو ثلاث سنين واخمدت حركتهم الا ان لهذا اثره فى اضعاف الدولة الاموية وتهيئة الظروف لنجاح الدعوة العباسية وهى تزحف من جهة الشرق ثم لا تلبث ان تعلن الخلافة العباسية فى شهر ربيع الاول سنة ١٣٢هـ وبويع السفاح عبد الله ابن محمد بن على بن عبد الله بن العباس بعد قتل مروان بن محمد الاموي بثمانية اشهر (٧٢)•

وهكذا كانت الدعوة العباسية استغلالا ذكيا للحركات الظاهرة والخفية ضد السياسات التى اتبعها الخلفاء الامويون وعمالهم وكان قيام الدعوة العباسية نتيجة مباشرة لتطور هذه الحركات التي ناوأت الامويين تحت شعارات علوية أو خارجية او غيرها (٧٣) وكانت مكة الترمومتر السياسى والمركز المهم فى الدعوة العباسية ففيها الامام العباسى وبويع فيها الخليفة الهاشمى المنتظر وكان علويا هو محمد النفس الزكية • وكان امام العباسيين يرسل الدعاة ويستقبل النقباء دون علم الامويين لتسترهم
تحت شعارات علوية أو خارجية او غيرها (٧٣) وكانت مكة الترمومتر

هكذا ينبغى ان يضاف الى مراكز الدعوة العباسية مكة المكرمة مع الكوفة وخراسان والحميمة •

المصادر والمراجع

(١) الازرقي . اخبار مكة ٨٥/٢ المطبعة الماجدية بمكة ١٣٥٧ و ١١٤/١ دار الثقافة بمكة سنة ١٣٨٥ .

(٢) الزركلي : الاعلام ٣٥/٢ ط ٢ .

(٣) الفاسي : شفاء الغرام . المقدمة . مصر ١٩٥٦ .

(٤) السنجارى : منايح الكرم باخبار البيت وولاة الحرم ١٨٠/١ وما بعدها مخطوط بمكتبة الحرم المكي الشريف . ومفتاح الاوائل مخطط مجهول المؤلف . الباب الخامس . مخطوط بمكتبة ازاد بالهند . والفاسي . شفاء الغرام ٢٥٩/١ .

(٥) الازرقي ١٧١/١ .

(٦) نفس المصدر ١٨٨/٢ و ٢١٣ .

(٧) القطبي . الاعلام ص ٢٨٩ والازرقي ٧٠/٢ .

(٨) الديار بكرى : رسالة اذرع الكعبة . مخطوطة فى الهند .

(٩) باسلامة ص ١٢٠ — ١٣١ .

(١٠) الاسدى . اخبار الكرام ص ٨٧ مخطوط فى الهند .

(١١) القزويني : آثار البلاد واخبار العباد ص ١١٥ بيروت ١٩٦٠. واليعقوبي . البلدان ص ٧٤ ط ٣ .

(١٢) الزبيرى : نسب قريش ص ٢٨ . والمسعودى . مروج الذهب ١١٠/٣ .

(١٣) العصامي : سمط النجوم العوالي ٣٢٨/١ .

(١٤) الازرقي ٦٠/٢ .

(١٥) المسعودى : مروج الذهب ١٠١/٣ .

(١٦) نسب قريش ص ٢٨ .

(١٧) ابن دحية . النبراس ص ٦ بغداد ١٩٤٦ .

(١٨) الازرقي ٢١٣/١ .

(١٩) الذهبي : دول الاسلام ٥٦/١ حيدر اباد الهند .

(٢٠) محمد احمد : الخلافة والدولة العباسية ص ٢٨ مصر ١٩٥٩ .

(٢١) مفتاح الاوائل : الباب الخامس . مخطوط .

(٢٢) الازرقي ١٨٨/٢ و ٢١٣ .

(٢٣) الفاسي : شفاء الغرام ٢٦٠/١ مصر ١٩٥٦ والازرقي ٢٢١/١ .

(٢٤) الازرقي ١٨٤/٢ و ١٩٢ و ١٩٥ .

(٢٥) الازرقي ١٤١/٢

(٢٦) الازرقي ٢٩١/٢

(٢٧) نفس المصدر ١١٨/٢

(٢٨) نفس المصدر ٢٠٥/٢

(٢٩) شفاء الغرام ٢٧٩/١ والازرقي ١٨٤/٢ و ١٩٥

(٣٠) الازرقي ٢١٧/٢

(٣١) الازرقي ٢٩١/٢

(٣٢) نفس المصدر ٢٣٧/٢

(٣٣) القطبي : الاعلام باعلام بيت الله الحرام ص ١١ . والازرقي ١٩٠/١

(٣٤) ابراهيم رفعت . مرأة الحرمين ٣٢٠/١ — ٣٢١

(٣٥) شفاء الغرام ٢٦١/١

(٣٦) الازرقي ٢٢١/١ و ٢٢٣/٢ و ٢٢٤

(٣٧) ياقوت : معجم البلدان ٢٢٦/٣ والازرقي ٢٣٢/٢ و ٢٨٧

(٣٨) الازرقي ١٦١/٢

(٣٩) الذهبي العبر فى خبر من غبر ص ١٦٠ . الكويت ١٩٦٠

(٤٠) محمد احمد : الخلافة والدولة العباسية ص ٣٠

(٤١) ابن خلدون المقدمة والماوردى . الاحكام السلطانية ص ١٣

(٤٢) الدكتور فاروق عمر . طبيعة الدعوة العباسية ص ١١٦ ط ١ بيروت ١٩٧٠ .

(٤٣) ابن قتيبة . الامامة والسياسة ٣٢٢/٢ ط ١ القاهرة ١٩٠٩ والطبرى ٢٢٣/٩ . وابن طباطبا . الفخرى فى الاداب السلطانية ص ١٤٣ . والصباغ . بلاد الحجاز خلال العصر العباسي الاول ص ١٥ بغداد ١٩٦٩ .

(٤٤) السنجارى : منايح الكرم ١٨٠/١ وما بعدها مخطوطة فى مكة المكرمة .

(٤٥) الدينوري : الاخبار الطوال ص ٣٣٩ ليدن ١٨٨٨

(٤٦) الذهبي : دول الاسلام ٦٠/١

(٤٧) عبد السلام رستم . ابو جعفر المنصور ص ٣٥ — ٣٧ مصر ١٩٦٥
وابن قتيبة . الامامة والسياسة ٣٥٦/٢ — ٣٥٨ القاهرة ١٩٠٩

(٤٨) الدينوري . الاخبار الطوال ص ٣٤٣ .

(٤٩) ابن كثير . البداية والنهاية ٢٥/١٠

(٥٠) ابن العبري : تاريخ مختصر الدول ص ١١٩ . وابن خلدون تاريخه ١٠٢/٣ — ١٠٣ وابن كثير ٢٧/١٠ والامامة والسياسة ٣٢٢/٢

(٥١) عبد السلام رستم . ابو جعفر المنصور ص ٣٩

(٥٢) ابن خلدون . تاريخه ٣٩٨/٣ بيروت ١٩٥٧وابن الاثير ٥١٣/٥ بيروت ١٩٦٥ .

(٥٣) الاصفهاني : مقاتل الطالبيين ص ٢٠٦ القاهرة ١٩٤٦ .

(٥٤) ابن العبري تاريخ مختصر الدول ص ١١٩ وابن كثير . البداية والنهاية ٣٥/١٠ طبع مصر .

(٥٥) الفاسي . شفاء الغرام ٢١٥/٢ .

(٥٦) ابن الاثير . الكامل ٣٥٦/٥ بيروت ١٩٥٦ وابن كثير ٣٠/١٠

(٥٧) ابن كثير . البداية والنهاية ٣٣/١٠

(٥٨) ابن العبري . تاريخ مختصر الدول ص ١١٩ — ١٢٠

(٥٩) اليعقوبي . تاريخ اليعقوبي ٣٤٢/٢ بيروت ١٩٦٠

(٦٠) الدينوري : الاخبار الطوال ص ٣٥٧ ليدن ١٨٨٨

(٦١) نفس المصدر ص ٣٥٨

(٦٢) ابن الاثير : الكامل ٣٨٠/٥

(٦٣) محمد احمد : الخلافة والدولة العباسية ص ٣١ — ٣٢

(٦٤) ابن كثير : البداية والنهاية ٢٧/١٠

(٦٥) ابن العبري ص ١١٩

(٦٦) الخلافة والدولة العباسية ص ٣٧

(٦٧) ابن خلدون تاريخه ٢١٨/٣ بيروت ١٩٥٧ وابن كثير ٣٤/١٠ مصر

(٦٨) السعودى : مروج الذهب ٦٦/٦ باريس ١٨٧٧ .

(٦٩) ابن الاثير ٣٧٣/٥ واليعقوبي ٣٣٩/٢ وياقوت ٣١٣/٤ وشفـاء الغـرام ١٧٥/٢

(٧٠) رستم . ابو جعفر المنصور ص ١٦ والسنجارى ١٨٠/١ ومـا بعدهـا (مخطوط) واليعقوبي ٣٣٩/٢ والطبرى ٩٦/٦ طبع مصر ١٣٥٨ هـ وابن الاثير ٣٥٢/٤ .

(٧١) الطبرى : تاريخ الرسل والملوك ٧١/٦ القاهرة ١٣٥٨ هـ

(٧٢) ابو الفداء : المختصر فى اخبار البشر ٢١٠/١ ــ ٢١٤ مصر

(٧٣) محمد حلمي : الخلافة والدولة فى العصر العباسي ص ٦ ــ ٧ مصر ١٩٥٩

مصادر تاريخ الجزيرة العربية في دار السجلات الحكومية في بومباي

الدكتور عبد الامير محمد أمين
جامعة الكويت

تحتفظ دار السجلات الحكومية في بومباى بمجموعة كبيرة من الوثائق التى تحتوى على معلومات كثيرة وقيمة تخص الجزيرة العربية وشرق الجزيرة ومنطقة الخليج العربى والبحر الاحمر • وسجلات بومباى فى الاساس هي سجلات « شركة الهند الشرقية الانكليزية The English East India Company » وسجلات السلطات البريطانية التى ورثت تلك الشركة وتولت مسؤولياتها •

وتوصف سجلات شركة الهند الشرقية الانكليزية بأنها أفضل مادة تاريخية في العالم (١) • ولعل ليس في هذا القول كثير من المبالغة ، اذا عرفنا العدد الهائل من المجلدات التى تتألف منها السجلات وطبيعة المادة التاريخية التى تحتويها •

وتتوفر سجلات شركة الهند الشرقية فى اماكن متعددة • فتحتفظ مكتبة دائرة الهند India Office Library في لندن بجزء كبير منها • كما وان هناك جزءا كبيرا آخر فى دور الوثائق المتعددة والمتناثرة في شعبة القارة الهندية • وأخص بالذكر منها « دار الوثائق الوطنية الهندية (٢) National Archives of India » ودار السجلات الحكومية في بومباى • والاخيرة هى موضوع هذا البحث •

وسجلات بومباى ذات مكانة متميزة كمصدر هام لتاريخ الجزيرة العربية ، اذ كانت بومباى مقرا لاحدى مديريات الشركة الثلاث فى الهند(٣) وقد عهد اليها بالاشراف المباشر على جميع الوكالات Agencies والمقيميات Residencies والممثليات البريطانية التى اوجدتها الشركة الى الغرب من شبه القارة الهندية. منها تلك التى اقيمت فيمنطقة الخليج العربي والجنوب العربى والعراق وفارس (٤) . واعتبرت بومباى مسؤولة كذلك عن رعاية مصالح الحكومة البريطانية اضافة الى مسؤوليتها في رعاية مصالح شركة الهند الشرقية في كل تلك الاماكن . وبعد هذا فليس من الغريب ان يتوقع المرء العثور على المعلومات التاريخية الكثيرة ذات الصلة لما نحن بصدده فى سجلات بومباى ووثائقها . ولعله من المفيد ان نذكر هنا ان سجلات بومباى هذه هى من خيرة السجلات البريطانية في الهند من حيث الوفرة والتنظيم . ومن الغرابة بمكان ان سجلات بومباى لم تستخدم (حسب علم الباحث) بشكل فعال من قبل الباحثين العرب . وارجو ان يساهم هذا البحث في تشجيع هؤلاء الباحثين للاستفادة منها في بحوثهم في المستقبل وان يمهد لهم السبيل في هذا المجال ، وذلك بما سيوفر لهم من مسح موجز لتلك السجلات وعن طبيعتها ومادتها .

وتحتفظ سجلات بومباى فى الوقت الحاضر في مبنى Elphiston College فى قلب مدينة بومباى . وتضم هذه ٩٨،٠٠٠ مجلد و٣٠٠،٠٠٠ اضبارة من هذه ٦٠٠٠ مجلد تخص الفترة السابقة لعام ١٨٢٠ (٤) . ويعكس هذا القدر الضخم من السجلات والمعلومات التى تحتويها فعاليات الشركة والسلطات البريطانية التى تلتها لفترة من الزمن تزيد على ثلاثة قرون .

لقد كانت التجارة هى موضع الاهتمام الاول بالنسبة لشركة الهند الشرقية الانكليزية خاصة خلال المئة والخمسين عاما الاولى من قيامها(٦) ولكن فعاليات الشركة لم تقتصر في أية فترة من فترات تاريخها الطويل

على التجارة وحدها ، بل كثيرا ماكانت تتجاوزها الى المجالات السياسية والعسكرية ، وذلك بحجة الرغبة في توسيع التجارة وحمايتها .

واعتاد موظفو الشركة ومستخدموها تسجيل كل تلك الفعاليات والكتابة عنها الى مستخدميهم في لندن وبومباى ، بل كثيرا ما سجل اولئك الموظفون والمستخدمون ما يقع تحت سمعهم وبصرهم من احداث محلية فى الاماكن التى كانوا يتواجدون بها ، وان لم يكن لتلك الاحداث صلة مباشرة بهم وبمصالح الشركة . وان هذا ليفسر كثافة المعلومات التاريخية في وثائق الشركة وسجلاتها .

وتتناثر المعلومات الخاصةبالجزيرة العربية بأصناف عديدةمن سجلات بومباى ، ولكن هناك اصناف معينة من تلك السجلات تتميز بغزارة المادة ووفرتها ومن هذه : (٧)

أولا ــ سجلات المقرات التجارية والمقيميات

Records of Factories and Residencies

ثانيا ــ سجلات مدينة بومباى

The Presidency and Records

ثالثا ــ سجلات البعثات واللجان والمعاهد الخ

Records of Missions Committees, Institutions etc.

رابعا ــ مختارات من الرحلات والرسائل والاوراق الرسمية المحفوظة عند سكرتيرة بومباى

Selections from the Travels and Journals preserved in the Bombay Secretriat, edited by George W. Forrest.

خامسا ــ مختارات من سجلات حكومة بومباى

Selections from the Records of the Bombay Government Consultations

وجاءت أغلبية سجلات الاصناف الثلاثة الاولى بشكل « يوميات دون فيها ممثلو الشركة جميع المراسلات المتبادلة بين بعضهم البعض وبينهم وبين مدراء الشركة فى لندن وبينهم وبين الحكام المحليين . كما سجلوا

فيها المناقشات والمشاورات Consvltations التى تجرى في مجلس المديرية ومجالس الوكالات والاجراءات والقرارات التى تتخذ تبعا لذلك. واعتاد ممثلو الشركة تدوين كل مايقع لهم وما يقع في المنطقة التى يقيمون بها من احداث في يومياتهم • وكثيرا ماكتبوا في تلك اليوميات أنباء واخبار تطرقت الى سمعهم فى اماكن بعيدة نسبيا عن اماكن اقامتهم • وبعد هذا الوصف الموجز لمدلول اليوميات نأتى على ذكر كل صنف من الاصناف الخمسة المذكورة لتبين مدى أهمية محتوياتها لبحثنا هذا •

أولا ــ سجلات المقرات التجارية والمقيميات :

ونجد فى هذا الصنف من سجلات بومباى نوعين متميزين هما : « يوميات المقرات التجارية Factory Dfaries وبومباى المقيميات Residency Diaries وضمن هذين النوعين من اليوميات نجد تلك السجلات الخاصة بمخا والبصرة وبندر عباس وبوشهر • وفي كل هذه السجلات معلومات قيمة تخص الجزيرة العربية خاصة بالنسبة للفترة السابقة للقرن التاسع عشر •

فبالنسبة الى يوميات مخا ، هناك يوميات المقر التجارى في مخا Macha Factory Diaries ويوميات المقيمية من مخا Macha ResidencyDiaries

وتحتوى يوميات المقر التجارى على أربعة مجلدات (مجلد رقم ٦٤ ، ٧٤ ، ٧٥ ، ٧٦) وتغطى الفترة من عام ١٧٢٢ الى عام ١٧٩٥ مع كثير من الفجوات • (٨) وفي طياتها معلومات تجارية تخص القهوة وكل مايتعلق بتجارة هذه السلعة الهامة •

وكانت مخا خلال القرن الثامن عشر السوق التجارى الرئيسي لتجارة هذه المادة • وكانت سوقها رائجة والارباح المتأتية منها كبيرة ومغرية وقد قامت كل من شركة الهند الشرقية الانكليزية وشركة الهند الشرقية

الهولندية (٩) يفتح مقر دائم لها في هذا الميناء • وعلى هذا كان التنافس على أشده بين ممثلي هاتين الشركتين • كما كان هؤلاء جميعا في خصام دائم مع السلطات المحلية التي كثيرا ما وصفها الاوربيون بالتعسف مدعين انها ترفع اسعار القهوة دون مبرر ، وتفرض ضرائب باهظة على بضائعهم وسفنهم • ان يوميات المقر التجارى في مخا تغطى هذه الجوانب المختلفة، كما تورد انباء محلية اخرى كثيرة (١٠) •

اما يوميات المقيمية فهذه في الحقيقة ليست يوميات بقدر ما هي وسائل كتبها المقيمون البريطانيون في مخا وربان السفن الى رؤسائهم في بومباى « رسائل صادرة Outward Letters ورسائل تلقوها من اولئك الرؤساء » ورسائل واردة Inward Letters وفى هذه وتلك معلومات تجارية كثيرة الى جانب معلومات أخرى تخص نشاط البريطانيين وصلاتهم مع السلطات المحلية • كما ان فيها تغطية لبعض أحداث المنطقة •

وتقع يوميات مقيمية مخا في تسعة مجلدات (مجلد رقم : ٦٥ ، ٦٦ ، ٦٧ ، ٦٨ ، ٦٩ ، ٧٠ ، ٧١ ، ٧٢ ، ٧٣) للفترة بين عام ١٨٢٠ وعام ١٨٢٨ • (١١)

ويوميات البصرة هي من اليوميات المهمة لبحثنا هذا ونجد فيها هي الاخرى يوميات مقر البصرة التجارى Bussora Factory Diaries ويوميات مقيمية البصرة Bussora Factory Diaries ومجموع مجلدات الاولى احد عشر مجلد والثانية تسعة مجلدات •

وتغطى هذه المجلدات العشرين الفترة من عام ١٧٦٣ الى عام ١٨١١• مع قليل من الفجوات • والمادة التاريخية التى تحتويها يوميات البصرة كثيرة ومهمة ، وهي تخص البصرة ، وولاية بغداد ، والجزيرة العربية ، والخليج العربى ، والقوى المحلية ، والحكام المحليين لكل تلك الاماكن •

ومن اليوميات المهمة الاخرى التى تحتفظ بها سجلات بومباى هى **يوميات بندر عباس** Gombroon Diaries وتضم هذه سبعة مجلدات (من رقم ١١٢ الى رقم ١١٨) وتغطى مادتها الفترة من آب عام ١٧٤١ الى آب عام ١٧٥٧ • وقد سجلت هذه من بين أمور اخرى تحركات القبائل العربية في منطقة الخليج العربى في منتصف القرن الثامن عشر • واحداث الخليج العربى • ويقال الشيء نفسه عن يوميات بوشهر ــ هى مجلد واحد يحمل رقم ٣٥ ويحتوى على رسائل صادرة واخرى واردة للفترة بين عام ١٧٨٩ وعام ١٧٩٨ •

ثانيا ــ سجلات مديرية بومباى Bombay Presidency ecords

وتصنف سجلات مديرية بومباى تبعا للاقسام التى كانت تتألف منها المديرية • ووحتى عام ١٧٥٥ لم يكن لمديرية بومباى الا قسم واحد هو « القسم العام Public Department وفي التاريخ المذكور انشيء قسم آخر هو « القسم السياسي والسرى Political and Secret Department ثم تتالت الاقسام• فانشيءالقسم التجارى والقسم البحرى وقسمالايرادات والقسم الصحى والى آخره • وذلك نظرا لتوسع مهام المديرية وتشعب مسؤولياتها • (١٢)

وكان القسم السياسي والسرى يفصل الى قسمين « سياسي » و « سرى » في بعض الاحيان ويدمج في قسم واحد في احيان اخرى • وقد نجد المعلومات التاريخية التى تهمنا متناثرة في سجلات أغلب تلك الاقسام • ولكن المادة الاساسية تتوفر في سجلات القسم العام للفترة السابقة لعام ١٧٥٥ وفي القسم السياسي والسرى للفترة التى تلت عام ١٧٥٥ •

ووردت المعلومات في سجلات كلا القسمين (أى القسم العاموالقسم السياسي والسرى) ضمن اليوميات • وقد استمر نظام اليوميات هذا معمولا به حتى عام ١٨٢٠ حين أبدل النظام برمته •

وهناك فى القسم السياسى والسرى وللفترة مابين عام ١٧٥٥ وعام ١٨٢٠ مايزيد على ١٠٠ مجلد تضمنت يوميات ادخلت فيها موضوعات تخص عدن ، والبحرين ، ومسقط ، ومخا ، واليمن ، وقبائل القواسم ، والدولة السعودية ، ومواضيع أخرى ذات صلة لما نحن بصدده . فهناك على سبيل المثال : أربعة مجلدات وردت فى يومياتها امور ذات علاقة بعدن منها محاولة شركة الهند الشرقية لفتح قصر تجارى لها في هذا الميناء .(١٣) ومنها أيضا محاولة البريطانيين احتلالها واخضاعها لهيمنتهم . (١٤) والى جانب هذا فان هناك سبعة مجلدات وردت فيها معلومات متنوعة عن البحرين . اما مسقط فقد غطيت اخبارها في يوميات وردت في اربعة وثلاثين مجلدا . وتناولت تلك الاخبار النشاط الفرنسي في مسقط (١٦) وعلاقة حكام مسقط بشركة الهند الشرقية (١٧) وبباشا بغداد (١٨) وبالسعوديين . (١٩) والحرب مع حكام البحرين (٢٠) والصراع مع القواسم . (٢١) وحصار اسطول مسقط للبصرة (٢٢) والبحرين (٢٣) وهناك مجلدات وردت فيها أنباء عن شريف مكة وعلاقته بالبريطانيين (٢٤) والفرنسيين (٢٥) .

كما توجد ستة مجلدات تتوفر في يومياتها معلومات عن امام اليمن وعلاقته بالبريطانيين وامور اخرى . (٢٦) اما الدولة السعودية فقد غطتها يوميات وردت في أربعة عشر مجلدا تضمنت علاقات السعوديين بباشا بغداد وبحكام مسقط (٢٨) وصلاتهم مع شركة الهند الشرقية (٢٩) ومعلومات كثيرة ومتنوعة اخرى . (٣٠) وتوجد مجلدات كثيرة وردت فيها اشارة الى القواسم ورأس الخيمة والصراع بين القواسم والبريطانيين ولا يفوتنا بعد كل هذا أن نذكر أن هناك اكثر من تسعين مجلدا وردت في يومياتها اخبار بغداد والبصرة ، ومع أن اغلب المعلومات التى وردت في هذه المجلدات تخص ولاية بغداد الا ان المعلومات الاخرى ذات الصلة بالجزيرة العربية والخليج العربى ذات أهمية لايمكن الاستهانة بها .

لقد ذكرنا ان نظام اليوميات قد أبطل في كل الاقسام وبالنسبة لجميع سجلات واجراءات الشركة بعد عام ١٨٢٠ • وصارت السجلات والمجلدات التى تضمها تصنف حسب الحروف الهجائية تبعا للموضوعات • وبالنسبة لمجلدات القسم السياسى والسرى فقد ووضعت سجلات خاصة بهـــا ومستقلة تخص كل مكان وموضوع ذى شأن • لذا نجد السجلات التى تهمنا قد صنفت مجلداتها تحت العناوين الاتية : الخليج العربى ، مخا ، مسقط ، أبو شهر ، التجارة ، تجارة الاسلحة ، البحرين ، عدن ، القواسم والى آخره • (٣١) وتتميز الفترة التى تلت عام ١٨٢٠ بكثرة المعلومات وغزارة المادة التاريخية التى تضمنتها سجلات بومباى • وقد زاد عـــدد المجلدات ذات الصلة بالجزيرة العربية والخليج العربى زيادة هائلة • ولعل التطورات السياسية تعطى التفسير الملائم للوضع الجديد •

شهدت بداية هذه الفترة نهاية الصراع المرير بين قبائل القواســم والبريطانيين ومهدت تلك النهاية السبيل لسيطرة بريطانيا سيطرة فعليـــة على الخليج العربى •(٣٢) وقد ارتبطت بعض القوى المحلية فى المنطقـــة ارتباطا وثيقا بالبريطانيين • وزاد هذا فى اهتمام هؤلاء بكل احداثها • وشهدت الفترة ايضا تحركات المصريين في جزيرة العرب • وكان هنـــاك احتمال في اندفاعهم الى سواحل الجزير العربية وتعرضـــهم للمصـــالح البريطانية هناك واحتل البريطانيون عدن عام ١٨٣٩ •

وصمم البريطانيون على احكام سيطرتهم على الخليج العربى والممرات المائية المؤدية للمحيط الهندى فاوجدوا المبررات واختلقوا الحجج للتدخل في شؤون هذا الجزء من الوطن العربى أو ذاك • فحاربوا القبائل العربية بدعوى مكافحة القرصنة ومقاومة تجارة الرقيق ومنع تهريب الاســلحة وحماية امن المنطقة ضد اطماع القوى المحلية من فارسية وعثمانية ومصرية وضد القوى الاوربية الاخرى من فرنسية وروســية والمــانية • وربط البريطانيون اغلب حكام المنطقة بمعاهدات واتفاقيات تضمن المصـــالح

البريطانية وانتشر القناصل والدبلوماسيون والممثلون فى كل ناحية وميناء • (٣٣)

لقد اقتضى هذا التوجه الجديد زيادة في النشاط البريطاني وتطلب مضاعفة البريطانيين لاهتمامهم بكل شأن من شؤون الخليج العربى والجنوب العربى وشرق الجزيرة العربية والاقاليم المجاورة • فكتبت التقارير المعضلة لكل جانب من جوانب النشاط السياسي والاقتصادى والادارى فى تلك الاماكن • ومسحت السواحل ، وتوغل الرحالة والمغامرون من قلب الجزيرة العربية • (٣٤) وغطي كل حدث بشيء كثير من التفصيل • فتراكمت المعلومات وتضاعف عدد المجلدات الخاصة بكل جزء من اجزاء المنطقة • ويكفى ان نذكر على سبيل المثال لا الحصر ، ان هناك ستة مجلدات عن عدن لعام ١٨٤٠ وهناك خمسة مجلدات عنها لعام ١٨٤١ وسبعة مجلدات لعام ١٨٥٦ • كما توجد ستة مجلدات عن مسقط لعام ١٨٦٧ وتسعة مجلدات عنها لعام ١٨٦٩ • (٣٥) ومجمل القول ان هناك مايقرب من خمسمائة مجلد للفترة ١٨٢٠ — ١٨٨٠ لها صلة مباشرة أو غير مباشرة بالجزيرة العربية ، متوفرة في القسم السياسي والسرى في دار السجلات الحكومية في بومباى • (٣٦)

ويلاحظ الباحث تناقضا ملحوظا فى سجلات القسم السياسي والسرى خلال فترة السبعينات وبعدها • وينحصر التفسير لهذا التناقض في تضاؤل الدور الذى أخذت تلعبه حكومة بومباى في الشؤون الخارجية •

سبق أن ذكرنا في بداية هذا البحث ان مديرية بومباى كانت مسؤولة عن رعاية مصالح شركة الهند الشرقية ، بل ومصالح الامبراطورية البريطانية عن اجزاء مهمة من العالم تقع الى الغرب من شبه القارة الهندية مثل : منطقة الخليج العربى والجنوب العربى والجزيرة العربية والعراق وفارس وفي عام ١٧٧٣ سن البرلمان الانجليزى ما يعرف « قانون التنظيم » The Regulating Act الذى منح مديرية البنغال ومقرها كلكتا الاشراف

على شؤون المديريتين الاخريين بومباى ومدراس • (٣٧) ولكن بومباى استمرت في رعاية الشؤون الخارجية للمصالح البريطانية فى الاماكن الانفة الذكر • وبقى الوضع على ما هو عليه حتى بعد انتهاء دور شركة الهند الشرقية وتولي •• حكومة لندن الاشراف الكامل على شؤون الهند في عام ١٨٥٧ •

وكان هناك شعور متزايد لدى الاوساط الحاكمة البريطانية سواء فى انكلترا او في الهند بأن استقلالية الحكومات المحلية في الهند بادارة الشؤون الخارجية لايخدم مصالح الامبراطورية البريطانية على الوجه الافضل • ان تطور وسائل المواصلات وسرعتها واستخدام التلغراف ازال المبررات التى كانت قائمة والتى أعطت المديريات الثلاث في الهند حق الاشراف على الشؤون الخارجية كل فى مجالها الخاص • وانه آن الاوان لاخضاع جميع الشؤون الخارجية لسلطة حكومة الهند المركزية •

واخيرا وبعد مفاوضات مطولة بين الحكومة البريطانية وحكومة الهند وحكومة بومباى تمت الموافقة فى عام ١٧٧٢ م على نقل الاشراف على الشؤون الخارجية الى حكومة الهند المركزية • على أن ترسل نسخ من كل المراسلات للوكالة البريطانية في الخليج الى حكومة بومباى لاحاطة المسؤولين فيتلك الحكومة بالمعلومات الضرورية من جهة وللاستفادة من ملاحظاتهم وخبراتهم من جهة أخرى • (٣٨)

واستمرت حكومة بومباى لسنين عديدة تشارك حكومة الهند المركزية في ادارة الشؤون الخارجية ولكن دورها كان فى تناقص مستمر • وما أن حل القرن العشرون حتى انتقلت ادارة تلك الشؤون برمتها الى حكومة الهند المركزية • وهكذا انتقلت المادة التاريخية الاساسية الى اماكن اخرى من الهند • ولم تعد بومباى هى المكان الملائم تماما للبحث عنها •

ولا اريد الانتقال الى بحث الاصناف الثلاثة التالية من سجلات بومباى دون التطرق الى الميزة الاخرى للصنفين اللذين سبق الكلام عنهما (سجلات المقرات التجارية والمقيميات ، وسجلات مديرية بومباى) • وهذه هى اهميتها الخاصة كسجل مهم لتحركات القبائل العربية • ولعل سجلات هذين الصنفين هى من افضل المصادر التاريخية في هذا المجال • (٣٩)

فقد شهد القرنان السابع عشر والثامن عشر فعاليات عربية واسعة النطاق في قلب الجزيرة العربية وعلى جانبى الخليج العربى • واظهرت القبائل العربية من الحيوية والنشاط والقدرة البحرية والقوة ما ليس له مثيل في تاريخ العرب الحديث •

ولعل اندفاع قبائل عمان في عهد اليعاربة في النصف الثانى من القرن السابع عشر ، وتحرك القبائل العربية من وسط الجزيرة العربية في اطار الدعوة الاصلاحية فى النصف الثانى من القرن الثامن عشر ونشاط القبائل العربية فى الجزء الشمالى من الخليج العربى (عرب بوشهر ، وبندر ريق ، وجزيرة خارج ، وقبيلة كعب ، وعرب العتوب) ، ثم النمو الهائل في قوة القواسم في نهاية القرن وصراعهم الطويل المرير مع الانكليز ، ونجاح عرب العتوب وعرب عمان والجنوب العربى فى المجال التجارى (اضافة الى نشاطاتهما السياسية والعسكرية) وسيطرتهم على التجارة بين الهند من جهة والخليج العربى والبحر الاحمر من جهة أخرى • كل هذه مظاهر واضحة للحيوية والنشاط العربيين •

واشتبكت القبائل العربية في صراع طويل مع العثمانيين والفرس طيلة القرن الثامن عشر ، وذلك للتخلص من نير هؤلاء وهيمنتهم • وزج الانكليز والهولنديون بأنفسهم في هذا الصراع • وادى تدخل الهولنديين الى جانب الفرس ضد مير مهنا حاكم ميناء بندر ريق وجزيرة خارج الى قيام الحرب بينهم وبين هذا الرئيس العربى ، وانتهت الحرب بانتصار الاخير وسقوط جزيرة خارج آخر معاقل الهولنديين في الخليج عام ١٧٦٧ وكانت هذه نهاية الوجود الهولندى في الخليج العربى •

وتدخل البريطانيون في الحرب الدائرة بين قبيلة كعب من جهة والفرس والعثمانيين من جهة اخرى وذلك بحجة حماية الملاحة في شط العرب والحفاظ على تجارة البصرة • ودارت الدوائر على العثمانيين والفرس وحلفائهم الانكليز ، وتوالت عليهم الهزائم والنكبات • ويكفى ان نذكر هنا أن الاسطول الذى أرسلته السلطات الانكليزية الى الخليج العربي في عام ١٧٦٦ لمحاربة كعب يمثل اعظم قوة بحرية بريطانية دخلت مياه الخليج منذ قدوم الانكليز الى هذه المياه في اوائل القرن السابع عشر وحتى قيام تلك الحرب•

وخلال الفترة ١٧٦٦ ــ ١٧٧٢ كان الاسطول الانكليزى في الشرق مشتبكا برمته تقريبا في الحرب ضد كعب وضد ميرمهنا • تطلب الأمر اخيرا الاستعانة بالاسطول الملكي فى اوربا للمساهمة فى الحرب ضد القبائل العربية •

كل تلك الجوانب من النشاط العربي السياسي والعسكرى والتجارى وكل هذه الحيوية للقبائل العربية ، دونت يوما بيوم في كثير من الاحيان • وسجلت بشيء كثير من التفصيل ، ووصفت بقسط كبير من الاثارة فى يوميات بندر عباس ويوميات البصرة ويوميات بوشهر وفى سجلات القسم السياسي والسرى • هذا وقد نستطيع القول بشيء قليل من التحفظ ان أية دراسة جادة لتاريخ الجزيرة العربية والتحركات وفعاليات القبائل العربية لا يمكنها تجاهل سجلات بومباى هذه •

ثالثا ــ سجلات البعثات واللجان والمعاهد الخ

Records of Missions, Committees, Institutions, etc.

ونجد في هذا الصنف من السجلات مجلدا واحدا فقط يهمنا في هذا البحث وهذا المجلد هو (٤٠) •

Mission to Arabia with a Route from Kutteef to Yanbo.

ومحتويات هذا المجلد هي عبارة عن وقائع رحلة جـ • سادلر الذى انتدب من قبل السلطات البريطانية الى ابراهيم باشا وكذلك بعثة كابتن بروس المقيم البريطاني في مخا •

ومر سادلر بكثير من موانيء الخليج واعطى وصفا مفصلا للقطيف ولقراها وللموارد المالية والسكان • (٤١) كما اورد رسائله الى رئيس بنى خالد والى شيوخ البدو • (٤٢) والمجلد بجملته تسجيل لوقائع الرحلة يوم بيوم •

رابعا ـ مختارات من الرسائل والاوراق الرسمية الاخرى (٤٣) : ـ

Selections from the Letters, Despatiches and other State papers, by George W. Forrest.

ويتضمن هذا الصنف من السجلات كثيرا من الرحلات قام بها عدد من المغامرين كان اغلبهم في خدمة شركة الهند الشرقية ، وقد قام جورج فورست باختيارها وطبعها لاعتقاده باهميتها • وفيما يخص جزيرة العرب نجد اربعة من هذه المختارات هي :ـ

I. Narrative of a Journey from the Tower of Ba-L. Haff on Southern Coast of Arabia to the Ruins of Nab-al-Hajor ; in April 1835, by Welested, Indian Navy.

لقد كان ولستد وزميله (كروتندن Capt. Cruttenden) على ظهر سفينة الشركة الاستطلاعية (بالتزر Palinurus) بالقرب من ساحل رملي يدعى (رأس الاسد Ras-ul-Asseida) عندما تطرق الى سمعهم من بعض البدو بوجود خرائب وبقايا مدن كان قد اقامها الكفار في سابق الزمن وهي لاتبعد كثيرا عن موقع سفينتهم • فما كان من ولستد وكروتندن الا ان ملآ قربهما بالماء وامتطيا الجمال وسارا قدما مستصحبين معهما بعض البدو العارفين في المنطقة وكانت الرحلة شاقة ولكن النجاح الذى حققاه استحق ذلك العناء • (٤٤) لقد كانت رحلة جريئة حقا • وكان القائمون بها روادا لمن جاء بعدهم من المستكشفين •

٢ ـ والرحلة الثانية في هذه المختارات هي :

Account of an exurstion in Hadramount by Adolphe Baron Wrede.

وبارون رد هذا مغامر بافاری من اسرة كريمـة • قام برحلـة من عدن الى المكلا فى ٢٢ حزيران ١٨٤٣ • وفي ٢٦ منه بدأ تـفي التوغل الى الداخل • وقد استعان ببعض البدو الاشداء لحمايته • واستغرقت رحلته ١٢ يوما وصل خلالها الى منطقة بحر Bahr-el-Saffi ، وترك وصفا ممتعا لهـذا الموقع وللمنطقة المحيطة به • وقـام الكابتن هينـز Capt. Haines بارسال وصفة هذا الى حكومة بومباى • وارسلته هذه بدورها الى الجمعية الملكية الجغرافية • واثارت رحلته رد الاقاويل فقد اشيع ان وصفه جاء عن طريق السماع دون المشاهدة الحقيقية للمواقع التي ذكرها • وتوفرت الادلة بعد وفاته بصحة كل ما جاء في روايته وانه قد قام حقا بتلك المغامرة الجريئة • (٤٥)

٣ ــ والرحلة الثالثة هي :

Narrative of journey from Mooha to Sana by Charles J. Cruhendeu.

ففى ١٣ تموز عام ١٨٣٦ غادر كروتندت مخا متوجها الى صنعـاء وكان بصحبته الدكتور هالتن Dr. Halton وخادمان وكان الجميـع مسلحين ووصل العاصمة اليمانية ومكث فيها شهرين • وقد ترك وصفا شيقا للطريق الذى سار فيه وللعاصمة • وشهد موكب الامام عند تأديته صلاة الجمعة • وعثر كروتندن عندما كان في صنعاء على بعض النقوش الحميرية ، عرف انها نقلت من مأرب • وقد قام باستنساخ بعض تلـك النقوش •

٤ ــ والرحلة الرابعة هي :

Memoir of the South Coast of Arabia from the entrance of the Red Sea to Misena't by Captain S.B. Haines.

لقد قيل ان هناك قلة من الناس يفوقون الكابتن هينز مهارة فـي فن الملاحة ووصف هينز رحلته بانها محاولة لاعطاء وصف لخمسمائـة

ميل من الساحل الجنوبي لجزيرة العرب • التي لا يعرف عنها الا النزر اليسير • وشمل وصفه الحكومات والسكان والتجارة والزراعة •

والمعلومات التى اوردها هينز كان قد جمع البعض منها بنفسه ،عما قام بجمع البعض الاخر عدد من ضباط وبحارة سفينة الشركة الاستطلاعية (بالنرز) خلال الاعوام ١٨٣٤ ، ١٨٣٥ ، ١٨٤٦ • (٤٦)

خامسا ــ مختارات من سجلات حكومة بومباى :

Selections from the Records of the Bombay Government.

ويتضمن هذا الصنف تقارير ودراسات ورحلات متنوعة قام بها اشخاص بريطانيون وغير بريطانيين فى أوقات متفاوتة • واختارتها حكومة بومباى ، لاعتقادها بأهميتها ، وقامت بطبعها ونشرها ، وهناك عدد من هذه المختارات تخص جزيرة العرب جمعت كلها في مجلد واحد ، ويحتوى هذا المجلد على هذه المختارات :

1. A History of Arabia Felix or Yemen from the Commencement of the Christian Era to Ihe Present Time, Including Settlement of Aden by Capt. R. Playfair.

2. Description of Arabia, made from personal observations and information collected on the spot, by Garsten Niebuhr. Translated into English by Major C.W. Sealy (1889).

3. Hadrthramut and the Arab colonies in the Archipeloge, by L.W.C. Van Den Berg. Translated into English by Major C.W. Sealy (1887).

الهوامش

1. Guide to the Records in the National Archieves in India, Part I (Introductory), National Archieves of India, New Delhi ; 1959, p. 9.

(٢) للاطلاع على المزيد من المعلومات عن هذه ، انظر المصدر السابق .

(٣) اما المديريتين الاخرتين فهما مديرية مدارس ومديرية كلكتا .

(٤) للاطلاع على تنظيمات الشركة فى منطقة الخليج العربى والجنوب العربى .
انظر ــ ج لورمر ، دليل الخليج ، الجزء الاول ، طبعة جديدة معدلة ومنقحــة .

V.G. Dighe, Descriptive Catalogue of the Secret and Political Department Series 1755-1820, Bombay 1954.

(٥) للاطلاع على المزيد من فعاليات الشركة وتجارتها انظر :

H. Furber, John Company at work, Cambridge ; Harward University Press, 1948 ; F. P. Robinson, The Trade of the East India Company, Company Cambridge : 1912 ;

الدكتور عبد الامير محمد امين

(التنافس بين الشركات التجارية الانكليزية فى منطقة الخليج العربــى والاقطار المجاورة خلال القرنين السابع عشر والثامن عشر) مجلة كلية الاداب، بغداد ١٩٦٣ .

A.F. Kindersley, A Handbook of the Bombay Government Records, Bombay ;1921.

(٨) لا توجد يوميات لعام ١٧٢٣ ــ ١٧٢٤ وكذلك ١٧٢٤ ــ ١٧٢٥ وللفترة من آب عام ١٧٢٦ ــ آذار عام ١٧٣٠ ومن آب عام ١٧٣٠ ــ نيسان عام ١٧٣٣ ومن آب ١٧٣٣ ــ آذار عام ١٧٥٢ ومن تموز عام ١٧٥٢ ــ نيسان عام ١٧٩٥ ومن حزيران عام ١٧٩٣ ــ نيسان عام ١٧٩٥ .

(٩) لمعرفة المزيد عن النشاط الهولندى فى مخا انظر : ــ

Kristof Glamann, Asiatic Trade 1620-1740, Copenhagan ; Danish Science Press, 1958.

See Bombay Government Records, Records of Factories and Residencies Mooha Factory Diaries Vols ; 64, 74, 75, 76.

مجلد رقم ٦٤ يغطى الفترة ١٧٢٢ – ١٧٢٣ وفيه ٨٢ صفحة وهو فى حالة رديئة غلافة متأكل وكذلك الحال بالنسبة لكثير من صفحاته .

مجلد ٧٤فىحالة افضل . وقامت دار الوثائق فى بومباى بترميمه واعادة تغليفه . وقد لاحظ الباحث ان عملية ترميم المجلدات واصلاحها سائرة قدما فى الدار المذكورة . وشملت عملية الاصلاح هذه اعداد كبيرة من المجلدات التي تآكلت اغلفتها واوراقها لتقاوم الزمن وبفعل الرطوبة والاتربة وعدم اتباع الاساليب التعليمة الحديثة فى الصيانة .

مجلد رقم ٧٥ لا يزال فى وضع رديىء للغاية . ومن مجلد رقم ٧٦ (وهو فى حالة افضل) معلومات كثيرة عن القهوة والضرائب المفروضة عليها . كما انه يحتوى على اخبار تجارية طريفة تشمل أسعار السلع الهندية والبنغالية فى اسواق مخا بشكل مفصل . وكذلك حمولة بعض السفن القادمة الى مخا والخارجة منها .

See Mooha ffiesidency Diaries Vols. 65-73.

ويحتوى مجلد رقم ٦٥ على رسائل متفرقة للفترة ١٨٢١ – ١٨٢٦ وهي رسائل واردة الى مقيمية مخا . والمجلد فى حالة جيدة قابل للقراءة ومجلد ٦٦ يحتوى هو الاخر على رسائل واردة . مجلد ٦٧ يحتوى على رسائل واردة للفترة ١٨٢١ – ١٨٢٧ . وترتيب الرسائل فى المجلد الاخير مضطرب جدا واوراقه وغلافه فى وضع سيىء للغاية وتصعب قراءة اغلب ماجاء فيه .

اما مجلد ٦٨ فيضم رسائل صادرة من مخا الى بومباى للفترة ١٨٢١ – ١٨٢٨ وهو فى حالة جيدة قابل للقراءة .

المجلدات ٦٩ ، ٧٠ ، ٧١ ، ٧٢ تضم اوراقا متنوعة تشمل حسابات المقيمية وكشوف وبيانات وتقارير تجارية والمنشئات والبضائع المتبقية والغير قابلة للبيع وفضلات الاقمشة والخ .

See Kinderaley, op. cit.,

See Bombay Government Records, Bombay Presidency Records, Secret and Political Department, Vol. 87, Diaries (8, 9, 10) ; Diary (26) ; Vol. 106, Diary (10).

14. Ibid., Vol. 123, Diary (5).

15. Ibid., Vol. Diary

41	13
299	5
300	1
307	1
431	14
432	12
439	6

16. Ibid., Vol. Diary

52	27
147	14
150	15
197	8

17. Ibid., Vol. Diary

74	8

18. Ibid., Vol. Diary

84	24

19. Ibid., Vol. Diary

113	3

20. Ibid., Vol. Diary

116	9

21. Ibid., Vol. Diary

115	3

22. Ibid., Vol. Diary

398	14

23. Ibid., Vol. Diary

406	14
411	13

24. Ibid., Vol. Diary

86	1

25. Ibid., Vol. Diary

402	10

26. Ibid., Vol. — Diary

Vol.	Diary
316	12
411	15
473	7
490	8
491	4
494	9

27. Ibid., Vol. — Diary

Vol.	Diary
207	1

28. Ibid., Vol. — Diary

Vol.	Diary
113	3
135	3
140	10
146	16
147	1.14

29. Ibid., Vol. — Diary

Vol.	Diary
148	20
150	15

30. Ibid., Vol. — Diary

Vol.	Diary
151	4
152	2
227	7
238	8
405	7

31. See Bombay Government Record, Secret, and Political Department.

(٣٢) للاطلاع على المزيد عن الصراع بين الانكليز والقواسم ولمعرفة المزيد من وقائعه انظر : صالح محمد العابد ، دور القواسم فى الخليج العربي ، بغداد : ١٩٧٥ .

(٣٣) لمعرفة المزيد عن دور البريطانيين فى المنطقة خلال القرن التاسع عشر انظر : J. B. Kelly, Britain and the Persian Gulf 1795-1880 London 1964

(٣٤) انظر مابعده ص

35. See Bombay Government Records, Secret and Political Department. ومما يجدر ذكره ان اغلب المجلدات الخاصة بعدن وصلت الى عدن نفسها لتحفظ هناك .

Ibid., 39

37. W. Hunter, A Brief History of the Indian People (24th ed.,) Oxford 1909, p. 186-7.

(٣٨) لورمر ، دليل الخليج ، الجزء الاول ص ص ٤٢٣ — ٤٢٥ .

(٣٩) عالج الباحث موضوع تحركات القبائل العربية ومغالباتها فى عدد من المقالات والكتب منها : القوى البحرية فى الخليج العربي خلال القرن الثامن عشر ، بغداد : ١٩٦٦ ، اضواء جديدة على تاريخ الخليج العربي الحديث ، المجلة التاريخية ، بغداد . العدد الاول ، السنة الاولى ، دور القبائل العربية فى صد التوسع الاوربي فى الخليج العربي خلال القرنين السابع عشر والثامن عشر . بحث القي فى المؤتمر الدولي للتاريخ ، بغداد : ١٩٧٣ . ويقوم الباحث الان باعداد دراسة موسعة ومتكاملة فى هذا الشأن .

40. Bombay Government Record, Records of Mission, Committees, Institutions, etc., Vol. 323.

وهذا المجلد بشكل جيد غلافة سليم واوراقه مربوطة مع بعضها البعض بشكل محكم . ولكن الكتابة فى بعض صفحاته غير واضحة وتحتاج الى مران وتمرس فى القراءة .

41. Ibid P. 22,

42. Ibid P. 40,

(٤٣) وردت سجلات هذا الصنف فى Kindersley كملحق E

ولكن الارقام والمعلومات التي اوردها الدليل لاتساعد كثيرا فى العثور على هذه السجلات . وقد بذل الباحث جهودا كبيرة للحصول عليها واخيرا وجدها وقد كتب من الغلاف المعلومات التالية :

(٤٧) ورد هذا الصنف من السجلات كملحق F فى Kindersley ولكن.
المعلومات التى اعطيت فى هذا الدليل لاتساعد فى العثور عليها. وقد وجد

Selections from the Recors of the bombay Goveament No. 398318

48. Ibid

49. Ibid

50. Ibid